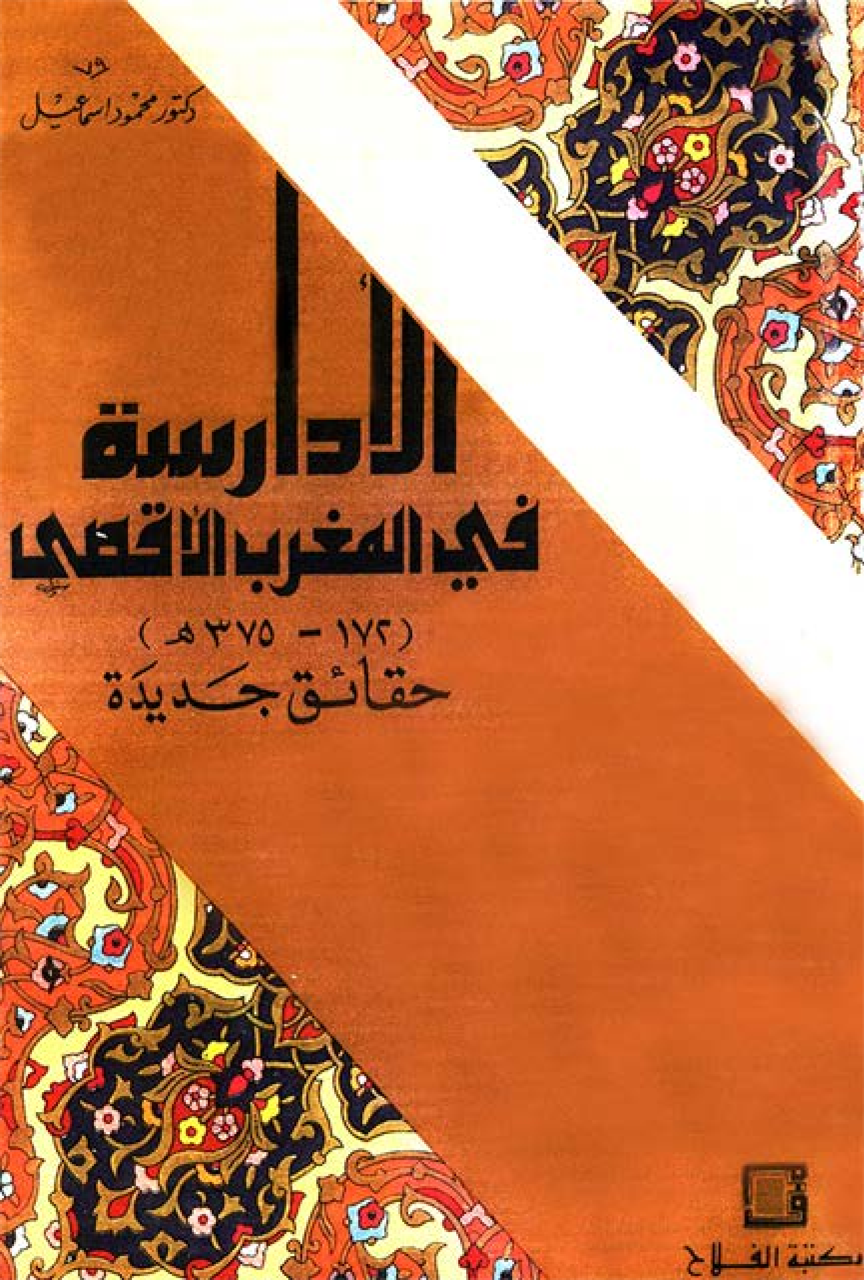

دكتور محمود اسماعيل
الأدارسة
في المغرب الأقصى
(١٧٢ - ٣٧٥ هـ)
حقائق جديدة
مكتبة الفلاح



دكتور محمود إسماعيل

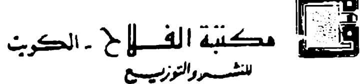




الطبعة الأولى

١٤٠٩هـ ١٩٨٩م





شارع بيروت مقابل بريد حولي القديم
تلفون: ٢٦٤٧٧٨٤
ص.ب: ٤٨٤٨ الصفاة الرمز البريدي 13049الكويت
برقيا: لفانكو

فهرس الموضوعات

الباب الأول
قيام دولة الأدارسة

الباب الثاني
سياسة الأدارسة الداخلية

الباب الثالث

علاقة الأدارسة الخارجية

إهداء

لمنّة الإله
ومجتلى سناه
فاس التي أهدتني يومًا من رباها نرجسة
أهدي ثراها زهر آس من شذى "الأدارسة"

مقدمة

بدأت فكرة تأليف هذا الكتاب منذ عشرة أعوام؛ حين انتدبت من كلية الآداب بفاس لإلقاء محاضرات على طلبة الدراسات العليا بكلية آداب الرباط عن دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى.

وحين شرعت في إعداد مادة المحاضرات، أيقنت أن المصادر المتاحة لا تفي بما يسعف في تقديم صورة واضحة عن الموضوع. كما أن الكتابات الحديثة العربية والاستشراقية لم تؤرخ قط لدولة الأدارسة في مؤلفات مستقلة بذاتها. اللهم إلا رسالة قدمت عن الموضوع في الستينات بكلية دار العلوم بالقاهرة لنيل درجة الماجستير، لا تعدو أن تكون صياغة لغوية حديثة لنصوص قديمة جد محدودة.

أما كتابات الباحثين المحدثين من العرب والمستشرقين ـ الذين اهتموا بتاريخ المغرب ـ فقد عرضت للموضوع في عجالة ضمن تاريخ المغرب العام. وإذا كانت الكتابات العربية تنهج نهجا منقبيا تمجيديا تعبيرا عن سمة التعاطف مع آل البيت؛ فإن كتابات المستشرقين الفرنسيين ـ كجوتييه وتيراس وفورنل وجوليان وجورج مارسيه وغيرهم ـ تقلل من شأن الأدارسة وتفسر تاريخهم من خلال المذهبية والإثنية والإقليمية والبطولة الفردية. وقد نبهت إلى هذه المزالق في دراسة بعنوان «ملاحظات حول تاريخ الأدارسة»[1] أثارت في حينها من الحوار ما

(١) نشرت الدراسة في المجلة التونسية «الحياة الثقافية» عدد ٥، اكتوبر ١٩٧٩.

رسخ فكرة الإقدام على دراسة الموضوع رغم محاذيره.

ومن حسن الحظ أن نصوصا جديدة صدرت تباعا لتكشف عن الكثير من الغموض وتضع نهاية «لمؤامرة الصمت» التي حيكت قديما وحديثا حول تاريخ الأدارسة. تلك المؤامرة التي فضحها باحث[٢] مغربي جاد بالنسبة لموقف المؤرخين القدامى؛ حين فسرها في إطار المصادرات المعرفية بين مؤرخي السنة ومؤرخي الشيعة في العالم الإسلامي الوسيط.

ومن جانبنا نرى أن مدرسة الاستشراق الفرنسي عزفت ـ إراديا ـ عن التاريخ «للدولة» أصلت مفهوم «المخزن» في تاريخ المغرب من وقت مبكر انطلاقا من نظرة استعمارية ترى في بلاد المغرب «سيبة» وجب أن تستعمر، تأسيسا على نظرية «حق الغزو» و«المشاع المستباح» التي ظل معترفا بها في القانون الدولي حتى عام ١٩٤٥م.

على أن اقتحام الموضوع لم يخل من مصاعب. إذ كيف يمكن التأريخ لدولة إنعدم أو كاد «إطارها المصدري»؟ هذا السؤال سبق أن طرحه الباحث السابق الذي أثبت أن كتب الأدارسة الأصلية أهملت قديما حتى ضاعت إن لم يكن أتلفت عمدا. ونؤكد ـ من جانبنا ـ أن كل المصادر التي عرضت لبعض جوانب الموضوع فضلا عن اضطرابها واختلافها حتى فيما يتعلق بالأحداث والوقائع الأساسية؛ دبجت في عصر متأخر.

وهذا يفسر لماذا أهمل المؤرخون المشارقة القدامى ـ وعلى رأسهم الطبري ـ التأريخ للأدارسة رغم تصنيفهم حوليات عالمية. فالقليل النادر الذي أوردوه

---

(٢) راجع: عبداللطيف السعداني: إدريس الأول منشئ دولة وباعث دعوة. فصله من مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، عدد ٤، ٥ سنة ١٩٨٠ ـ ١٩٨١.

بصددهم مضبب بالتحامل المذهبي حتى وصل الحال إلى حد التكفير والتشكيك في أنسابهم. أما المغاربة القدامى فقد أسهموا في مزيد من التضبيب عن طريق نسج هالات من البطولات والخوارق والكرامات على آل إدريس. ولم يقدم المتحاملون والمشايعون عنهم معا أكثر من سير ذاتية ذات مسوح أخلاقي. ناهيك عن أساليب الاختلاق والتزييف والتحريف والانتحال والافتعال. وحسبنا أن تاريخ ابن أبي زرع - وهو أوفى المصادر المتأخرة بعامة ومنه نقل كل من جاء بعده - يورد أحداثا ووقائع يزعم بالباطل أنه نقلها عن أسلافه.[٣].

إن «فساد» وندرة المادة التاريخية الأصلية عن بني إدريس تبرر حكم أحد الدارسين الثقاة في تاريخ المغرب وحضارته بأن «الكثير من تاريخ الأدارسة يتسم بالغموض. كما أن الكثير من الأدب المتوافر الذي وصلنا أدب تمجيدي النزعة»[٤].

أما والحال هكذا فلم يكن بد من الانتظار المترقب لظهور مادة جديدة تبرر اقتحام الموضوع لتقديم مؤلف طموح بصدده. ولعل هذا يفسر لماذا طالت فترة الانتظار قرابة أعوام عشرة تمثل الزمن الفاصل بين بداية الفكرة ونهاية الإنجاز.

من حسن الطالع أن مادة تاريخية جديدة توالي صدورها خلال تلك الحقبة. منها مخطوط لمؤرخ مجهول يحمل عنوان «مفاخر البربر»[٥] يتضمن مادة قيمة - رغم ضآلتها - تفيد في إجلاء بعض الغموض وتميط اللثام عن حقائق جديدة.

---

(٣) زعم ابن أبي زرع أنه نقل روايات عن البكري وصاحب كتاب الاستبصار. وبالعودة إلى هذين المصدرين لم نجد ما يثبت ذلك.

(٤) هوبكنز: النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى، تونس ١٩٨٠، ص ٣٨.

(٥) توجد نسخة منه بالمكتبة العامة بالرباط.

ومنها نصوص نشرت بمجلة الوثائق المغربية بالغة الأهمية في الكشف عن الدعوة الزيدية وعلاقتها بدعوة المعتزلة وتضافرهما معا في التمهيد لقيام الدولة الإدريسية عام ١٧٢هـ. فخطبة إدريس الأولى التي ألقاها على القبائل التي بايعته تنم عن التأثير الهام للمعتزلة في الدعوة الإدريسية فكريا وسياسيا. ورسالته إلى أعوانه بمصر التي يأمرهم فيها بالإعداد والاستعداد لإقامة الدولة الزيدية بمصر؛ تضع نهاية للفكرة الشائعة الخاطئة بين المؤرخين عن قيام دولة الأدارسة صدفة ودونما إعداد دعائي وسياسي سابق.

ومنها تحقيق مخطوط للصاحب إسماعيل بن عباد يحمل عنوان: «نصرة مذاهب الزيدية»[6] كشف الكثير من الخبايا عن الدعوة الزيدية في العالم الإسلامي كتطبيق عملي للفكر السياسي الزيدي. واستنادا إلى هذه الحقائق الجديدة أمكن التأريخ بثقة لقيام دولة الأدارسة.

كما أمكن معالجة موضوع سياستها الداخلية ـ فضلا عن الخارجية ـ استنادا إلى نصوص جديدة أيضا لمؤرخ الأندلس الأشهر ابن حيان. فنضلا عن قطعة من كتابه «المقتبس» تتعلق بعصر الإمارة في الأندلس، وأخرى بعهد الخليفة الأندلسي الحكم المستنصر؛ فاجأنا المستشرق الإسباني «شالميتا» بقطعة جديدة تتعلق بعصر الخليفة الناصر[7]. وتذخر بمعلومات جديدة وثرية عن تاريخ الأدارسة الأواخر الذي كان شبه مجهول سلفا. وقد أفاد الباحث منها في التأريخ المستوفي ـ لأول مرة فيما نزعم ـ لأوضاع المغرب الأقصى في عهود الأدارسة الأواخر فضلا عن علاقاتهم بالفاطميين وأموي الأندلس؛ وهو أمر سبقنا إليه بعض الدارسين من تلامذتنا النجباء؛ كما سنوضح في موضعه.

---

(٦) حققه الدكتور ناجي حسن وصدر ببغداد سنة ١٩٧٧.

(٧) نشرت بمدريد سنة ١٩٧٩.

وإلى جانب هذه المادة الجديدة اعتمدنا على مصدر وثائقي آخر لم يوظف سلفا بالقدر الذي يتناسب وأهميته. أعني مجموعات النقود الإدريسية التي صنفها الأستاذ Eustache[٨] والأستاذ Colin.[٩] وهي فضلا عن أهميتها في دراسة التاريخ الإدريسي اقتصاديا واجتماعيا؛ لا تخلو من أهمية جلّى بالنسبة لتاريخهم السياسي والإداري والمذهبي.

وإلى جانب هذه المادة الجديدة عولنا على مظان أخرى معروفة لم يفد منها الدارسون السابقون ربما لأنها ليست مصادر تاريخية. أعني كتب الجغرافيا والرحالة التي تضمنت معلومات جد هامة افتقرت إليها المصنفات التاريخية. وليس أدل على هذه الأهمية من أن جغرافيا كالمقدسي أورد إشارة عن الدعوة الزيدية - الاعتزالية كانت من وراء فتح آفاق جديدة لدراسة قيام دولة الأدارسة. ومع ذلك مر عليها الدارسون مرور الكرام. لقد كان أول من نبه إلى دور المعتزلة في الدعوة الزيدية إلى حد الدمج بين الدعوتين معا؛ وهو ما اعتمدناه وأثبتنا صحته في ضوء النصوص الأخرى الجديدة التي عولنا عليها.

ويكتسي كتاب «المغرب» للبكري منزلة خاصة بالنسبة لكافة مباحث الدراسة. ونحن نعده «كنزا» كان منغلقا أمام المؤرخين؛ ربما لتشكيك ابن خلدون في صدقه ونزاهته وربما لمحدودية رؤية هؤلاء المؤرخين الذين لم يحفلوا إلا بالتاريخ السياسي والعسكري.

وحسبنا تقديرا لجغرافية البكري أنها أوفى المصادر قاطبة بالمعلومات المتعلقة بتاريخ المغرب الوسيط؛ تلك التي كتبها الرواد الأوائل كالوراق والرقيق وعبثت بها أيادي الدهر فلم تصل إلينا. هذا فضلا عن تنوع هذه المادة وتغطيتها

---

(٨) راجع: Corpus des dirhames Idrisite et contemporains, Rabat, 1970

(٩) راجع: Monnaies de la periode Idrisite trouvees a Volubilis, Hesperis, xx11, 1966.

للجوانب السياسية والمذهبية والاقتصادية والاجتماعية فضلا عن الجغرافية الطبيعية والبشرية. وحسبنا أن البكري صنف مؤلفه الجامع هذا بتكليف من الخليفة الحكم المستنصر إبان مرحلة عول فيها أمويو الأندلس على التدخل المباشر في المغرب الأقصى.

لذلك يكتسي مؤلف البكري أهمية أخرى تعود إلى معاصرته الكثير من الأحداث الجسام التي تتعلق بدولة الأدارسة.

ولنفس الغرض أيضا كلف ابن حوقل بكتابة جغرافيته من لدن الفاطميين. وحسبنا أنه زار المغرب الأقصى وعاين حياة سكانه عن كثب. وسجل ودون مشاهداته الثرية في الجغرافيا البشرية والسياسية. ولكونه إسماعيلي المذهب؛ اهتم بالجوانب الاعتقادية وقدم خريطة واضحة عن المذاهب والطوائف ببلاد المغرب الأقصى آنذاك. وقد حظي الأدارسة باهتمامه لأنه كان يتجسس عليهم خدمة «للمشروع» الفاطمي في المغرب الأقصى. ولأن هذا المشروع تبلور حول الأطماع الاقتصادية - بامتياز - فإن كتاب ابن حوقل يحوي مادة غزيرة عن التاريخ الاقتصادي والاجتماعي.

وترقى جغرافية اليعقوبي إلى مكان الصدارة - دون مدافع - فيما يتعلق بالجغرافيا السياسية. إذ انفرد بمعلومات ضافية عن مناطق الحدود والتخوم والثغور والطرق والممرات الاستراتيجية التي أضاءت الكثير من الغوامض عن أسباب الصراعات بين الأدارسة وجيرانهم.

وبالطبع لم نغفل المصادر التقليدية المشرقية والمغربية والأندلسية؛ التي تهتم بالتاريخ السياسي. كذا أفدنا من كتب الطبقات والملل والنحل والأدب وما شابه. لكننا لن نسترسل في تبيان مدى أهميتها نظرا لتناولنا إياها في دراسات سابقة بما يغني عن اللجاج والتكرار.

ومن الإنصاف أن أعترف بإفادة الباحث من عدد من الدراسات الحديثة في تاريخ المغرب والأندلس خاصة ما يمس منها موضوع البحث من قريب أو بعيد. ويشرفني أن أنوه بأصحاب هذه الدراسات من تلامذتي النجباء الذين أشرفت على أطروحاتهم سواء في المغرب أو في مصر. لعل من أظهرهم الأساتذة سنوسي يوسف ومحمد حباني ومحمد صدقي وعبدالكريم بيصعين وبهيجة سيمو. كذا أشير وأشيد ببعض الأصدقاء من المؤرخين المغاربة الذين نحوا في دراساتهم عن تاريخ المغرب نحوا علميا صارما. من أشهرهم الدكتور عبدالله العروي والدكتور الحبيب الجنحاني والدكتور محمد الطالبي. لقد كانت لقاءاتي مع هؤلاء الأساتذة والطلبة عيانا أو من خلال كتاباتهم ذات فائدة عكست أصداءها على هذا العمل؛ برغم الاختلافات أحيانا في المناهج والرؤى.

ومن حق القارىء أن يعرف أن هذا العمل ليس تاريخا شاملا للأدارسة بقدر ما هو محاولة لإبراز الجديد في هذا التاريخ. ولما كان الهدف وطبيعة الموضوع يحددان المنهج والرؤية؛ فلا أقل من التنويه بمنهجية هذه الدراسة ورؤية صاحبها.

ولسوف يقف القارىء على عديد من المناهج التي وظفت في معالجة الموضوع. وأقرر أنني لم أجد غضاضة في اتباع المنهج الوصفي والرؤية «الميكروسكوبية» خاصة فيما يتعلق بحل «إشكالية» ملأ الفراغات اعتمادا على المادة الجديدة المتاحة التي وظفت في سد الفجوات المتعلقة بتاريخ الأدارسة وما أكثرها. وفي هذا الصدد عمدنا إلى التفصيل والإطالة وأكثرنا من ذكر الأحداث والوقائع. أما المسائل المتفق عليها والتي حسمها دارسون سابقون؛ فلم نسترسل في عرضها إلا بالقدر الذي يخدم استمرارية العرض أو يستلزم إضافة قرائن جديدة لم تكن متاحة سلفا.

كما اعتمدنا المنهج المقارن خاصة في معالجة موضوعات السياسة الخارجية التي تستوجب الإحاطة بتاريخ الدول ذات العلاقات مع الأدارسة. وذلك في محاولة لتصحيح الكثير من الأحكام التي صدرت عن مؤرخين تخصصوا في دراسة دولة بعينها من تلك التي كانت على علاقات مع الأدارسة؛ دون أن تتاح لهم فرصة الإحاطة بالمعطيات العامة للعلاقات الدولية إبان الحقبة موضوع الدراسة.

من أجل ذلك؛ كان على الباحث أن يفيد من عدد من المناهج الحديثة والمعاصرة فيما يتعلق بالتعامل مع «النص» أو إن شئت «قراءته»؛ خاصة وأن طفرة منهجية في مجال العلوم الإنسانية حدثت منذ منتصف هذا القرن. وأن حركة «تبشير» بجدوى هذه المناهج تجري في عالمنا العربي على الصعيد النظري دون أن تأخذ طريقها بعد إلى مجال التطبيق. أقصد على وجه الخصوص دعوة المفكر الجزائري الأستاذ محمد أركون[10] في ضرورة توظيف حشد من المناهج كالتاريخانية والسوسيولوجية والمادية والبنيوية والسيمولوجية والأنثروبولوجية وغيرها؛ في دراسة العلوم الإنسانية والاجتماعية.

ونحن إذ نشاركه الرأي؛ نرى ضرورة التحفظ من حيث توظيف كل منهج أو أكثر في إطار المجال أو المجالات التي يفيد فيها. بمعنى أن مشروعية استخدام منهج ما رهينة بالجدوى التي يسفر عنها هذا التوظيف. وعلى سبيل المثال يمكن الإفادة من «البنيوية» في مجال تفكيك الظاهرة موضوع البحث للكشف عن مقوماتها ومكوناتها. لكن من الاعتساف أن نزج بمنهجها أو مناهجها في مجال التفسير والتنظير.

من هنا؛ أفاد الباحث من منهجية «ميشيل فوكو» سواء في طرح موضوعات البحث باعتبارها «إشكاليات» تتطلب حلولا. كذا من رؤيته في «أركيولوجية

---

(١٠) راجع كتابه الفكر: تاريخية الفكر العربي الإسلامي، بيروت ١٩٨٦.

المعرفة» خاصة في استقصاء «التراكمات» المذهبية والإديولوجية في المغرب الأقصى لمعرفة ما استجد وما ذوى وما استمر في بنية هذه المذاهب منذ نشأتها في المشرق حتى استقرارها في المغرب، دون أن نذهب مذهب بنيوي أخر معاصر هو «جاستون باشلار» القائل بالقطيعة الإبستمولوجية.

كما أفاد الباحث من منهج المؤرخ الفرنسي الشهير «بروديل» بوجه خاص و«مدرسة الحوليات» المعاصرة بوجه عام. سواء في الاهتمام بمفردات التاريخ الإقتصادي كشرط أساسي للوقوف على أنماط الإنتاج وعلاقاتها، وبالتالي تفسير معطياتها على كافة الأصعدة التاريخية الاجتماعية والسياسية والثقافية، أو في مجال تحويل الوقائع والأحداث ـ بعد التحقق من صحتها ـ إلى أفكار واضحة ومحددة تشكل حصاد البحث التاريخي كما يجب أن يكون. وتختزل هذا الحصاد في النهاية إلى ما يسمى «بالتاريخ الثقافي».

وأفاد الباحث أيضا من المنهج «الأنثروبولوجي» في دراسة البنى القبلية والاعتقادية والطقوسية؛ لا للوقوف على أنماطها فحسب بل باعتبارها «ظاهرات» تعبر عن مدى صيرورة أو سكونية ـ إن جاز التعبيرـ أو تباطؤ أو إسراع حركة التطور التاريخي. ناهيك عن الوقوف على «تأثيرات» و«فعاليات» هذه الأنماط بشكل ملحوظ خاصة في مجتمعات لم تشهد ثورة بورجوازية. وقد أفاد هذا المنهج البحث موضوع الدراسة ليس فقط في الوقوف على الخرائط الإثنية والمذهبية في المغرب الأقصى في ظل الأدارسة؛ بل في رصد تأثيرات ظواهر العصبية والطائفية في تاريخ الأدارسة السياسي أيضا.

وبالمثل أفاد الباحث من «السيميائية» في قراءة النصوص ودلالات الألفاظ الشائعة والاصطلاحات الثابتة في الخطاب الإسلامي «القرووسطوي». وأمكنه باستبار غور الكتابة الرسمية ـ كخطب ورسائل الأدارسة ـ والإبداع الشعري ـ

خاصة ما أورده ابن الأبار عن الأدارسة الشعراء ـ أن يقف على الكثير من الحقائق التي لم تفصح عنها الحوليات التاريخية.

وفي مجال قضية التفسير والتنظير ـ الذي لم يخل البحث من الكثير بصددهما ـ يظل الباحث على قناعة بجدوى المنهج المادي الجدلي التاريخي دون سواه. ولم يقع في منزلق «ألتوسير» التوفيقي بين المادية التاريخية وبين البنيوية، بقدر ما وظف كلا من المنهجين في مجاله.

أخيرا، بفضل المادة الجديدة المتاحة ومنهجية التناول التي أزعم أنها جديدة أيضا، لا يجد الباحث حرجا في الإعلان عن وقوفه على حقائق جديدة في موضوع معضل. ومصداقية هذا القول رهينة بحكم جلة الدارسين المتخصصين.

والله أسأل التوفيق،،

الطويلة في ١٩٨٨/٧/٥   محمود إسماعيل

الباب الأول

قيام دولة الأدارسة

الفَصْل الأول

الشيعة الزيدية في المشرق الإسلامي

يرتبط قيام دولة الأدارسة سنة ١٧٢هـ بالتشيع الزيدي؛ فكراً ودعوة وثورة. وهذا يعني أن الخيوط الأساسية لقيام تلك الدولة العلوية نسجت في الشرق. وهو أمر يتسق مع طبيعة قيام الدول المستقلة ببلاد المغرب نتيجة دعوات مذهبية ذات أصول شرقية خارجية وسنية وشيعية. وهذا ينفي مقولة خاطئة دأبت مدارس الاستشراق الغربي على ترديدها؛ فحواها تميز الصيرورة التاريخية في المغرب بالخصوصية والاستقلال عن الماجريات العامة في المشرق. كما يضع نهاية لمن تأثر بها من المؤرخين المغاربة المحدثين القائلين «بالقطيعة الإبيستمولوجية» بين المشرق والمغرب.

إن قيام دولة الأدارسة مصداق صدق القاعدة الخلدونية التي تشترط إلى جانب العصبية دعوة مذهبية تسبق قيام الدولة وتمهد لتأسيسها. والبحث عن الدعوة المذهبية الإدريسية يقودنا إلى ضرورة تتبع أصولها الشرقية في المذهب الشيعي الزيدي الممزوج بالاعتزال. ومن ثم تقتضي سلامة المنهج رصد أصول هذه الصيغة الإديولوجية خاصة مايتعلق منها بالفكر السياسي.

وننوه بأن اشكاليات عويصة تعترض سبيل الدارس لهذا الموضوع. لعل من أهمها الاختلاف البين في الروايات التاريخية نتيجة الصراع الفكري والسياسي والعسكري بين السنة والشيعة. كذا الاختلاف بين مذاهب الشيعة بعضها

البعض؛ ناهيك عنه بين فرق الشيعة الزيدية نفسها؛ خاصة في مجال الفكر السياسي عموماً وحول قضية الإمامة على نحو خاص. وتزداد المشكلة إلغازاً بالنسبة للمذهب الزيدي الذي اختلطت آراؤه بآراء الاعتزال.

ومن يمن الطالع أن نصوصاً جديدة ظهرت يمكن بفضلها التماس حلول لهذه الاشكاليات. واستناداً إليها يمكن خوض الموضوع بما يحقق غايتين. أولهما؛ رصد الجديد الذي يمكن أن ينضاف إلى فكر وتاريخ الزيدية. وثانيهما؛ تكريس الفكر والتاريخ الخاص بالزيدية في الكشف عن أصول دعوتهم التي أسفرت عن قيام دولة الأدارسة.

معلوم أن الزيدية فرقة من فرق الشيعة. وأن المذهب الشيعي نشأ من خلال جدل فكري عبر صراع «سوسيوسياسي» شجر في صدر الإسلام حول الخلافة. ومعلوم أيضاً أن اغتصاب بني أمية الخلافة «مغالبة» أسهم في دعم الحزب الشيعي وتصدره ساحة المعارضة. تلك الساحة التي أبلى فيها الزيدية بلاءاً حسناً.

ينتسب الزيدية إلى الإمام زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب. وهو الذي تصدى لمناهضة الأمويين بعد استشهاد الحسين وفشل الشيعة الكيسانية ولجوء العلويين عموماً إما إلى المهادنة الحذرة المترقبة أو العمل السياسي السري.

نشأ زيد بن علي في المدينة وتقلب ما بين الكوفة والبصرة[1] لكسب جماهير الشيعة إلى حركته التي تصدت للأمويين عسكرياً. وما نود إثباته أن الثورة

(١) الشهرستاني: الملل والنحل، جـ١، ص٢٠٨، القاهرة ١٩٦٥.

العسكرية سبقتها دعوة سياسية استندت إلى أساس مذهبي. ويستلزم الكشف عن أسرار هذه الدعوة رصد الفكر السياسي الزيدي.

وأول ما يسترعى الانتباه في هذا الصدد أن الزيدية أفادوا من أخطاء التجارب العلوية السابقة وجنحوا نحو الاعتدال والوضوح خاصة بالنسبة لقضية الإمامة. فمعظم فرقهم لاتجعلها بالنص والتعيين بل عن طريق «عقد البيعة». ولم تختص بها فرعاً من فروع البيت العلوي بقدر ما أطلقتها «شورى» في ولد الحسن والحسين[2]. يقول ابن خلدون[3]: «ساق الزيدية الإمامة على مذهبهم باختيار أهل الحل والعقد لا بالنص». حجتهم في ذلك أن «الإمامة لا تستحق على وجه الإرث ولا جزاء على الأعمال»[4]. بل تستند إلى «دعوة» لإمام «عالم زاهد غير خوار ولا جزوع»[5] بل مقدام يشهر سيفه في وجه الخصوم. «وإذا قعد بطلت إمامته»[6].

وهذا يعني عدم مجاراة الفرق الشيعية الأخرى القائلة بمبدأ «التقية» ومبدأ «المهدوية». بل لابد من ظهور الإمام الذي «يلتزم المسلمون أن يعرفوه ليمكنهم إجابته ونصرته»[7].

كما اشترط الزيدية ضرورة أن يكون الإمام عادلاً يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؛ «لأن القبح في أحوال العباد منهم وليس من الله»[8]. والإمام «أعزل من

---

(٢) النوبختي: فرق الشيعة، ص٢٢١، بيروت ١٩٨٤.
(٣) المقدمة، ص١٤٤، المكتبة التجارية.
(٤) الصاحب إسماعيل بن عباد: نصرة مذاهب الزيدية، ص١٨٣، بغداد ١٩٧٧.
(٥) نفسه: ١٦١.
(٦) نفسه: ١٤٣.
(٧) نفسه: ٢٠١.
(٨) انظر: ابن عرفة الورغمي: باب الإمامة، من كتاب المختصر الشامل. تحقيق: سعد غراب، حوليات الجامعة التونسية، عدد ٩ سنة ١٩٧٢، ص١٩٦.

شرط العصمة»، لذلك «أجازوا إمامة المفضول مع وجود الأفضل»[٩]. كما جوزوا قيام إمامين في وقت واحد «إذا ما كانا في طرفين متباعدين»[١٠].

هكذا اتسم الفكر السياسي الزيدي بالاعتدال من أجل كسب المزيد من الأتباع والأنصار وتوجيههم «للكفاح المسلح تحقيقاً للأغراض السياسية»[١١]. كما ابتعد عن الغلو الذي طبع فكر الروافض[١٢]؛ بحيث جارى بعض المذاهب الأخرى غير الشيعية كأهل السنة ومعتدلة الخوارج والمعتزلة. وحق لجولدتسيهر[١٣] القول: «لم يكن الإمام عند الزيدية معصوماً يحتكر التأويل الباطني بقدر ما اتسم بصورة واقعية يعمل في الحياة في نضال مكشوف كحاكم وفقيه للجماعة الإسلامية». لذلك كان الزيدية الأوائل أقرب ما يكونون إلى أهل السنة باعتمادهم مبدأ الشورى ومبدأ جواز تقديم المفضول[١٤]. ومن ثم فهم يمثلون الفرقة الشيعية الوحيدة المعتدلة إزاء أهل السنة[١٥].

كما اقتربوا من فكر الخوارج في القول بالثورة العلنية المشروعة على أئمة الجور.

وكان اقترابهم من المعتزلة أعمق وأوثق حتى اعتبر بعض علماء الفرق[١٦] المعتزلة فرقة زيدية. ومعلوم إن واصل بن عطاء أفاد من علم الأئمة العلويين

---

(٩) الشهرستاني: ١ : ١٦١.
(١٠) ابن عباد: ١٩٧.
(١١) نفسه: ١٣.
(١٢) فلهوزن: الخوارج والشيعة، ص٢٥٨، القاهرة ١٩٦٨.
(١٣) العقيدة والشريعة في الإسلام، ص٢٣٧، القاهرة ١٩٥٩.
(١٤) محمد حسين الزين: الشيعة في التاريخ، ص٧٤، بيروت ١٩٧٩.
(١٥) جولدتسيهر: ٢٣٧.
(١٦) الملطي: التنبيه والرد علي أهل الأهواء والبدع، ص٣٩، القاهرة ١٩٤٩.

ودرس على بعضهم[17]، كما تتلمذ على يديه زيد بن علي مؤسس المذهب الزيدي[18]. ولا غرو فقد تأثر الزيدية بالمعتزلة في نظرية الإمامة[19]، فضلا عن الأخذ بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وعموماً يعتبر علم الكلام الزيدي محاكاة لآراء المعتزلة؛ وإن كان بعض الدارسين[20] يرون أن واصل ورثها عن الأئمة العلويين الذين توارثوها عن علي بن أبي طالب. ولعل هذا التداخل كان من أسباب اعتبار بعض رجالات الزيدية أنفسهم من المعتزلة. وبالمثل كان معتزلة بغداد يقولون «نحن زيدية»[21].

لم يكن التأثر والتأثير المتبادل بين مذهب الزيدية والاعتزال قاصراً على الجانب الفكري؛ بل انسحب على العمل الدعائي السياسي المشترك كما سنوضح في موضعه.

وهنا تثار إشكالية أخرى؛ هل كانت الدعوة الزيدية إبان زعامة زيد بن علي مستقلة، أم أنها اندرجت في سلك الدعوة العباسية؛ وما هو موقف المعتزلة من الدعوة الزيدية والعباسية، مع العلم بثبوت وجود دعوة معتزلية مستقلة؟.

ستأتي الإجابة ضمناً على هذه الأسئلة من خلال استعراض الدعوة الزيدية وما آل إليه مصيرها بعد أن تحولت إلى ثورة سياسية اجتماعية.

سبق الجزم بأن «الدعوة شرط من شروط الإمامة عند الزيدية»[22]. فكسب الأتباع وتجنيد الأنصار وتعبئة الجيوش ومباشرة الحرب كان مسبوقاً بإعداد

---

(١٧) المرتضى: المنية والأمل، ص٥، حيدر آباد ١٣١٦هـ،
القاضي عبدالجبار: فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، ص٢١٥، تونس ١٩٧٤.
(١٨) الشهرستاني: ١١٦.
(١٩) جولد تسيهر: ٢٢٢.
(٢٠) نفسه: ٢٢٠.
(٢١) الصاحب إسماعيل بن عباد: ٢٢٠.
(٢٢) نفسه: ٢٢٣.

وتنظيم ودعاية. ومعلوم أن زيد بن علي انتصب للحرب ضد الأمويين سنة ١٢٤هـ. وهذا يعني أن تنظيم الدعوة كان سابقاً لهذا التاريخ. ونحن نعلم أن العلويين غير الزيدية - من الكيسانية والحسينية - إندرجوا في الدعوة العلوية التي آلت زعامتها لبني العباس سنة ١٠٠هـ. ونقرر من ثم أن الزيدية لم ينخرطوا في هذه الدعوة على أساس عدم اعترافهم بالكيسانية أصلا. كما تثبت الوقائع وقوع خلاف بين الزيدية والحسينية أيضا. لذلك نؤكد عدم انضمام الزيدية إلى الدعوة العلوية العباسية في ذلك الحين؛ خصوصاً بعد تعلق جموع الشيعة في الكوفة والبصرة بشخص زيد بن علي وتحريضهم إياه على الثورة ضد بني أمية من ناحية وبعد أن تنازل أبو هاشم بن محمد بن الحنفية لمحمد بن علي بن عبدالله بن العباس بزعامة الدعوة[٢٣] من ناحية أخرى.

لذلك طفق زيد بن علي يدعو لنفسه في البصرة والكوفة والموصل[٢٤] مستقلا عن الدعوة العباسية متخذاً الحذر والحيطة من تآمرهم بصورة لا تقل عن حذره من الأمويين. يفسر ذلك تغييره مكان إقامته دوماً حتى لا ترصده عيون الخصمين معاً. كذا اختياره دعاته من خاصة آل بيته الذين كانوايتخفون في ملابس العلماء والتجار ويؤلبون الناس ضد بني أمية على أساس «أن الثورة عليهم غضب لله ودينه»[٢٥]. كما عولوا في دعوتهم على إبراز الجانب الاجتماعي حيث دعوا الأتباع والأنصار «إلى كتاب الله وسنة نبيه **وجهاد الظالمين والدفاع عن المستضعفين وإعطاء المحرومين وقسم الفيء بين أهله بالسواء ورد المظالم ونصرة** أهل النبي»[٢٦].

---

(٢٣) الأصفهاني: مقاتل الطالبين، ص١٢٦، النجف ١٣٥٣هـ.
(٢٤) فلهوزن: ٢٥٧.
(٢٥) البلاذري: أنساب الأشراف: جـ٣، ص٢٠٢، القاهرة ١٩٥٩.
(٢٦) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، جـ٧، ص٧٣، القاهرة ١٩٦٢.

لذلك أقبلت جماهير الموالي الساخطين على بني أمية على الدعوة. كما اندرج في سلكها عرب الحجاز الذين حرمهم هشام بن عبد الملك من الأعطيات[٢٧] كما حظيت بتأييد الفقهاء كالإمامين مالك وأبي جنيفة وبعض رجال العلويين الحسينية ـ كمحمد النفس الزكية ـ فضلا عن شيوخ المعتزلة كواصل بن عطاء[٢٨]. وأخذت البيعة لزيد من أهل الحجاز والبصرة والكوفة والموصل وخراسان والري وجرجان[٢٩]. لكنه أخطأ حين عجل بإعلان الثورة قبل نضج الدعوة فكان ذلك من أسباب فشلها كما سنوضح في موضعه.

بعد فشل ثورة زيد بن علي سنة ١٢٤هـ وثورة ابنه يحيى سنة ١٢٥هـ اندرجت الدعوة الزيدية في سلك الدعوة العباسية. ويعزى فضل ذلك إلى محمد النفس الزكية الذي تزعم الفرع الحسني. وقد تحقق ذلك في مؤتمر سري عقد عام ١٢٧هـ تقرر فيه أن تؤول الخلافة إلى محمد النفس الزكية بعد نجاح الثورة العباسية[٣٠]. وهذا يفسر اعتراف العباسيين الذين تزعموا الدعوة عمليا بحق العلويين أصحاب الفضل الأول في تأسيس الدعوة حين طرحوا شعار «الدعوة للرضى من آل محمد». لكن العباسيين استأثروا بالخلافة بعد نجاح الثورة على الأمويين سنة ١٣٢هـ.

وعلى إثر ذلك انفصلت الدعوة الزيدية عن العباسية وتزعمها محمد النفس الزكية بتعضيد من المعتزلة.

وهنا نتوقف لتبيان موقف المعتزلة. ونؤكد في هذا الصدد أنهم لم يدمجوا دعوتهم في الدعوة الزيدية إبان زعامة زيد بن علي. صحيح أنهم تعاطفوا معه؛

---

(٢٧) الأصفهاني: ١٤٥.

(٢٨) ابن عبد ربه: العقد الفريد، جـ٣، ص ٤١٦، القاهرة ١٩٤٠.

(٢٩) الأصفهاني: ١٣٧.

(٣٠) نفسه: ٢٠٥.

لكنهم آثروا الاستقلال بأمر دعوتهم. قرينتنا على ذلك أن واصل بن عطاء الذي ألف كتابا عن أصول «الدعوة» الإعتزالية اتخذ من الكوفة - وليس البصرة مقر دعوة زيد بن علي - مقرا لدعوته. ومنها أنه أنفذ دعاته إلى بلاد المغرب وخراسان واليمن والجزيرة وأرمينية[٣١]. وقد أورد الجاحظ[٣٢] أسماء بعض هؤلاء الدعاة كعبدالله بن الحارث وحفص بن سالم والحسن بن زكوان وعثمان الطويل وغيرهم. وإذا علمنا أن دعاة واصل في خراسان - مثل حفص بن سالم - كان يعمل مستقلا عن دعاة زيد في نفس الإقليم - مثل عبيد بن كثير الجرمي والحسن بن سعد الفقيه[٣٣] - أدركنا حقيقة الانفصال بين الدعوتين الزيدية والاعتزالية رغم تعاطف واصل مع زيد بن علي وحركته.

ونعتقد كذلك أن واصل لم يدمج دعوته بالدعوة الزيدية التي ترأسها محمد النفس الزكية إلا بعد انفصال الأخير عن الدعوة العباسية التي وقف منها المعتزلة موقف المعارضة.

على كل حال - أدى انضمام المعتزلة إلى الزيدية بزعامة محمد النفس الزكية إلى دمج دعوتيهما في دعوة واحدة وهو أمر يتسق مع فكر المعتزلة السياسي الذي يحبذ العمل تحت راية إمام عادل أولا، ثم التأكد من مواتاة ظروف النجاح ثانيا. ويبدو أن تقاعسه عن مناصرة زيد بن علي - رغم عدله - كان نتيجة عدم اختياره الوقت المناسب لإعلان ثورته. فضلا عن اكتشاف الخليفة الأموي هشام بن عبدالملك أمر الدعوة الزيدية[٣٤].

---

(٣١) الدمشقي: تاريخ الجهمية والمعتزلة ص ٨١.
(٣٢) البيان والتبيين، جـ١، ص ٢٥٠، القاهرة ١٩٤٨.
(٣٣) الأصفهاني: ١٤٧.
(٣٤) نفسه: ١٣٥.

ويبدو أيضا أن المعتزلة دمجوا دعوتهم في الدعوة الزيدية بزعامة محمد النفس الزكية[٣٥] بعد وقوفهم على اشتداد ساعد دعوته والتفاف الكثيرين من الأتباع والأنصار حولها بعد أن غدر به بنو عمومته من العباسيين. وليس أدل على ذلك من قيام محاولات ـ قبل اندلاع الثورة العباسية وبعدها ـ لتحويل الأمر إلى العلويين. كما أن تنكر العباسيين للكثير من شعارات الدعوة ـ كالإخاء والإصلاح ـ بعد احتكارهم الخلافة صرف أنظار الكثيرين من شيعتهم إلى البيت العلوي.

وهذا يعني أن دعوة محمد النفس الزكية نجحت في استقطاب الكثيرين ممن اندرجوا سلفا في سلك الدعوة العباسية فضلا عن الشيعة الزيدية الذين كانوا في دعوة زيد بن علي. ليس أدل على ذلك مما ذكره الطبري[٣٦] من أن زيدية خراسان كانوا يكاتبون محمد النفس الزكية ويرسلون إليه صدقاتهم وأموالهم. وهذا يفسر لماذا اتسع نطاق الدعوة لتشمل مصر والحجاز والشام وخراسان والعراق واليمن وبلاد الهند وبلاد المغرب[٣٧]. وهذا يعني أنها لاقت رواجا في أقاليم لم ترحب بدعوة زيد من قبل؛ كبلاد الشام ومصر التي عاقب الخليفة المنصور أهلها لإقبالهم على إبراهيم أخ النفس الزكية بأن حرمهم من أداء فريضة الحج[٣٨].

---

(٣٥) ذكر الأصفهاني أن «واصل وعمرو بن عبيد اجتمعا في دار عثمان بن عبد الرحمن المخزومي من أهل البصرة وتذاكروا. فقال عمرو: من يقوم بهذا الأمر ممن يستوجبه حصوله؛ فقال واصل: يقوم به والله من أصبح خير هذه الأمة محمد بن عبدالله بن الحسن».
انظر: مقاتل الطالبين، ص ٢٩٣.

(٣٦) تاريخ الرسل والملوك، جـ ٩، ص ١٨١، عبدالمنعم ماجد: العصر العباسي الأول، ص ٨٢، القاهرة ١٩٧٣.

(٣٧) المسعودي: مروج الذهب، جـ ٣، ص ٣٠٧، ٣٠٨، القاهرة ١٩٦٤.

(٣٨) الطبري: ٩: ١٩٢.

أفادت دعوة محمد النفس الزكية من أساليب وخطط الدعوة العباسية في التخفي والاستتار حتى كان الدعاة يتنكرون في ملابس العربان. كما استخدم النساء في مهام الاتصال[٣٩] فضلا عن نظام محكم للبريد لنقل الأخبار بين رئيس الدعوة ودعاته في سائر الأمصار[٤٠].

كما أفادت من أخطاء زيد بن علي؛ فطورت المذهب الزيدي بما يوافق أغراضها العملية. وفي هذا الصدد أجيزت «التقية» والتبشير «بالمهدوية»[٤١] بل لم يتورع محمد النفس الزكية عن استرضاء الأتباع والأنصار عن طريق بذل الأموال.

لكل ذلك تعاظم أمر الدعوة؛ فلم يجد المعتزلة ما يحول دون انضمامهم إليها دعائيا وسياسيا وعسكريا. كما واصلوا تعضيدها بعد أن آلت رياستها إلى الحسين بن علي بن الحسن بن علي. وما فتئوا على موقفهم هذا حتى قيام دولة الأدارسة؛ وهو ما سنفصله في موضعه.

أما وقد انتهينا من إثبات وجود دعوة زيدية وضع أصولها زيد بن علي وبلغت أوجها على يد محمد النفس الزكية؛ فمن المفيد أن نعرض بإيجاز لثورات الزيدية في الشرق التي أسفرت عن قيام دولة الأدارسة. ولن نحفل إلا بتبيان طابعها الإجتماعي وتحليل عوامل فشلها وما أدى إليه هذا الفشل من تحول «مشروعها» السياسي إلى الأطراف حيث نجحت ـ شأنها شأن الخوارج ـ في تأسيس كيانات سياسية مستقلة.

---

(٣٩) نفسه: ٧ : ٦٤١.

(٤٠) الأصفهاني: ٣٧٧.

(٤١) قال محمد النفس الزكية في إحدى خطبه «إنكم لا تشكون أني أنا المهدي وأنا هو». انظر: الأصفهاني: ٢٠٥.

إنطلقت الثورة الزيدية الأولى عام ١٢٤هـ بزعامة زيد بن علي[٤٢] وبرغم كثرة أنصارها من العرب والموالي[٤٣]، وبرغم تأييد الفقهاء لها آل مصيرها إلى الفشل. وقد فسره المؤرخون[٤٤] بخزلان أهل العراق زيد كما خذلوا جده الحسين من قبل. لكن أحدا لم يشر إلى سر موقف أهل العراق هذا. إن تحليلا دقيقا يجب أن يضع في الاعتبار تأثير الفكر السياسي الزيدي إيجابا وسلبا على مجريات الحركة. لقد تبنت أهدافا اجتماعية واضحة «كرد الفيء إلى من حرموا منه وتوزيع الخراج بالعدل». لذلك أقدم المستضعفون من العرب والموالي على تعضيدها. لكن في نفس الوقت لم يتقاعس أثرياؤهم عن مناهضتها.

كما أن قول الزيدية - دون فرق الشيعة الأخرى - بجواز إمامة المفضول كان يعني إعترافا ضمنيا بخلافتي أبي بكر وعمر. لذلك آزرهم الفقهاء من أهل السنة. وفي نفس الوقت أحدث هذا الاعتراف صدعا في صفوف الشيعة فكف الكثيرون منهم عن مناصرة ثورتهم بل قعدوا عن المشاركة فيها[٤٥].

وعلينا أن نضع في الاعتبار كذلك دور العباسيين في هذا الفشل على الرغم من زعم بعض الدارسين بأنهم تعاطفوا مع زيد بن علي نكاية في بني أمية. وما نراه أن العباسيين لم يدخروا وسعا في وضع العراقيل أمام زيد[٤٦]

(٤٢) نفسه: ٣٢٤.

(٤٣) الطبري: ٨: ٢١٧، فلهوزن: ١٧٩.

(٤٤) الأصفهاني: ١٤١.

(٤٥) فلهوزن: ٢٥٨.

(٤٦) ذكر مؤرخ مجهول أن بكير بن ماهان - من دعاة العباسيين - خاطب أهل الكوفة بقوله: «إلزموا بيوتكم وتجنبوا أصحاب زيد ومخالطتهم فوالله ليقتلن وليطلبن بمجمع أصحابكم». وبالفعل عندما قامت الثورة في الكوفة خرج بأصحابه إلى الحيرة حتى هزم زيد وقتل؛ فعاد إلى الكوفة.
انظر: نبذة من كتاب التاريخ، ص ٤٤.

حتى يفتك به جيش هشام بن عبد الملك. لأن نجاحه كان يعني سحب البساط من تحت أقدامهم والحؤول دون تطلعهم إلى الخلافة.

لذلك تنفس العباسيون الصعداء بعد فشل الثورة. ولنفس السبب ابتهجوا لفشل ثورة ابنه يحيى سنة ١٢٥هـ[٤٧]. وحسبنا أن هذا الفشل جرى لصالحهم إذ كسبت دعوتهم الكثيرين من أنصار الدعوة الزيدية خصوصا في خراسان[٤٨].

على كل حال ـ نجح العباسيون في إسقاط الخلافة الأموية سنة ١٣٢هـ. وأدى استئثارهم بالخلافة ـ دون العلويين ـ إلى تفجير الخلاف بين الطرفين. وما يعنينا أن الحرب الكلامية حول الأحقية بالخلافة أفضت إلى انشقاق محمد النفس الزكية عن العباسيين. وقد تبعه الكثيرون من شيعة بني العباس حتى في خراسان نفسها[٤٩]؛ الأمر الذي شجعه على إعلان الثورة. لذلك أصبح الصراع العسكري بين الخصمين أمرا لا مندوحة عنه.

طور العباسيون الحرب الكلامية[٥٠] إلى عداء سياسي فحاولوا إحكام الخناق على محمد النفس الزكية؛ بإسناد ولاية الحجاز لولاة جفاة أباحوا المدينة

---

(٤٧) الصاحب إسماعيل بن عباد: ٢٢١.

(٤٨) البغدادي: الفرق بين الفرق، ص ٤٤٨، القاهرة؟

(٤٩) ذكر اليعقوبي: «لما مات زيد تحول الشيعة بخراسان وكثر من يأتيهم ويميل معهم وجعلوا يذكرون الناس بأفعال بني أمية ومن نالوا من آل الرسول. . . وظهرت الدعاة ودورست الملاحم».
انظر: تاريخه، جـ٢، ص ٣٩٣، النجف ١٣٥٨هـ.
وذكر المسعودي أن أهل خراسان لم يولد لهم ولد في عام ١٢٥هـ إلا وسموه زيدا أو يحيى.
انظر: مروج الذهب، جـ٣، ص ٢٢٥، القاهرة ١٩٦٥.

(٥٠) لسنا في حاجة إلى سرد التفصيلات في هذا الصدد، ذلك لأن الموضوع قتل بحثا. ونكتفي بإيراد بعض النصوص الهامة التي تخدم موضوع الدراسة.
ذكر الطبري عن استئثار العباسيين بالخلافة «أن السفاح خطب في شيعته يقول: إن الأمر فينا، ليس منا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم».
انظر: تاريخ الرسل والملوك: ٧: ٤٢٨.
وقد برر المنصور هذا الاستئثار بقوله: «إن أولاد ابن أبي طالب تركناهم والخلافة لم تعرض لهم

للجند؛ فسلبوا ونهبوا وهتكوا الأعراض[٥١]. كما أن الخليفة المنصور لم يتورع عن قتل شيوخ العلويين أمام ناظريه[٥٢]؛ إمعانا في إرهاب الثوار. هذا في الوقت الذي أغرى فيه من أغرى ببذل الأموال والمناصب[٥٣]. كما لجأ إلى الدهاء والحيلة فأمر بتزييف رسائل من أتباع النفس الزكية تستحثه الخروج للقتال قبل أن تكتمل استعداداته.

وبالفعل وقع محمد النفس الزكية في الشرك فأعلن الثورة في المدينة دون أن يعلم أخوه إبراهيم بالعراق سنة ١٤٥هـ[٥٥]. عندئذ باغته المنصور بجيشين الواحد في إثر الآخر بعد أن أمدهما بالمؤن والعتاد والسلاح[٥٦]. وتمكن القائدان حميد بن قحطبة وعيسى بن موسى من إحكام الحصار حول المدينة للحؤول دون وصول نجدات من العراق. ثم باغتا المحاصرين فأجهزوا على الثوار. وقتل محمد النفس الزكية بعد استبسال في القتال.

وكان إبراهيم أخ النفس الزكية قد تمكن من الاستيلاء على البصرة والأهواز؛ لكن جيش العباسيين ما لبث أن أجهز عليه ومن معه عند مكان يقال له باخمرا قرب الكوفة.

بقليل ولا كثير.. قام بها علي بن أبي طالب فما أفلح. ثم قام بعده الحسن فوالله ما كان برجل.. ثم قام الحسين فخذله أهل العراق.. ثم قام زيد فخذله أهل الكوفة.. ثم وثب علينا بنو أمية فأهانوا شرفنا وأذهبوا عزنا.. فأحيا الله شرفنا وأصار إلينا ميراثنا».

انظر: المسعودي: ٣: ٣١١.

وعن المساجلات الكلامية بين الطرفين؛ راجع: ابن الأثير: الكامل، جـ٥، ص ٥٣٧ وما بعدها.

(٥١) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، جـ١، ص ١٥٢، القاهرة؟

(٥٢) ابن الأثير: ٥: ٥٢٦.

(٥٣) نفس المصدر والصفحة.

(٥٤) الأصفهاني: ٢٦٠.

(٥٥) نفسه: ٣١٩.

(٥٦) المسعودي: ٣: ٣٠٧.

إن فشل ثورة محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم يرجع إلى الوقوع في أخطاء استراتيجية؛ ذلك أن اندلاع الثورة في الحجاز والعراق عجل بالقضاء عليها. فالحجاز بموارده ورجاله أعجز من أن يقوم بثورة ضد دولة في مرحلة فتوتها. كما أن اندلاعها في العراق ـ قلب الدولة العباسية ـ عجل بنهايتها ـ فإذا أضيف إلى ذلك تفجر الشقاق بين العلويين؛ حسنين وحسينيين؛ أدركنا سر نجاح العباسيين في القضاء على الثورة الزيدية[٥٧].

آلت زعامة الزيدية إلى عيسى بن زيد وعلي بن العباس بن الحسن بن الحسن بن علي. أما عيسى فقد لاذ بالكوفة معلنا العزوف عن السياسة إلى الاشتغال بالعلم[٥٨]. واكتفى الخليفة المهدي منه بالمسالمة[٥٩]. فلما أزمع العصيان لم يجد بدا من القبض عليه وسجنه إلى أن وافاه أجله[٦٠].

أما علي بن العباس فقد أخطأ حين اتخذ من بغداد معقلا لنشاطه السياسي السري. فلما اكتشف أمره دس المهدي إليه من دس له السم[٦١].

آلت زعامة الزيدية بعد ذلك إلى الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي الذي أخطأ أيضا حين ثار بالحجاز سنة ١٦٩هـ إبان خلافة موسى الهادي. فبرغم كثرة أتباعه نظراً لإلحاحه في دعوته على «نصرة المستضعفين وتحرير الأرقاء»[٦٢]؛ لم يجد الخليفة عناء في القضاء على حركته في معركة فخ ـ قرب

---

(٥٧) الأصفهاني: ٢٧١.
(٥٨) نفسه: ٤٠٧.
(٥٩) قيل أن يعقوب بن داود وزير المهدي هو الذي أغرى الخليفة بمساعدته لأنه كان يضمر المذهب الزيدي.
انظر: عبد المنعم ماجد: المرجع السابق، ص ١٨٤.
(٦٠) الأصفهاني: ٤٠٧.
(٦١) نفسه: ٤٠٣.
(٦٢) الطبري: ٨: ٩٤.

مكة ـ حيث دارت مذبحة شبهها المؤرخون بكربلاء لم ينج منها من العلويين إلا يحيى بن عبدالله بن الحسن وأخوه إدريس.

وغني عن القول أن المعتزلة اشتركوا في الثورات الزيدية ابتداء بثورة محمد النفس الزكية وانتهاء بمعركة فخ حسب اعتراف زعيمهم عمرو بن عبيد[٦٣]. لذلك تعرضوا لبطش بني العباس حتى عهد المأمون. فقد أمر الرشيد بطردهم من بغداد بعد أن «منع الجدل في الدين وحبس أهل الكلام»[٦٤]. لكن ذلك لم يحل دون مناصرته الزيدية الذين عمدوا إلى التقية في قلب الدولة[٦٥] من أجل مواصلة الدعوة في الأطراف. وقد توجت دعوتهم بتأسيس دولتين إحداهما ببلاد الديلم والأخرى ببلاد المغرب الأقصى[٦٦].

أما الأولى فقد أسسها يحيى بن عبدالله ولم تعمر طويلا؛ إذ قضى الرشيد عليها بالخديعة والسياسة. والدولة الثانية هي دولة الأدارسة التي أسسها إدريس بن عبدالله بالمغرب الأقصى سنة ١٧٢هـ؛ وهي موضوع الدراسة.

وقد مهدت ظروف بلاد المغرب الجغرافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والمذهبية لتأسيس واستمرار الدولة الإدريسية. كيف كان ذلك؟ هذا ما سنعرض له في الفصل التالي.

---

(٦٣) محمود إسماعيل: الحركات السرية في الإسلام، ص ٨٠، فاس ١٩٧٧.

(٦٤) المرتضى: المرجع السابق، ص ٣١.

(٦٥) مع ذلك قامت حركتان زيديتان في الشرق. تزعم الأولى شخص يدعى أبو السرايا في عهد المأمون، ولم يكن من العلويين وإن أعلن الثورة باسمهم. والثانية بزعامة محمد بن القاسم بن عمر بن علي بن الحسن بن علي، الذي أعلنها في الطالقان سنة ٢١٨هـ تحت شعار «الرضى من آل محمد». وفي فشل الحركتين معا وقيام الأولى باسم العلويين والثانية تحت شعار فضفاض؛ ما يؤكد خفوت صوت الزيدية في الشرق.

(٦٦) حسن أحمد محمود: العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص ١٢١، القاهرة ١٩٦٦.

الفصل الثاني

المغرب الأقصى قبيل قيام دولة الأدارسة

إن استقصاء أحوال المغرب الأقصى قبل قيام دولة الأدارسة سنة ١٧٢هـ سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ودينيا ضرورة منهجية تكشف عن العوامل الممهدة لنجاح الدعوة الزيدية. كما وأن استقصاء هذه الأحوال لا يتم بمعزل عن التعرف على الإطار الجغرافي الذي شهد ووجه مسار الأحداث.

وتبرز أهمية الجغرافيا الطبيعية والبشرية في توجيه التاريخ؛ خاصة في العصور الوسطى حيث لم يستطع الإنسان بعد التحكم في طبيعة المكان. هذا ما تقرره النظرية المادية في المعرفة بالنسبة لمجتمعات ما قبل الرأسمالية. وهذا هو ما فطن إليه ابن خلدون حين أفرد في مقدمته الرائعة فصولا هامة عن تأثير المكان في مزاجية الإنسان. ذلك أن المعطيات الجغرافية هي التي تفرز التوجهات الاقتصادية للسكان. كما وأن التوجهات الاقتصادية هي التي تحدد وتصوغ البنيات الاجتماعية التي من خلال صراعاتها يتخلق التاريخ.

ولسوف نلاحظ أن جغرافية بلاد المغرب عموما والمغرب الأقصى خصوصا مهدت للدعوة الزيدية التي أسفرت عن قيام دولة الأدارسة. بل لعبت دورا محوريا في صياغة سياستها الداخلية وعلاقاتها الخارجية.

والواقع أن اصطلاح «المغرب الأقصى» يشكل إشكالية تندرج ضمن إشكالية أكبر وأعم تتعلق بمصطلح «المغرب» الكبير. إذ اختلف الدارسون في

تحديد خريطته وتسمية أقاليمه. ويرجع ذلك إلى اختلافات سابقة بين المؤرخين والجغرافيين القدامى. إذ نظر هؤلاء إلى خريطة «بلاد المغارب» حسب المعطيات السياسية والإدارية إبان عصورهم. فاتساع رقعتها أو تقلصها ارتهن باختلاف عصور التاريخ الإسلامي عموما ووضعية بلاد المغارب داخل خريطة «دار الإسلام» وطبيعة علاقاتها مع عواصم الخلافة في المشرق.

كما أن التقسيمات الكلاسيكية إبان الوجود الروماني والبيزنطي، كذا التقسيمات السياسية الحديثة والمعاصرة أسهمت بدور في تخليق هذه الإشكالية؛ نتيجة تأثير الاسقاطات القديمة والحديثة على «مغرب» العصور الوسطى.

ناهيك عن اختلاف رؤية المشارقة للمغرب ورؤية المغاربة للمشرق وما لعبه التنافر بين الرؤيتين في تعقيد الإشكالية. وهو أمر فطن إليه ابن خلدون حين قال: «إعلم أن لفظ المغرب في أصل وضعه اسم إضافي يدل على مكان من الأمكنة لإضافته إلى جهة المشرق. ولفظ المشرق كذلك بإضافته إلى جهة المغرب. وكل مكان في الأرض مغرب بالإضافة إلى جهة الشرق ومشرق بالإضافة إلى جهة الغرب»[1].

لم تثر هذه الإشكالية بالنسبة للمغاربة في العصور الإسلامية الباكرة؛ لأنهم لم يعتمدوا أي تصنيف أو تقسيم جغرافي لبلادهم. إذ كانوا يسمون الأقاليم بأسماء القبائل الضاربة فيها[2]. وفي ذلك قرينة على أن الإشكالية لم تثر في الأدبيات التراثية إلا في حقب متأخرة[3].

---

(١) العبر: ٦: ١٩٣.
(٢) ياقوت: معجم البلدان، جـ ١، ص ٣٦٩، بيروت ١٩٥٦.
(٣) عبدالكريم بيصعين: المرجع السابق، ص ٢٧.

وإذا عولنا على قاعدة رؤية خريطة المغرب في إطار خريطة «دار الإسلام»، لا نستطيع أن نلج باب حل الإشكالية. ذلك أن تحديد المشرق والمغرب حسب العرف السائد في العصور الوسطى الإسلامية جرى على أساس الموقع من عاصمة الخلافة؛ فما كان شرقيها يعد مشرقاً وما كان غربيها يعد مغرباً.

التعويل على هذا المعيار يقود إلى تضليل؛ نظرا لانتقال العاصمة حسب عصور التاريخ الإسلامي ما بين المدينة ودمشق وبغداد. ومن ثم تسقط الرؤية السياسية والإدارية في تحديد مصطلح المغرب؛ تلك التي عول عليها بعض الدارسين المحدثين.

كما أن التعويل على الجغرافيا الطبيعية وحدها يقود إلى ذات المنزلق. إذ لو اعتمدنا وحدة الإقليم كمعيار؛ فإن مصر يمكن أن تنضاف إلى بلاد المغرب؛ وهو خطأ وقع فيه بعض الجغرافيين القدامى.

لذلك لا مناص من الاستناد إلى الوحدة الطبيعية والبشرية كمعيار؛ وهو أمر فطن إليه ابن خلدون أيضا[٤] حين ذهب إلى أن بلاد المغرب هي «ديار البربر ومواطنهم»، ونحن نقر بوجاهة رأيه تأسيسا على اختصاص البربر بسمات مميزة في أنماط الحياة وطرائق المعاش والعوائد والأعراف واللغات. كما نأخذ بوجهة نظره في تقسيم خريطة المغرب الطبيعية والبشرية إلى ثلاثة أقاليم هي المغرب الأدنى وإفريقية ثم المغرب الأوسط ثم المغرب الأقصى[٥]. خاصة وأن هذا التقسيم يلائم التقسيمات الإدارية القرو-وسطية؛ كذا التقسيمات الإدارية والسياسية الكلاسيكية والحديثة.

---

(٤) العبر: ٦: ١٧٥.

(٥) نفسه: ١٩٣ _ ٢٠٥.

وبالمثل يمكن - في ضوء ذلك - حلحلة إشكالية مصطلح «المغرب الأقصى»؛ وننوه أن هذه التسمية لم يجر الأخذ بها قبل القرن الخامس الهجري[٦]. واستنادا إلى إجماع ثلة من المؤرخين والجغرافيين الثقاة - مثل ابن عذارى[٧] وابن أبي زرع[٨] وصاحب كتاب الاستبصار[٩] - نستطيع أن نعرف المصطلح بأنه يشمل الأراضي الواقعة بين تلمسان شرقا، والمحيط الأطلسي غربا، سبته وطنجة شمالا، وصحراء سجلماسة جنوبا.

ويتميز هذا الإقليم بتنوع تضاريسه ما بين جبال وسهول وصحارى. فجبال غماره ببلاد الريف التي تمتد حتى فاس[١٠] تشكل حماية طبيعية لأي كيان سياسي من ناحية، كما تشجع على حركات الانتزاء ضد الحكومات المركزية من ناحية أخرى[١١]. أما سلاسل جبال فازاز - على مسيرة ثلاثة أيام من فاس - فقد اشتهرت بأشجارها السامقة وطبيعتها الوعرة التي جعلتها منطقة طرد بشري خصوصا في فصل الشتاء حيث تكتسي قممها بالثلوج[١٢]. وعلى العكس تمتد جبال درن من الجنوب الغربي مخترقة شمالي القارة حتى تصل إلى طرابلس شرقا[١٣]. وهي منتجع طيب للرعي وموئل زاخر لمعدن النحاس الذي سوف تصطرع بسببه القوى الداخلية والخارجية.

---

(٦) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، ص ٤ - ٢٠، الجزائر ١٩٥٧.
(٧) البيان المغرب، جـ ١، ص ٢١١، باريس ١٩٤٨.
(٨) القرطاس، ص ٢٢، الرباط ١٩٧٢.
(٩) مجهول: ص ١٩٩، الإسكندرية ١٩٥٨.
(١٠) ابن خلدون: ٦: ٤٣٦.
(١١) الاستبصار: ١٩٠.
(١٢) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص ١٢٥، باريس ١٩١١.
(١٣) الإدريسي: ٤٠.

إلى جانب الجبال تميزت طبيعة المغرب الأقصى بوجود عدد من السهول أو الفحوص أو البسائط تشقها أنهار ووديان أهلتها للعمران واجتذاب السكان؛ خصوصا سهل سايس حيث مدينة فاس قصبة الأدارسة. كما تتالى السهول على ساحل المحيط؛ كسهل غمارة وسهول تامسنا ثم سهل دكالة الذي يمتد جنوبا حتى وادي تنسيفت. ومعظم هذه السهول تشقها أنهار تصب في المحيط الأطلسي؛ من أهمها واد أم الربيع وواد درعة ونهر ملوية وسبو وأخيرا واد إيجلي في السوس الأقصى[١٤].

وقد ساعدت هذه الطبيعة الجغرافية على تنوع وثراء الحياة الاقتصادية، وهو أمر ساعد بدوره على صياغة نمط الحياة سواء أكان حضريا أم بدويا. ودون دخول في التفصيلات يمكن الجزم بأن ثراء الإقليم كفل له نوعا من الاكتفاء الذاتي الذي ساعد على قيام دول مستقلة قادرة على البقاء والاستمرار رغم ما كان بينها من تنافس وصراع. كما أن هذا الثراء كان من أسباب تدخل قوى خارجية كبرى تصارعت من أجل مد نفوذها على هذا الإقليم الغني.

تشكل الزراعة أهم قوى الإنتاج الدائمة والقارة. فقد اشتهر المغرب الأقصى بإنتاج كافة المحاصيل فضلا عن الفواكه والغروس والنخيل والزيتون[١٥]. وامتدت المراعي سواء في السهول أو على قمم الجبال أو في الصحراء لتجعل الثروة الحيوانية قوة إنتاج هامة[١٦].

وقامت صناعة أولية نظرا لوفرة المعادن وخاصة الحديد والنحاس في بلاد السوس الأقصى[١٧]. ولوجود الفضة في مناجم درعة وتدغة راجت صناعة الأواني

---

(١٤) البكري: ١٦٢.
(١٥) نفسه: ١٩٣.
(١٦) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٨٤، ليدن ١٩٣٨.
(١٧) البكري: ١٦٢.

الفضية التي كانت تصدر إلى الخارج[١٨]. واشتهرت بلاد السوس كذلك بصناعات تحويلية كالسكر[١٩]. كما اشتهر الإقليم بصناعة الخمور والزيوت وغيرها مما تتطلبه «ضرورات العمران»[٢٠].

وبديهي أن تزدهر التجارة الداخلية والخارجية بفضل أهمية موقع وموضع المغرب الأقصى. فقد غمرت الأسواق بالسلع الزراعية والصناعية خاصة في نفيس وأغمات[٢١]. كما ازدهرت التجارة الخارجية مع المشرق ودول المغرب وبلاد الأندلس والسودان[٢٢].

على أن هذه المقدرات الاقتصادية الهائلة أسيء استغلالها قبيل قيام دولة الأدارسة. ويرجع ذلك إلى السياسة الابتزازية الأموية سواء أثناء الفتح أو بعده[٢٣]. كذلك أسهمت ثورات الخوارج في مزيد من تخريب الإقليم. وإذا كانت دولتي الخوارج في شالة وسجلماسة قد تمتعتا بازدهار اقتصادي؛ فإن الأقاليم التي عمتها الفوضى السياسية قبيل قيام دولة الأدارسة عانت من المجاعات والأوبئة[٢٤].

وبديهي أن تنعكس المشكلات الاقتصادية على الأوضاع الاجتماعية، إذ سادت السخائم العصبية القبلية والعنصرية تلك الأقاليم التي قامت فيها الدولة الإدريسية. لقد شهدت «فسيفساء» إثنية متعددة ومتصارعة. ففضلا عن البربر وجد العرب والفرس والسودان والصقالبة واليهود.

---

(١٨) عبدالكريم بيصعين: المرجع السابق، ص ٦٠.

(١٩) البكري: ١٦١.

(٢٠) ابن خلدون: المقدمة ٣١٣.

(٢١) البكري: ١٥٢.

(٢٢) نفسه ١٥٩.

(٢٣) ابن عذارى: ١ : ٨٣.

(٢٤) محمود إسماعيل: الخوارج في بلاد المغرب، ص ٢٧٢، ٢٧٣، القاهرة ١٩٨٦.

وكان من الممكن أن تتعايش هذه العناصر ويزدهر العمران في ظل حكم عادل وقار. لكن مفاسد الإدارة الأموية أججت نعرات العصبية وسخائم العنصرية. وبالنسبة للبربر سكان البلاد الأصليين؛ فكانوا قبائل شتى. هناك المصامدة الذين ضربت قبائلهم من ممر تاز إلى السوس الأقصى حيث تعرضت بلادهم لمزيد من حملات ولاة القيروان وعمالهم من أجل السلب والسبي. وهناك زناتة البدوية التي انتهزت حالة الفوضى السياسية لتثخن في القبائل المستقرة كمكناسة وأوربة وهوارة وتطردها من بلادها إما إلى أقصى الغرب[٢٥] أو إلى تلمسان[٢٦].

أما العرب؛ فقد وفدوا إلى الإقليم بعد الفتح واستقروا في بلاد الهبط ومدن البصرة وأغمات ونفيس[٢٧]. وقد نجحت بعض القبائل في تأسيس دولة عربية في نكور سنة ٩٢هـ. وإذا كان الوجود العربي المستقر في المغرب الأقصى قد ساعد على تعريب البربر[٢٨]؛ إلا أنه أفضى إلى إثارة الصراعات بين العرب، قيسية ويمنية، وبينهما معاً وبين البربر[٢٩].

أما الفرس؛ فقد وفدوا إلى الإقليم إبان حركة الفتوح. كما وفدت عناصر خراسانية برفقة الحملات العسكرية العباسية التي أنفذن لقمع ثورات البربر. ولم يلعب الفرس دوراً ذا بال في السياسة بقدر فعالية نشاطهم التجاري والعمراني؛ كتأسيس المدن وتشييد قنوات الري المغطاة[٣٠]. إلا أن وجودهم في بعض

---

(٢٥) عبدالكريم بيصعين: المرجع السابق، ص٨٤.
(٢٦) البكري: ٣٦، ٩٣، ١٤١.
(٢٧) نفسه: ١٥٢.
(٢٨) محمود إسماعيل: الخوارج، ٢٠٧.
(٢٩) نفسه: ٢٨، ٢٩.
(٣٠) محمود إسماعيل: مغربيات، ص٨٢ وما بعدها، فاس ١٩٧٧.

المناطق التي استقر بها العرب لم يخل من إثارة نزعات شعوبية خاصة في بلاد الريف وبلاد الهبط[٣١].

كما أن عناصر أندلسية وفدت إلى المغرب الأقصى نتيجة أسباب سياسية واقتصادية. وغالباً ما كانت تستقر في الجهات الشمالية أو في المدن الهامة[٣٢]. وقدر لها أن تلعب دوراً عمرانياً إيجابياً فضلاً عن آخر سياسي سلبي خصوصاً بعد قيام دولة الأدارسة.

وبالمثل وفدت من الأندلس عناصر صقلبية استخدمت في المجال البحري في خدمة دولة نكور[٣٣] أو جرى استجلابها لتباع في أسواق الرقيق. وكثيراً ماتفجر الصراع بين هذه العناصر وبين سكان البلاد من البربر[٣٤].

أما اليهود؛ فقد وفدوا إلى المغرب الأقصى منذ وقت مبكر[٣٥]. وقد هيمنوا على النشاط المالي فضلاً عن التعدين[٣٦]. كما شكلوا طبقة موسرة كانت تتعرض دوماً للمصادرة والاضطهاد.

ومن افريقية السوداء وفدت عناصر سودانية استقرت في السوس الأقصى وأغمات[٣٧] وواحة تافيللت. وقد استخدموا في إرشاد وحراسة القوافل التجارية، كما جرى استرقاق الكثيرين منهم ليباعوا في أسواق النخاسة[٣٨].

---

(٣١) البكري: ١١٥.
(٣٢) نفسه: ١٠٩.
(٣٣) نفسه: ٩٣.
(٣٤) نفس المصدر والصفحة.
(٣٥) عبدالكريم بيصعين: ٩٠.
(٣٦) الاستبصار: ٢٠٢.
(٣٧) البكري: ١٥٨، ابن حوقل: ٩٥.
(٣٨) البكري: ١٠٦.

وإذا جاز الحديث عن البناء الطبقي في المغرب الأقصى قبيل قيام دولة الأدارسة؛ يمكن القول بظهور الطبقات نتيجة التباين في حيازة الثروة؛ برغم غلبة البني القبلية[٣٩] على الصعيد الاجتماعي. فقد تبلورت ارستقراطية تقتني[٤٠] الأرض وتحتكر استغلال المناجم وتشتغل بالتجارة خصوصاً مع بلاد السودان. كما وجدت طبقة وسطى حرفية أغلب عناصرها من العناصر الوافدة من الفرس والأندلسيين واليهود. وفي سفح الهرم الاجتماعي تقف طبقة العوام وأغلبها من البربر والسودان. وقد أدى هذا التباين الطبقي إلى صراعات اتخذت الطابع العنصري والطائفي مهدت لنجاح الدعوة الإدريسية الزيدية ـ الاعتزالية التي تبنت العدالة الاجتماعية.

أما عن الخريطة المذهبية؛ فقد صيغت وفق مبدأ الاختلاف والتنافر برغم غلبة الإسلام على معظم السكان. كما تعثرت حركة التعريب ـ على خلاف ما ذهب إليه بعض الدارسين[٤١] ـ نتيجة مفاسد الإدارة الأموية وتمركز العناصر العربية في إمارة نكور، وجنوح بعض القبائل إلى معارضة العروبة كقبيلة أوربة التي عانت من سياسة التعصب العربي إبان الفتح وبعده[٤٢]؛ حتى وصل الحال إلى تمسك بعض القبائل الأخرى بدياناتها القديمة نكاية في الفاتحين العرب. فالنصرانية لم تعدم وجود أتباع حتى في بعض المدن الشمالية؛ كانوا يتبعون كنيسة الإسكندرية[٤٣]. وانتشرت اليهودية في نكور ووداي وفازاز وتادلا ودرعة[٤٤]. كما

---

(٣٩) راجع: ايف لاكوست: العلامة ابن خلدون، ص٢٨، بيروت ١٩٧٤،
محمد عابد الجابري: العصبية والدولة، ص٢٢، الدار البيضاء ١٩٨١.
(٤٠) انظر: سامية توفيق: انتشار الإسلام والثقافة العربية في بلاد المغرب، ص١١٠، القاهرة ١٩٨٦.
(٤١) نفسه: ١١١ ـ ١١٢.
(٤٢) ابن عبدالحكم: فتوح مصر والمغرب، ص١٩٨، ليدن ١٩٢٠.
(٤٣) البكري: ١٦١.
(٤٤) عبدالكريم بيصعين: ١٠٤.

أن بقايا الوثنية ـ كعبادة الكبش ـ ظلت موجودة على شكل جيوب منغلقة في مرتفعات المغرب الأقصى كما لاحظ صاحب كتاب الاستبصار(٤٥). بل إن بعض القبائل التي اعتنقت الإسلام لونته بألوان هذه المعتقدات القديمة سواء في الطقوس أو الاعتقاد في الكهانة والسحر وبعض العادات الجنسية التهتكية.

أما عن المذاهب التي وجدت بالمغرب الأقصى خلال القرن الثاني الهجري؛ فأشهرها انتشاراً قبل قيام دولة الأدارسة؛ هو المذهب الخارجي الصفري(٤٦). وليس أدل على سيادته من أن دولتي المدراريين والبورغواطيين تأسستا انطلاقاً من أيدلوجيته. كما أن إمارات صفرية صغرى وجدت كذلك بالمغرب الأقصى؛ مثل إمارة بني وكيل وإمارة برغوت بن سعيد الترازي(٤٧).

وانتشر مذهب المعتزلة بين قبائل أوربة وزناتة ومزاتة؛(٤٨) كما وجدت تجمعات واصلية في درعة والسوس الأقصى وشرق ملوية وجبال فازاز(٤٩).

وغلب مذهب مالك على إمارة نكور، كما انتشر في سلا وأصيلة فضلاً عن بلاد القبلة، حيث تمركز المالكية في الأربطة لجهاد البورغواطيين، وفي السوس الأقصى لجهاد اليهود(٥٠).

ووجد مذهب أبي حنيفة طريقه إلى المغرب الأقصى خصوصاً بعد قيام الخلافة العباسية(٥١). كما بدأت إرهاصات التشيع تجتاح المغرب الأقصى مع

---

(٤٥) مجهول: ص٢٠٠.
(٤٦) محمود إسماعيل: الخوارج، ص٤٢ وما بعدها.
(٤٧) البكري: ١٣٧.
(٤٨) ابن حوقل: ٩٤.
(٤٩) عبدالكريم بيصعين: ١١٢.
(٥٠) ابن حوقل: ٨٢، عبدالكريم بيصعين: ١١٤.
(٥١) السلاوي: الاستقصا، جـ١، ص١٣٧، الدار البيضاء ١٩٥٤.

الدعوة الزيدية الاعتزالية؛ كما سنوضح في الفصل التالي.

هكذا شهد الإقليم فسيفساء دينية ومذهبية أسهمت في تأجيج السخائم العصبية واتخذت أغطية لحركات سياسية مهدت لقيام الدولة الإدريسية.

ولن نسترسل طويلاً في سرد التطور السياسي بالإقليم إلا بالقدر الذي يخدم موضوع الدراسة. معلوم أن المغرب الأقصى فتح على أثر حملات موسى بن نصير. ومعلوم أيضا أنه أصبح تابعاً لولاة بني أمية بالقيروان الذين عينوا عمالهم على سائر أقاليمه. ونظراً لتطرفه جغرافياً؛ عانى من مفاسد الإدارة الأموية أكثر من سائر الأقاليم الأخرى. وهذا يفسر سر إقبال قبائله على اعتناق المذهب الخارجي الصفري المتطرف. كما يفسر أيضا سبقها إلى إعلان الثورة على بني أمية، كذا سبقها في تتويج ثوراتها بتأسيس دول مستقلة عن الخلافة الأموية ومن بعدها العباسية.

وبرغم تأسيس هذه الدول؛ سواء أكانت سنية كدولة نكور أو خارجية كدولتي بورغواطة وبني مدرار؛ فإن أياً منها لم تستطع تحقيق وحدة الإقليم سياسياً. بل أدى الصراع بينها إلى ظهور إمارات صغرى طائفية منتهزة حلول الفوضى والاضطراب فضلاً عن الفراغ السياسي.

هكذا شهد المغرب الأقصى حالة من التمزق والتشرذم السياسي والإثني والطبقي والمذهبي أفضت إلى تهيئة الظروف لنجاح الدعوة الزيدية ـ الاعتزالية التي مهدت لقيام دولة الأدارسة.

أما عن هذه الدعوة؛ أصولها وأساليبها وأهدافها؛ فذلك ما سيعالج في المبحث التالي.

الفصل الثالث
الدعوة الزيدية في بلاد المغرب

سبق إثبات انبثاق الحركات الثورية الزيدية في الشرق من دعوات سرية منظمة. كما سبق الحديث عن دعوة سرية أحكمها المعتزلة المتعاطفون مع ثورة زيد بن علي والمشاركون في الثورات الزيدية التالية ضد بني العباس بعد أن اندمجوا في الدعوة الزيدية التي أسسها محمد النفس الزكية.

وما نحاول إثباته في هذا المبحث ـ الذي نزعم جدته ـ أن الدعوة الزيدية ـ الاعتزالية وصلت إلى المغرب ومهدت لقيام دولة الأدارسة. فما هي القرائن والأدلة على وصول كل من الدعوتين ـ إبان مرحلة استقلال كل منهما عن الأخرى ـ إلى بلاد المغرب؟ وما هي الأسباب التي أفضت إلى اندماجهما في دعوة واحدة سواء في الشرق أم في المغرب؟

بخصوص الدعوة الزيدية في المغرب؛ نعلم أنها بدأت بعد قيام الخلافة العباسية. يقول ابن الخطيب[1]: «كان للزيدية من الحسنيين الطالبيين ذرية علي بن أبي طالب دعوة زاحموا بها أيام العباسيين». وكان الدعاة يفدون من الشرق إلى إفريقية ـ التي كانت مستقر دعاة الخوارج من قبل ودعاة الفواطم من بعد ـ باعتبارها موسطة المغرب وفي ربوعها يمكن اتصال الدعاة برؤساء القبائل،

---

(١) أعمال الأعلام، جـ٣، ص١٨٨، الدار البيضاء ١٩٦٤.

ومنها يخرج الدعاة إلى سائل بلاد المغرب أيضا. وأول من وصلها من دعاة الزيدية عيسى بن عبدالله الذي أنفذه محمد النفس الزكية «فأجابه خلق كثير من قبائل البربر»[٢]. ومع ذلك عاد أدراجه إلى الشرق ربما خوفا من عيون العباسيين بإفريقية أو للمشاركة عن كثب في الثورة عليهم.

وقد بعث محمد النفس الزكية أخاه سليمان إلى بلاد المغرب يدعو إليه؛ فنزل بتلمسان[٣] بعد رحلة طويلة عبر مصر وبلاد النوبة والسودان وبلاد الزاب. ويبدو أن الخوف من عيون العباسيين كذلك كان من وراء تحاشي سليمان اتخاذ الطريق الساحلي المباشر من برقة إلى تلمسان. وظل سليمان بتلمسان يدعو للحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بعد مقتل محمد النفس الزكية وأيلولة رئاسة الدعوة إلى الحسين. ويبدو أنه أحرز نجاحا ملحوظا قبل عودته إلى المشرق للمشاركة في ثورة الأخير على بني العباس. وحل محله إدريس بن عبدالله الذي كان يدعو كذلك لإمامة الحسين بن علي. لكن مقامه في تلمسان لم يطل إذا اضطر للعودة كذلك إلى الشرق للمشاركة في معركة فخ المشهورة[٤].

وبعد الكارثة التي حلت بالعلويين بفخ؛ عاد سليمان إلى تلمسان مرة أخرى يدعو لإمامة يحيى بن عبدالله الذي تمكن من تأسيس دولة بطبرستان[٥]. ثم لحق به إدريس بن عبدالله للمرة الثانية من أجل الدعوة لأخيه يحيى كذلك. فلما علم بنهايته أقام الدعوة لنفسه. وفي نفس الوقت وصل إلى إفريقية - لنفس الغرض - داود بن القاسم بن إسحق بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب[٦].

---

(٢) ابن أبي زرع: ١٥.
(٣) نفسه: ١٦.
(٤) نفس المصدر والصفحة.
(٥) ابن خلدون: ٤: ٣٦.
(٦) المغرب: ١٢٢.

وهذا يعني الكشف عن حقيقتين هامتين؛ الأولى أن الدعوة الزيدية واصلت استمراريتها بعد معركة فخ. والثانية أن إدريس بن عبدالله عندما وصل تلمسان للمرة الثانية ومنها انتقل إلى طنجة واتصل بزعيم قبيلة أوربة لتأسيس دولة الأدارسة سنة ١٧٢هـ؛ لم يكن نتيجة صدفة عفوية، أو مجرد هرب من خطر العباسيين، كما تصور الدارسون؛ بقدر ما كان يعد العدة من خلال دعوة محكمة وتنظيم دقيق لتأسيس دولة علوية بالمغرب الأقصى. دليلنا على ذلك أنه إبان رحلته من مكة عبر مصر إلى المغرب كان يرافقه مولاه راشد الذي لم يكن اختياره عبثا. إذ نعلم أنه ينتمي إلى قبيلة أوربه البربرية[٧] وهو أمر يتيح لإدريس الاتصال بإسحق بن محمود بن عبدالحميد زعيم أوربه. يقول السنوسي[٨]: «وراشد بن منصت الأوربي كان قد سبي مع أبيه في غزوة موسى بن نصير. وقفل مع أبيه إلى المشرق وهو صغير، ثم أتى مع مولانا إدريس ودله على المغرب».

ونرى أن دور راشد كان أكبر من مجرد أن «يدل إدريس على المغرب»؛ ذلك أن إدريس كان على دراية بمسالك المغرب الذي قدم إليه من قبل داعية لمحمد النفس الزكية كما أوضحنا سلفا. كانت مهمة راشد إذن هي تمهيد الاتصال بين إدريس وإسحق الأوربي لتأسيس دولة بني إدريس. وإجماع المصادر على اعتناق إسحق مذهب المعتزلة ـ كما سنوضح فيما بعد ـ يقودنا إلى حقيقة جديدة؛ وهي اندماج دعوتي الزيدية والمعتزلة في بلاد المغرب قبل قيام دولة الأدارسة. تلك الحقيقة التي أشار إليها المقدسي في إشارة عابرة لكنها جد خطيرة[٩].

---

(٧) عبداللطيف السعداني: المرجع السابق، ص ١٥.

(٨) الدرر السنية في أخبار الدولة الإدريسية، ص ٤٧، القاهرة ١٩٥٤.

(٩) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤، ليدن ١٩٠٦.

وقد سبق إثبات حقيقة الإندماج في الشرق - كما أثبتنا في دراسة[10] سابقة - أن دعوة المعتزلة أثمرت في بلاد المغرب قبل اندماجها في الدعوة الزيدية. إذ قدر لها الانتشار في إفريقية والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى على نحو خاص. لذلك لن نخوض في الموضوع إلا بالقدر الذي يسهم في حلحلة «إشكالية» العلاقة بين إدريس وبين إسحق الأوربي.

ذكر البلخي[11] أن «واصل أنفذ إلى المغرب عبدالله بن المبارك؛ فأجابه الخلق». ونعلم أن دعاة المعتزلة الأوائل اتخذوا من إفريقية مقرا حيث كانوا يتخفون في ملابس العلماء والتجار ويتصلون بزعماء القبائل خاصة من زناتة وأوربة[12]. ولما كانت زناتة تضرب في كل نواحي المغرب من برقة إلى طنجة؛ فهذا يعني انتشار الاعتزال في سائر ربوع بلاد المغرب وخاصة في المغرب الأقصى؛ حيث اعتنقته قبيلة أوربة التي كانت تتطلع إلى دور سياسي مرموق.

يرجع ذلك ما أقدمت عليه من إعداد سياسي وعسكري؛ إذ أن مدينة البيضاء وحدها حوت «مائة ألف معتزلي يحملون السلاح»[13]. ومدينة طنجة كان كل سكانها معتزلة[14].

وما جرى من اندماج الدعوتين الزيدية والاعتزالية في المشرق والمغرب لم يفت في طموحات أوربة. فلم تمانع في العمل على تأسيس دولة تكون رياستها لإمام علوي زيدي؛ طالما كانت هي العصبية المؤسسة. وعلى ذلك نرجح أن

---

(١٠) محمود إسماعيل: مغربيات، ص ١٢٣ وما بعدها.

(١١) مقالات الإسلاميين، ص ٦٦، تونس ١٩٧٤.

(١٢) نفسه: ١١٠.

(١٣) نفسه: ١٠٨.

(١٤) نفسه: ١١٠.

إسحق كان يعلم سلفا بقدوم إدريس لتقلد حكم هذه الدولة، كما كان يعد العدة لاستقباله ومؤازرته. وإلا فما تفسير قعوده عن تأسيس الدولة قبل مقدم إدريس؟ وما تفسير نزول الأخير بطنجة وإنفاذ المولى راشد للاتصال بإسحق؟ وأخيرا ما تفسير عدم إقامة إدريس بتلمسان التي كانت أهم معاقل الدعوة الزيدية؟ يقودنا هذا إلى طرح السؤال الأساسي؛ لماذا وكيف اندمجت الدعوتين الزيدية والاعتزالية في المغرب وتضافرتا على تأسيس دولة الأدارسة؟؛ أثبتنا من قبل وقوع هذا الاندماج في الشرق فكريا ودعائيا وسياسيا وعسكريا. وأثبتنا كذلك إخفاق «المشروع السياسي» الزيدي المعتزلي لإقامة دولة في الشرق؛ نظرا لسطوة الدولة العباسية وهيمنتها على قلب «دار الإسلام». لذلك اتبع الزيدية والمعتزلة نفس سياسة الخوارج في اللجوء إلى المغرب، خاصة وأن بني العباس لم يدخروا وسعا في اضطهاد الزيدية والمعتزلة معا بعد معركة فخ. وهذا يفسر قدوم أعداد غفيرة منهم إلى بلاد المغرب عموما والمغرب الأقصى على نحو خاص ونجاح الدعوتين الزيدية والاعتزالية في كسب أنصار من قبائله حتى قبل اندماجهما معا[١٥]. إن التوقيت المشترك لقدوم الزيدية والمعتزلة إلى المغرب الأقصى ليس صدفة مجانية بل كان نتيجة تدبير وإعداد سابق لتحقيق هدف موحد.

ومن سياق الأحداث نعلم أن كفة المعتزلة في المغرب الأقصى خصوصا رجحت كفة الزيدية. ولنا أن نتساءل، لماذا احتوت الدعوة الزيدية نظيرتها الاعتزالية في المغرب برغم رجحان كفة الأخيرة؟

ليس لذلك من تفسير إلا أن يكون وقوع اتفاق مسبق لتوحيد الدعوتين في المغرب وتكريسهما معا لتأسيس دولة إدريس. لم يكن ذلك بمستغرب بعد أن

(١٥) القاضي عبد الجبار: فضل الاعتزال، ص ٢٢٦.

اتحدت الدعوتان من قبل في الشرق كما سبق أيضاحه؛ حتى قيل بأن المعتزلة في الشرق كانوا إحدى فرق الزيدية[١٦]. لقد احتوى الاعتزال التشييع الزيدي فكريا حتى أن زعماء المعتزلة في الشرق حظوا بتقدير الزيدية فعظموهم بدرجة تعظيمهم آل البيت[١٧].

أما على الصعيد السياسي؛ فقد احتوى التشييع الزيدي الاعتزال؛ لأن زعماء المعتزلة ما كان بوسعهم مناطحة مكانة آل البيت إذا ما تعلق الأمر بالزعامة السياسية. ولم يجد المعتزلة غضاضة في ذلك خاصة وأن فكرهم السياسي يشترط العمل تحت راية إمام عادل ليس إلا.

كل هذا يفسر مناصرة معتزلة المغرب إدريس بن عبدالله سياسيا. ونرى أن دعاتهم مهدوا له أمر رحلته من مصر إلى طنجة حتى لقائه مع إسحق الأوربي زعيم معتزلة المغرب الأقصى وفق إعداد مسبق وخطة مدروسة واتفاق معقود.

إن هذا الإعداد والتخطيط والاتفاق بين الزيدية والمعتزلة على توحيد العمل السياسي في المغرب من أجل إقامة دولة يترأسها إمام زيدي؛ قمين بإنهاء الخلاف المثار بين الدارسين حول تأويل نصوص وردت بخصوص اللقاء بين إدريس بن عبدالله وإسحق الأوربي. كما أنه خليق أيضا بحلحلة «الإشكالية» الملغزة التي طالما توقف الدارسون عن البت فيها أو أخطأوا في أحكامهم بصددها.

وهاك عرضا لهذه النصوص، وتحليللا لمضامينها في ضوء رؤيتنا الجديدة للقضية.

---

(١٦) جولدتسيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام، ص ٢٢٢.

(١٧) الشهرستاني: جـ ١، ص ١٦٢.

يقول البكري[18]: «نزل إدريس على إسحاق الأوربي المعتزلي؛ فتابعه على مذهبه». ويقول جغرافي مجهول[19]: «كان إسحق معتزلي المذهب فوافقه إدريس على مذهبه». ويقول البلخي[20]: «إشتمل إسحق الأوربي علي إدريس بن عبدالله حين ورد عليه؛ فأدخله في الاعتزال». ويضيف «إن أنصار ولد إدريس بن عبدالله... إلى يومنا بطنجة وما والاهما من بلاد المغرب هم المعتزلة»[21]. ويقول ابن الفقيه[22]: «والغالب على طنجة المعتزلة. وعميدهم إسحق بن عبد الحميد وهو صاحب إدريس». ويقول ابن أبي زرع»[23]: «... فنزل إدريس على صاحبها إسحق الأوربي المعتزلي؛ فأقبل عليه إسحق وأكرمه وبالغ في بره؛ **فأظهر له المولى إدريس أمره وعرفه بنفسه؛ فوافقه على حاله وأنزله داره وتولى خدمته والعناية بشؤونه».**

برغم اختلاف هذه المصادر حول مَنْ مِنَ الطرفين وافق الآخر على مذهبه؛ نرى أن الخلاف غير ذات موضوع خصوصا بعد اندماج الاعتزال والتشيع الزيدي فكريا وسياسيا كما أوضحنا من قبل. لكن ذلك لا يعني أن إدريس تخلى عن المذهب الزيدي؛ كما رأى أحد الدارسين[24] مبررا ما تظهره النصوص للوهلة الأولى من تحوله إلى الاعتزال على أنه من باب «التقية»[25].

إن ما نراه في هذا الصدد أن التشيع الزيدي جرى احتواؤه فكريا من قبل الاعتزال، أما سياسيا فقد حدث العكس، وهذا ما برهنه تتابع الأحداث؛ حيث

---

(18) المغرب: 118.

(19) الاستبصار: 165.

(20) مقالات الإسلاميين: 109.

(21) نفسه 119.

(22) مختصر كتاب البلدان: 80: بريل 1885.

(23) القرطاس: 19.

(24) عبداللطيف السعداني: 20.

(25) نفسه: 21.

كانت زعامة الدولة التي تضافر الطرفان على إقامتها، لإدريس بن عبدالله الإمام العلوي الزيدي. وهنا تبرز قيمة نص ابن أبي زرع السابق الذي يؤكد استبطان قراءته صدق ما نذهب من موافقة إدريس مذهب إسحاق وموافقة إسحق سياسة إدريس.

وليس أدل على ضآلة الجانب المذهبي بالقياس للاعتبار السياسي من عدم إعلان إدريس عن حقيقة مذهبه في خطبته الأولى بعد أن بايعته أوربة والقبائل سنة ١٧٢هـ، فلم يفصح عن زيديته أو اعتزاله بقدر ما اهتم بإبراز كونه إماما عادلا من آل البيت. ولسوف نجد مصداق ذلك فيما شجر بعد من خلاف بين إدريس الثاني وإسحق الأوربي فيما بعد، حيث غلبت الأسباب السياسية على الجوانب المذهبية[٢٦].

لقد اقتضت الحكمة عدم إثارة «المسألة المذهبية» إبان تأسيس دولة تعددت مذاهب سكانها ما بين شيعية واعتزالية وسنية وخارجية. وقد فطن ابن خلدون[٢٧] إلى حقيقة عزوف إدريس الأول عن إعلان زيديته حين قال: «بموت يحيى بن عبدالله.. خفت دعوة الزيدية حينا من الدهر».

خلاصة القول ـ إن الدعوة الزيدية ـ الاعتزالية نجحت في الإفادة من ظروف المغرب الأقصى في تأسيس دولة نواة تطلعت للتوسع شرقا لتضم سائر العالم الإسلامي. وإذ نعول على نظرية ابن خلدون في قيام الدول؛ نرى أن المذهب الزيدي ـ الاعتزالي شكل إديولوجية هذه الدولة بينما شكلت قبيلة أوربة عصبيتها على الأقل في مرحلة التأسيس[٢٨]. ومن ثم تسقط دعاوى معظم

---

(٢٦) البكري: ١٢٣.
(٢٧) العبر: ٤: ٤٦.
(٢٨) ابن خلدون: ٦: ٢٩٦.

الدارسين التي ترى في قيام دولة الأدارسة مجرد حادث عفوي مجاني؛ لتثبت حججنا في القول بأن قيام هذه الدولة نتيجة إعداد وتخطيط مسبق أحكمته الدعوة الزيدية ـ الاعتزالية التي اتسقت مع طموحات العصبية وطموحاتها. أما عن كيف اضطلعت العصبية بمهمة التأسيس؛ فهذا ما سيوضحه المبحث التالي.

الفصل الرابع
تأسيس دولة الأدارسة

لا نعلم عن حياة إدريس المؤسس قبل قيام دولته إلا النذر اليسير[1]. إذ عرفناه داعية بتلمسان مرة يدعو لمحمد النفس الزكية وأخرى لأخيه يحيى. ثم مقاتلاً بفخ وهارباً بعد مذبحتها عبر مصر إلى المغرب الأقصى؛ حيث التقى بإسحق الأوربي الذي أخذ له البيعة من قبائله سنة ١٧٢هـ.

وقد نسج المؤرخون حول رحلة إدريس بن عبدالله إلى المغرب روايات ذات طابع اسطوري؛ إذ تذخر بالكرامات والمناقب التي تصوره مطارداً مغامراً تمكن من تأسيس دولة دون سابق إعداد أو تدبير. ومن هنا جاء الاختلاف والتناقض حول كيفية الهرب ووقائع الرحلة.

والصواب - فيما نرى - أن دعاة الزيدية أمنوا له الإقامة بمصر والخروج منها إلى برقة حيث تكفل دعاة المعتزلة بأمر رحلته إلى المغرب الأقصى. دليلنا على ذلك وجود تنظيم علوي زيدي في مصر استمر حتى بعد قيام دولة الأدارسة. إذ أوردت إحد الروايات[2] تشيع والي مصر علي بن سليمان الذي دبر له الإقامة بها

(١) معلوم أنه ابن عاتكة المخزومية التي انجب ابوه عبدالله منها أخويه عيسى وسليمان. كما تزوج أبوه أيضا من هند ابنة أبي عبيدة من آل عبدالعزى وأنجب منها إخوته محمد النفس الزكية وموسى. أما أخواه يحيى وإبراهيم فهما من أم ثالثة تسمى قريبة بنت عبدالله.

(٢) ابن أبي زرع: ١٧.

وأمر خروجه منها. وورد في أخرى[٣] أن واضح مولى صالح بن الخليفة المنصور صاحب بريد مصر هو الذي اضطلع بتلك المهمة. وأيا ما كان الأمر نرى أن جهاز الدعوة في مصر كان على علم بمقدم إدريس رفقة مولاه راشد. يفهم ذلك من قول ابن خلدون[٤] أن «واضح علم بشأن إدريس وأتاه إلى الموضع الذي كان به مستخفياً ولم ير شيئاً أخلص من أن يحمله على البريد إلى المغرب».

ونجاح إدريس وراشد في الخروج من مصر إلى برقة دليل على تشيع الكثيرين من عمال العباسيين. وخروجه مستتراً في زي غلام لراشد «يأمره فيأتمر له» قرينة على البراعة في العمل السياسي السري الزيدي من ناحية، وعلى حرص بني العباس على تعقب من بقي من العلويين بعد فخ للحؤول دون استمرارية دعوتهم من ناحية أخرى.

على كل حال ـ اتجه إدريس رفقة مولاه راشد إلى برقة ومنها إلى القيروان ثم إلى تلمسان فطنجة. وكلها مدن تجارية هامة منثورة على الطريق الساحلي بين المشرق والمغرب. وهو طريق غاص بالقوافل التجارية جيئة وذهاباً؛ لطالما ارتاده تجار المعتزلة «الذين شكلوا نخبة من الأرستقراطية الفكرية المنحدرة من أسر تجارية» على حد قول باحث معروف[٥]. وهو أمر لا يخلو من دلالة على دور المعتزلة ودعاتهم في المغرب في تمهيد الطريق لإدريس من برقة إلى طنجة[٦].

من الثابت أن إدريس حتى وصوله تلمسان كان يدعو لإمامة أخيه يحيى بن عبدالله الذي أسس دولة في بلاد الديلم. فلما وافاه خبر نهايته ـ عن طريق جهاز

(٣) ابن الخطيب: ١٩٠.
(٤) العبر: ٤: ٢٤.
(٥) الحبيب الجنحاني: القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية، ص٦٢، تونس ١٩٦٨.
(٦) عن معتزلة المغرب الأوسط، راجع: محمود إسماعيل: الخوارج: ٦٠، ٦١،
وعن معتزلة المغرب الأقصى راجع لنفس المؤلف: مغربيات: ١٢٨.

الدعوة بطبيعة الحال ـ أخذ يدعو لنفسه[٧]. وعدم بقائه بتلمسان ـ برغم جهوده السابقة وجهود غيره في الدعوة للمذهب الزيدي ـ والتوجه مباشرة إلى طنجة والاتصال بإسحق الأوربي لتأسيس الدولة؛ أمر له دلالته على اتفاق مسبق بقيام الدولة في المغرب الأقصى. ذلك الاتفاق الذي جرى بين الزيدية والمعتزلة بعد اندماج دعوتيهما كما أوضحنا من قبل.

وليس أدل على ذلك من قول أحد الباحثين الثقاة[٨] «كانت طنجة معقلاً لدعوة اعتزالية تتصل بالقبائل لتكوين الخلايا». يؤكد ذلك انفاذ إدريس مولاه راشد من طنجة إلى وليلي للاتصال بإسحق الأوربي وإعلامه بمقدم إدريس. وبالفعل جرى الاتفاق على أن ينزل إدريس مدينة وليلي حيث رحب إسحق بمقدمه وشرعا في إعداد العدة لإعلان قيام الدولة[٩]. وبالفعل بويع إدريس الأول سنة ١٧٢هـ من قبل قبيلة أوربة أولاً ثم من القبائل الأخرى مثل زناتة ومكناسة وغياثة وغمارة وغيرها[١٠].

دشن إدريس قيام دولته بخطبة هامة من المفيد أن نثبت بعض نصوصها ونحلل ما تنطوي عليه من دلالات هامة. وهاك بعض ما قال:

«الحمد لله الذي جعل النصر لمن أطاعه وعاقبة السوء لمن عانده. ولا إله إلا الله المتفرد بالوحدانية.. أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه وإلى العدل في الرعية والقسم بالسوية.. اعلموا عباد الله أن من أوجب الله على أهل طاعته

(٧) مجلة الوثائق: عدد ١: ٣٧.
(٨) عبداللطيف السعداني: ١١.
(٩) ابن أبي زرع: ١٩.
(١٠) نفسه: ٢٠.

المجاهدة لأهل عداوته ومعصيته باليد واللسان وفرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[11].

وتنم هذه الخطبة عن براعة سياسية إذ حرص إدريس على إرضاء كافة القبائل على اختلاف مذاهبها. فقد استرضى أهل السنة حين دعى إلى «كتاب الله وسنة نبيه». كما استرضى الخوارج حين نص على «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر». وتعبر أقواله في «التوحيد» و«العدل» عن حرصه على كسب المعتزلة.

والملاحظ أن الخطبة تخلو من أي ذكر للتشيع الأمر الذي يوضح أهمية الهدف السياسي. وتشهد الخطبة عموماً قرينة على خطأ بعض الدارسين[12] الذين شككوا في دور المعتزلة حيث قالوا بخلو الدعوة والدولة الإدريسية من تأثيرهم تماماً. وعلى العكس نرى أن معتزلة المغرب الأقصى كانوا عماد الدعوة في الطور المغربي وعصب الدولة إبان تأسيسها على الأقل.

وفي انضمام الخوارج إلى إدريس الأول قرينة على ضآلة الجانب الاعتقادي بالقياس إلى الجانب السياسي؛ خاصة وأن الحركة الخارجية الصفرية تصدعت بالمغرب الأقصى بعد هيمنة زناتة عليها إبان ثورة ميسرة. وفي مؤازرة المالكية والأحناف إدريس الأول ما يعبر عن التقارب بين المذهب الزيدي ومذاهب أهل السنة. ألم يؤازر الإمامان مالك وأبو حنيفة ثورات الزيدية في الشرق؟.

على كل حال ـ أدرك إدريس الأول ببصيرته السياسية خطورة إثارة تشيعه حتى لا يحدث فرقة في وقت كان فيه بحاجة ماسة إلى تعضيد الجميع. فلم ينص إلا على أنه «يحمل أمانة أهل البيت». ولم يشر حتى إلى اعتبار نفسه «إماماً» على

---

(١١) مجلة الوثائق: ٤٠ ـ ٤٥.

(١٢) انظر: سعد زغلول عبدالحميد: ٤٢٩.

الأقل في السنوات الأولى من حكمه[١٣]. وهو نهج سياسي بارع حرص ابنه إدريس الثاني على اتباعه حتى أواخر أيامه[١٤]. في مقابل ذلك ألح إدريس على «البعد الاجتماعي» حين أبان على عزمه على «العدل في الرعية والقسم بالسوية».

شرع إدريس الأول بعد بيعته في ترسيخ جذور دولته. وكان عليه أن يؤسس عاصمة جديدة وأن يستن نظم الدولة ورسومها وأن يجيش الجيوش التي تكفل لها البقاء والاستمرار من ناحية والتوسع من ناحية أخرى.

وبخصوص تأسيس فاس؛ أثيرت مشكلة حول تاريخ بنائها وبالتالي حول مؤسسها. ولن نخوض في تناولها ـ لأننا وغيرنا سبق وأن تناولناها ـ إلا بالقدر الذي يخدم موضوع الدراسة أو يضيف جديداً إلى ما هو متعارف عليه.

كانت الرواية الشائعة أن إدريس الثاني هو مؤسس مدينة فاس؛ إذ شيد عدوة الأندلسيين سنة ١٩٢هـ ثم عدوة القرويين في العام التالي[١٥]. لكن العلامة بروفنسال جاء بنظرية جديدة فحواها أن إدريس الأول هو الذي بدأ تأسيس المدينة سنة ١٧٢هـ في الموضع الذي يحوى عدوة الأندلسيين. أما إدريس الثاني فقد أسس عدوة القرويين سنة ١٩٣هـ غربي مدينة أبيه على الضفة اليسرى

---

(١٣) من الأدلة في هذا الصدد أن إدريس الأول بعد بناء مسجد تلمسان نقش على محرابه: «بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أمر به إدريس بن عبدالله» دون أن يذكر لقب «إمام». انظر عبداللطيف السعداني: ٢٢.

(١٤) نلاحظ أن العملة الإدريسية حتى أواخر عهد إدريس الثاني خلو من ألقاب الإمامة وشعارات الشيعة.

انظر: Eustache: Op. cit. p. 71.

(١٥) سبق وأن أعلن شارل أندريه جوليان أن إدريس الأول هو مؤسس فاس لكنه لم يجد الوقت لاتمام عمرانها نظراً لمشاغله فظلت قرية متواضعة. انظر: تاريخ إفريقيا الشمالية، الترجمة العربية، ص٥٦، تونس ١٩٨٥.

من واد فاس. إذ استبعد بروفنسال أن يؤسس إدريس الثاني مدينتين متجاورتين في آن. وقد دعم نظريته ببراهين منطقية ونصوص تاريخية هامة فضلاً عن نقوش عملة ضربت بالمدينة سنة ١٧٢هـ تحمل اسم إدريس الأول(١٦).

ونحن نرى وجاهة هذه النظرية ونضيف إلى حجج صاحبها قرينتين جديدتين هامتين؛ الأولى: العرف الذي جرى عليه كافة مؤسسي الدول المستقلة في بلاد المغرب ببناء عاصمة جديدة لكل دولة مستحدثة. حدث هذا بالنسبة لدولة بورغواطة التي أسست مدينة شالة عاصمة لها. ودولة بني مدرار وعاصمتها مدينة سجلماسة ودولة بني رستم التي اتخذت من تاهرت عاصمة لها. كذا دولة الأغالبة التي أسس مؤسسها مدينة العباسية واتخذها عاصمة بدلا من القيروان. وثانيهما: حرص إدريس الأول على التحرر من سطوة أوربة؛ فلا أقل لذلك من مغادرة وليلى وإنشاء عاصمة جديدة. وإذ لم يقدر له الانتقال إلى فاس، فيعزى إلى انشغاله بالفتوح وخاصة في تلمسان التي استقر بها ثلاثة أعوام.

على كل حال ـ ينم اختيار موضع فاس عن حصافة ودهاء، فالمكان صالح للعمران؛ يجمع بين غزارة الماء ـ واد فاس(١٧) ـ واعتدال الهواء وتوافر مواد البناء من أحجار وأخشاب(١٨). هذا فضلا عن موقعها الاستراتيجي على الطريق الرابط بين السهول الأطلسية والمغرب الأوسط وأهميتها بالنسبة لتجارة السودان.

وبالنسبة لإقرار النظم المالية والإدارية، اتبع إدريس أصول الشريعة فيما يتعلق بالجبايات. وتأثر بالنظم الإدارية القديمة في تقسيم الدولة إلى عمالات(١٩).

---

(١٦) راجع: محمود اسماعيل: مقالات في الفكر والتاريخ، ص٥٧، الدار البيضاء ١٩٧٩.
(١٧) ابن أبي زرع: ٣٣.
(١٨) نفسه: ٣٥، ٣٦.
(١٩) اسعادة الشيخ: المجتمع المغربي في عصر الولاة، رسالة ماجستير مخطوط.

وبرغم استئثاره بالحل والعقد استعان بعدد من الوزراء معظمهم من أوربة من أمثال عبدالمجيد بن مصعب وأخيه عمر وراشد بن مرشد[٢٠].

وهذا يعكس نفوذ أوربة باعتبارها العصبية المؤسسة؛ ذلك النفوذ الذي حاول إدريس التخفيف من حدته عن طريق الاستعانة بقبائل البربر الأخرى وخاصة زناتة. وبرغم نجاح إدريس الأول ـ إلى حد ما ـ في هذه السياسة ظلت قبائل البربر خصوصاً أوربة تشكل حجر عثرة أمام فرض هيمنة «المخزن». يفهم ذلك من نص أورده ابن حيان[٢١] على لسان الأدارسة المتأخرين حين قالوا: «فلما صار جدنا إدريس إلى البربر واستجار بهم؛ أجاروه، ووضعوا له من بلدهم فرصاً توسط له ما بينهم من الأحكام من غير أن يضبطهم ضابط السلطان».

أما عن تجييش الجيوش فقد اعتمد إدريس على سائر قبائل البربر في دولته. يقول ابن أبي زرع[٢٢] «وأخذ إدريس جيشا عظيما من وجوه قبائل زنانة وأوربة وصنهاجة وهوارة وغيرهم».

وبفضل هذا الجيش تمكن إدريس «من ضرب عصفورين بحجر واحد» ـ كما يقال ـ إذا تخلص من تآمر القبائل بأن صرف طاقاتها العسكرية في حروب خارجية كفلت له نوعا من السيادة عليها جميعا. هذا فضلا عما ترتب على الفتوحات من موارد مالية وعناصر سكانية ـ وخاصة من مغراوة وبني يفرن ـ استعان بها في موازنة نفوذ أوربة.

ونلاحظ أن توجهات إدريس الأول العسكرية انطوت لذلك على أهداف سياسية واقتصادية واجتماعية وإن غلفها المؤرخون ـ القدامى والمحدثون ـ بطابع

---

(٢٠) جوليان: ٥٨.
(٢١) المقتبس من أخبار أهل الأندلس: تحقيق شالميتا، ص٢٩٢، مدريد ١٩٧٩.
(٢٢) القرطاس: ٢٠.

الجهاد الديني. ويخيل إلينا أن إدريس الأول نفسه هو الذي أضفى هذا الطابع الديني ليكسب توسعاته نوعا من المشروعية. صحيح أنها أسفرت ـ ضمن ما أسفرت ـ عن «أسلمة» بعض العناصر الوثنية والنصرانية واليهودية في الجنوب؛ لكن معظم السكان في كافة الأقاليم التي فتحها كانت على دين الإسلام واعتنقت مذاهب خارجية واعتزالية.

لم يكن جزافا أن يوجه إدريس جيوشه للاستيلاء على مناطق ذات أهمية استراتيجية وثراء اقتصادي. ففي الجنوب توجهت إلى سهول تامستا الخصبة فضلا عن طريق تارودانت الذي ينطلق منها نحو ذهب السودان. كما توجهت إلى تلمسان ذات الأهمية التجارية والاستراتيجية أيضا؛ فهي تقع على طريق التجارة بين المشرق والمغرب وهي الثغر الأول للدفاع عن دولة الأدارسة ضد أخطار الأغالبة في إفريقية.

ومهما كان الأمر؛ قاد إدريس الأول جيشه نحو الجنوب حيث فتح مناطق مندلاوة ومديونة وفزارة وماسة وتادلا. يذكر ابن أبي زرع[٢٣] أن سكانها أسلموا طوعا أو كرها». وما يعنينا أنه تمكن من ضم أقاليم جديدة أخضعها لسلطة «المخزن» بعد أن كانت «سيبة» فضلا عن انتزاع بعض أراضي بورغواطة التي كانت قد أقامت دولتها في العقد الثالث من القرن الثاني الهجري. ويخطىء المؤرخون[٢٤] الذين ذهبوا إلى أن «إدريس فتح معاقلها وأسلم جميع أهلها على يديه». وهو قول خاطىء اللهم إلا إذا كان القائلون به يعتبرون البورغواطيين هراطقة. وقد فندنا هذا الزعم من ناحيتين: الأولى؛ أن بورغواطة كانت على

---

(٢٣) القرطاس: ٢١.

(٢٤) نفسه: ٢٠.

المذهب الخارجي الصفري[٢٥]. والثانية أن حملة إدريس لم تنجح في ضم ديارها حيث أستأسد البورغواطيون في الحفاظ على استقلالهم[٢٦].

توجه إدريس الأول بعد ذلك إلى منطقة تازا ذات الأهمية الاقتصادية والاستراتيجية أيضا. ففضلا عما قيل عن مناجمها الغنية بالذهب، يعتبر ممرها الطريق الجنوبي الوحيد إلى المغرب الأوسط والرابط كذلك بين الأراضي الواقعة على ضفتي المرتفعات الأطلسية. وإذ قدر لإدريس نشر الإسلام بين بعض العناصر النصرانية في المنطقة؛ فالثابت أن سكانها من البربر كانوا مسلمين على مذاهب «المعتزلة والروافض والجبرية» ممن اعتبرهم البكري[٢٧] أهل بدع وضلالة.

توجه إدريس الأول بعد ذلك لفتح تلمسان، ذات الأهمية الاقتصادية والاستراتيجية التي أوضحناها سلفا. ولم تواجه جيوشه لأيا في ضمها نظرا لأن الكثيرين من سكانها كانوا على المذهب الزيدي من ناحية ولأن قبائل مغراوة وبني يفرن الزناتية رحبت بزناتة المغرب الأقصى - التي اندرجت في جيش إدريس - من ناحية أخرى. تذكر المصادر[٢٨] أن إدريس حين نزل خارج المدينة أتاه أميرها محمد بن خزر المغراوي وبايعه «فدخل إدريس تلمسان واستقامت بها إمارة المغرب».

وهذا النص بالغ الأهمية في الدلالة على ما أضافه إدريس إلى دولته من إقليم غني بموارده المادية والبشرية، تلك التي استعان بها لدعم دولته الفتية. هذا

---

(٢٥) راجع: محمود إسماعيل: مغربيات، ص ١٣ وما بعدها.
(٢٦) نفسه: ٣٢.
(٢٧) المغرب: ٦٥.
(٢٨) ابن أبي زرع: ٢٠، السنوسي: ٤٦.

فضلا عن أهميتها بالنسبة «للمشروع» الإدريسي التوسعي شرقا نحو إفريقية ومن بعدها مصر. وهذا يفسر لماذا ظل إدريس مقيما بها قرابة أعوام ثلاثة.

ويبدو أن استيلاء إدريس الأول على تلمسان «باب إفريقية» أدخل الهلع في قلوب العباسيين وعمالهم في إفريقية. ونظرا لاضطراب أمورها آنذاك وافتقار العباسيين - المشغولين آنذاك بالمشكلات المشرقية - إلى أسطول في البحر المتوسط يمكنهم من نقل الجيوش للقضاء على دولة إدريس؛ لجأ الخليفة هرون الرشيد إلى الحيلة في التخلص من إدريس بالتواطؤ مع إبراهيم بن الأغلب عامله على بلاد الزاب.

ودون خوض في التفصيلات المعروفة في هذا الصدد استشار الرشيد وزيره يحيى البرمكي؛ فأشار عليه بإنفاذ سليمان بن جرير المعروف بالشماخ إلى المغرب لاغتيال إدريس[٢٩]. وقد نجحت المؤامرة وتم اغتياله سنة ١٧٧هـ.

لكن الدولة التي وطد إدريس الأول دعائمها صمدت في وجه التآمر العباسي الأغلبي - إذ قادها المولى راشد حتى ولدت جارية لإدريس ولدا له هو إدريس الثاني. وقد تعهده راشد بالوصاية حتى قدر لإبراهيم بن الأغلب اغتيال راشد. وبالمثل صمدت دولة الأدارسة؛ حين خلف خالد بن إلياس العبدي المولى راشد في الوصاية على إدريس الثاني حتى شب عن الطوق وتولى سياسة دولته.

الخلاصة - أن تأسيس دولة بني إدريس لم يكن حدثا عفويا، بل كان تتويجا لنضال الشيعة الزيدية في الشرق ودعوتهم التي احتوت دعوة المعتزلة في المغرب. وإذا كانت الإديولوجية الزيدية - الاعتزالية قد شكلت الدعوة؛ فإن قبيلة أوربة

---

(٢٩) الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب، ص ٢١٤، تونس ١٩٦٩.

شكلت العصبية التي اتحدت طموحاتها مع أهداف الدعوة في إقامة دولة الأدارسة.

أما عن تطور دولة الأدارسة منذ عهد إدريس الثاني وحتى نهايتها سنة ٣٧٥هـ؛ فهو ما سنعرض له بالدراسة المفصلة في المبحث التالي.

الباب الثاني
سياسة الإدارة الداخلية

تكتسي دراسة هذا الموضوع أهمية خاصة لعاملين أساسيين. أولهما: أنه رغم ما كتب عن الأدارسة فإن دراسة الأوضاع الداخلية بدولتهم اتسمت بالسطحية والسرد الوصفي في أغلب الأحيان. وهذا راجع إلى ندرة المعلومات بالحوليات التي عرضت للموضوع باقتضاب معالجة سيرة كل حاكم على حدة، مترجمة لحياته وأخلاقه وأهم أحداث عهده وما شابه. ومعظمها نسج على غرار ما كتبه ابن أبي زرع؛ وهو مؤرخ منقبي متعاطف مع الأدارسة إلى أبعد الحدود. إذ يتفنن في ذكر فضائلهم ومناقبهم ويغض الطرف عن مثالبهم.

وقد أمكن تدارك هذا النقص بالرجوع إلى كتب الجغرافيين والرحالة؛ كذا كتب الملل والنحل التي تحوي معلومات ضافية عن العصبيات والإثنيات والمذاهب والطوائف.

وثانيهما: خطأ التفسيرات المتعلقة بسياسات الأدارسة الداخلية؛ حيث تبرز الرؤى العصبية والبيولوجية والإقليمية والأخلاقية، فضلا عن تضخيم دور المؤثرات الخارجية في صياغة الأحداث والوقائع الداخلية. ويكمن هذا الخطأ في النظر إلى المظاهر باعتبارها عللا وأسبابا. ونحن نرى أن هذه المظاهر تفسر في إطار الواقع الاقتصادي - الاجتماعي الذي أفرزها؛ مع التسليم بفعالية تأثيراتها في عصور التدهور والانحطاط حيث تختلط الأسباب بالمسببات. وقد فطن العلامة ابن خلدون إلى ذلك حين طرح مفهومه عن العصبية والدولة. العصبية عنده قوة اقتصادية وكثرة بشرية تتبلور بفضل الدعوة المذهبية. هذا ما أثبتناه في دراسة

سابقة تغني عن اللجاج[1].

وبتطبيق هذه الرؤية على ماجريات التاريخ السياسي الداخلي لدولة الأدارسة نجد أن قوة الدولة تتمثل في التوافق بين الإديولوجية المذهبية وطموحات العصبية المؤسسة. فطالما حدث الانسجام والتوافق أمنت الدولة من أخطار العصبيات والطوائف. وحين يقع التعارض تتفاقم هذه الأخطار وتعجز الدولة عن مواجهتها.

وعلى ذلك يمكن تقسيم تاريخ الأدارسة إلى طورين متميزين: طور الازدهار، ويمثل عهود إدريس الأول والثاني ومحمد بن إدريس. وإبانه تمثلت قوة الدولة في جهاز سياسي وإداري وجبائي وجيش قوي وعاصمة مركزية تسيطر على كافة أقاليم الدولة، وتوجه طاقات سكانها إلى استغلال المقدرات الاقتصادية، كما توجه الإديولوجية المذهبية لتكريس الوئام والوفاق بين كافة الإثنيات والطوائف. حتى إذا ما بدأت حركات الانتزاء ضد «المخزن» كانت تقمع في مهدها، وتستثمر طاقاتها العسكرية خارج الحدود. وحسبنا دليلا على قوة الدولة إبان هذه الحقبة أن الأدارسة أنفسهم كانوا عربا وسط بحر من البربر[2]، كما كانوا شيعة زيدية يحكمون حشدا من عناصر شتى ذات مذاهب مغايرة خارجية وسنية واعتزالية.

كانت قوة الدولة الإدريسية إبان هذه الحقبة ترجمة للمقدرات الاقتصادية والبشرية الهائلة، الأمر الذي يبرز قيمة التفسير السوسيو-إقتصادي. إذ حقق الأدارسة لأول مرة في تاريخ المغرب الأقصى دولة «المخزن» بما تعنيه من وجود

---

(١) راجع: محمود إسماعيل: سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، جـ ١، الدار البيضاء، ١٩٨٠.
(٢) هوبكنز: النظم الإسلامية في المغرب، ص ٣٨، تونس ١٩٨٠.

حاكم قوي يستشير مجلسا من الفقهاء والعلماء وشيوخ القبائل ويأتمر بأمره جهاز تنفيذي إداري ومالي وقضائي وعسكري[٣]. وبرغم بساطة النظم الإدارية في عهد إدريس الأول؛ إلا أنها تطورت في عهد إدريس الثاني مفيدة من التأثيرات الشرقية والأندلسية؛[٤] بحيث كفلت إقرار هيبة الدولة داخل كافة أقاليمها.

أما الطور الثاني؛ فيشمل عهود خلفاء محمد بن إدريس حتى سقوط الدولة سنة ٣٧٥هـ. ومن سمات هذه الحقبة ضعف سلطة «المخزن» واتساع رقعة «السيبة» - أي الأقاليم التي لا تخضع لسلطة الدولة - كذا اضمحلال النظم والرسوم نتيجة عجز العاصمة المركزية. وحسبنا أنها شهدت مزيدا من الصراع بين أفراد الأسرة الإدريسية بعد تقسيم الدولة إلى كيانات إقطاعية بين الإخوة والأبناء. ومحاولة كل أمير أن يوسع «مخزنه» على حساب أمراء فاس من ناحية وعلى حساب جيرانه من ناحية أخرى.

ونجم عن ذلك سفور السخائم الإثنية والمذاهب الطائفية لتتفجر الخلافات وتندلع الصراعات ضد السلطة المركزية وضد الكيانات الإقطاعية الإدريسية أيضا. وأدى ذلك إلى تكوين كيانات عنصرية وطائفية وتجمعات محلية وإقليمية. الأمر الذي فت في قوة «المخزن» وفتح الباب على مصراعيه للأطماع الأجنبية الفاطمية والأندلسية.

ونحن نرد كل هذه الظاهرات إلى إجهاض الصحوة البورجوازية التي أفرزت طور القوة وعودة الإقطاعية - بما تعنيه من تشرذم وتجزئه - وإحياء النعرات الإثنية والنزعات الطائفية.

---

(٣) محمد حباني: خصائص المدن المغربية في عصر الدول المستقلة - رسالة ماجستير، ص ٢٩٢.
(٤) نفسه: ٢٩٣.

وحسبنا أن تاريخ الأدارسة خلال الحقبتين كان مرتبطا بتطورات عامة في العالم الإسلامي كله تتلخص في الصراع بين البورجوازية والإقطاع[٥].

فلنحاول رصد الأوضاع الداخلية في الدولة الإدريسية خلال طوري الازدهار والانهيار.

---

(٥) راجع: محمود إسماعيل: مقالات في الفكر والتاريخ، ص ٥٨، الدار البيضاء ١٩٧٩.

الفصل الأول

طور الازدهار (١٧٢ - ٢٢١هـ)

يرتبط تاريخ هذه الحقبة بمعطيات صحوة بورجوازية سادت المغرب الأقصى بل العالم الإسلامي برمته حتى العقد الثالث من القرن الثاني الهجري.

ومن أبرز ملامح هذه الصحوة في دولة الأدارسة؛ وضع حد لسياسة الابتزاز الاقتصادي الذي تعرضت له البلاد على يد عمال الخلافة الشرقية، والتي أسفرت عن ردود فعل تحررية خارجية أسهمت بدورها في خراب المغرب الأقصى اقتصاديا؛ خاصة في الأقاليم التي لم تندرج في دوله المستقلة بنكور وشالة وسجلماسة. تلك الأقاليم التي شهدت «فراغا سياسيا» جرى ملؤه بقيام الدولة الإدريسية سنة ١٧٢هـ.

كان قيام دولة الإدارسة - في حد ذاته - تعبيرا عن معطيات الصحوة البورجوازية في المغرب الكبير الذي ترجم هذه الصحوة إلى تأسيس دول مستقلة عن الخلافة في الشرق[١].

وليس أدل على «تبرجز» الدولة الإدريسية اقتصاديا من ذيوع الملكية الفردية خصوصا في المدن وأرباضها وضواحيها. ولدينا في هذا الصدد نصوص جد

---

(١) نفسه: ٥٩.

هامة. منها إشارة ابن أبي زرع[٢] إلى شراء فاطمة الفهرية موضع جامع القرويين من بعض الخواص. ومنها شراء إدريس الثاني موضع ربض القرويين بفاس من بعض قبائل البربر الضاربة في الإقليم. كذا إعلان إدريس الثاني أن «من أصلح أرضا وغرسها فهي له»[٣]. كما لدينا من القرائن ما يثبت انسحاب ظاهرة الملكية الفردية خارج فاس؛ وخاصة في الأراضي المجاورة لوديان الأنهار كحوض سبو على سبيل المثال[٤].

وإذا كانت الملكية الجماعية تسود مضارب القبائل[٥]؛ إلا أنها لم تكن بمنأى عن نفوذ «المخزن» الذي سمح بتواجدها نظير ما يدفعه أصحابها من خراج للدولة[٦]. وحسبنا أن المخزن كان مناطا بأمور السقاية والصيانة وغيرها من المرافق[٧].

ومعلوم أن ذيوع الملكية الفردية سمة هامة من سمات نمط الإنتاج البورجوازي؛ وهو أمر أكده أحد الباحثين[٨] الثقاة فيما يتعلق بدولة الأدارسة.

كما أن شيوع ظاهرة «المؤاجرة»[٩] قرينة أخرى على سيادة هذا النمط الذي يدل عليه تعاظم الإنتاج الزراعي لا للاستهلاك فقط بل للسوق أيضاً. ومن مظاهر هذا التعاظم - الذي أفاد من خبرات العناصر الشرقية والأندلسية الوافدة -

---

(٢) القرطاس: ٥٤.
(٣) نفسه: ٣٩.
(٤) محمد حباني: المرجع السابق: ٢٩٩.
(٥) ابن حوقل: ١٠٠.
(٦) نفسه: ٨٨، ٩٠.
(٧) محمد حباني: ٢٩٨.
(٨) انظر: الحبيب الجنحاني: المغرب الإسلامي، ص ١٧٣، تونس ١٩٧٨.
(٩) هوبكنز: ٧٧.

رخص الأسعار[10] التي أمدنا ابن أبي زرع بمعلومات ضافية عنها سنثبتها في موضعها. كما أمدنا بمعلومات مماثلة عن زراعة محاصيل خاصة للتصدير كالقطن والنيلج حيث كانت الأرض تسقى بالري الصناعي. ومعلوم دور الفرس في هذا الصدد في سائر دول الغرب الإسلامي[11].

وبالمثل شهد قطاع الرعي تطورا هاما. وحسبنا أن مراعي المغرب الأقصى التي تهددتها أخطار سياسة عمال بني أمية الذين كانوا يبقرون بطون الأغنام بحثا عن الجزة الذهبية؛ أصبحت قادرة على الإنتاج الحيواني الوفير. ليس أدل على ذلك مما روي عن أسواق أغمات التي كان يذبح بها مائة ثور وألف شاة كل أسبوع[12]. ناهيك عن وفرة الألبان ومنتجاتها في سائر أقاليم المغرب الأقصى[13].

ونجم عن الازدهار الزراعي والرعوي ظاهرة اجتماعية جد هامة هي استقرار الكثير من القبائل البدوية مودعة حياة الظعن والانتجاع[14] خاصة بعد أن اتبع الأدارسة الأوائل سياسة جبائية عادلة حسب الشريعة[15].

وازدهرت الصناعة كذلك في ظل الأدارسة الأوائل بفضل استغلال المناجم التي احتكر المخزن بعضها ـ كمناجم الفضة ـ وأوكل معظمها ـ كمناجم النحاس ـ إلى الأفراد والجماعات لاستغلالها مقابل ركاز يقدر بخمس الإنتاج حسب الشريعة

---

(١٠) البكري: ١٦٠.

(١١) ابن حوقل: ٩٦.

(١٢) البكري: ١٠٠.

(١٣) نفسه: ١٥٣.

(١٤) عبدالكريم بيصعين: ٥٩.

(١٥) محمد حباني، ٤٠٨.

أيضا. وأدت هجرة الكثيرين من حرفي الشرق والأندلس إلى دولة الأدارسة إلى تحسين وسائل الإنتاج[١٦].

وهذا يفسر وفرة وجودة المصنوعات سواء للاستهلاك أو للتصدير. ومن أهم السلع المصدرة ـ وخاصة إلى بلاد السودان ـ الجلود التي اشتهرت بها فاس وأغمات والأدوات الخشبية التي أنتجتها بلاد الريف[١٧]. وكانت الأندلس تستورد الأخشاب من بلاد المغرب الأقصى دون تصنيع لاستخدامها في بناء السفن[١٨]. وليس أدل على ازدهار الصناعات والحرف من ذيوع ظاهرة التخصص وظهور «الأصناف» في المدن الهامة كفاس[١٩].

بديهي أن تروج التجارة الداخلية والخارجية نتيجة للازدهار الزراعي والرعوي والصناعي. فضلا عن إقرار الأمن وصيانة الطرق[٢٠]، الأمر الذي شجع حركة التجارة الداخلية في الأسواق الموسمية والدائمة وحقق وحدة اقتصادية متكاملة وانصهاراً اجتماعياً متجانساً، فاختفت النزعات الإقليمية والإثنية والمذهبية. كما راجت التجارة الخارجية خاصة مع بلاد السودان حيث الذهب والرقيق[٢١]. الأمر الذي قوى من قبضة المخزن نتيجة حصيلة الضرائب والمكوس. كما ازدهر النشاط الحضري والعمراني والديموغرافي؛ الأمر الذي أسهم في قوة الدولة الإدريسية.

---

(١٦) عبدالكريم بيصعين: ٥٩.
(١٧) البكري: ٩٠.
(١٨) عبدالكريم بيصعين: ٥٧.
(١٩) الحبيب الجنحاني: المغرب الإسلامي: ٣٠٣.
(٢٠) عن الطرق الداخلية؛ راجع البكري: ٨٨ وما بعدها.
(٢١) لومبار: المذهب الإسلامي منذ القرن الثامن حتى القرن الحادي عشر الميلادي، فصل من كتاب: بحوث في التاريخ الاقتصادي، ص٥١ وما بعدها، القاهرة ١٩٦١.

فنحاول رصد وتحليل أحداث طور الازدهار في تاريخ الأدارسة الداخلي في ضوء هذه الصحوة البورجوازية.

بديهي أن تسفر الصحوة البورجوازية سياسياً عن مزيد من سطوة وهيبة الدولة المركزية. وبرغم ضآلة المعلومات؛ نستطيع أن نرجح تطور نظم «المخزن» في عهد إدريس الثاني بعد أن استنها إدريس الأول منذ مستهل عهده. وقد أشرنا سلفاً إلى إقرار وترسيخ تقاليد البلاط ورسوم الوزارة والإدارة ونظم القضاء والجباية والجيش[٢٢]. كما أشرنا إلى هيبة العاصمة فاس باعتبارها مقر الحكم ومناط السلطان. ومنها كان الأدارسة ينفذون ولاتهم وعمالهم إلى سائر الأقاليم ينفذون مشيئة الأئمة ويضبطون الثغور ويحمون الحدود والتخوم.

ومن القرائن الدالة على هيبة «المخزن»، سريان عملة الأدارسة في سائر ربوع دولتهم[٢٣]، وحلول المقابضة محل المقايضة.

لذلك لم يقع ما من شأنه تعكير صفو السياسة العامة للمخزن، فبرغم اعتماده على قبيلة أوربة كعصبية مؤسسة؛ لم يأل جهداً في إيلاف كافة القبائل والإثنيات. وحسبنا إجماع سائر البربر - كزواغة وزواوة ولماية وسدراته وزناتة وغياتة ونفزة ومكناسة وغماره - على مبايعة الأدارسة الأوائل «للقيام بأمرهم وصلاتهم وغزوهم وأحكامهم»[٢٤].

وقد شجع هذا الاستقرار السياسي على وفود عناصر جديدة من بربر وعرب الأندلس وعرب وفرس إفريقية والمشرق للإقامة في كنف الدولة

---

(٢٢) هوبكنز: ٤٨، ٨٦٩
(٢٣) راجع: Eustache: Op. Cit. p.p. 25,27.
(٢٤) ابن أبي زرع: ٢٧.

الإدريسية. وبرغم الاختلافات المذهبية بين هذه العناصر؛ دانت بالطاعة والولاء. وبالمثل لم يظهر الأدارسة الأوائل تشيعهم الزيدي على حساب المذاهب الأخرى السنية والخارجية والاعتزالية.

ومن سمات قوة الدولة في تلك الحقبة استمرارها بعد اغتيال إدريس الأول. إذ آل الحكم إلى المولى راشد دونما معارضة تذكر. وظل راشد وصياً على إدريس الثاني حتى اغتياله دونما معارضة أيضاً. ثم آلت الوصاية على إدريس الثاني إلى عربي يدعى أبي خالد بن إلياس العبدي حتى شب إدريس الثاني عن الطوق وباشر الحكم بنفسه دون معارضة من قبائل البربر. بل إن سائر القبائل أجمعت على بيعته سنة ١٨٨هـ ـ كما أوضحنا سلفاً ـ «فقويت جنوده وأشياعه وكثرت جيوشه وأتباعه»[٢٥].

واصل إدريس الثاني سياسة أبيه في تقوية قبضة «المخزن» في الداخل والتوسع في الخارج؛ مؤزراً بقوة البربر أولاً ثم العناصر العربية الوافدة من إفريقية والأندلس بعد ذلك. ونحن لا نرى رأي القائلين بترحيب إدريس الثاني بهذه العناصر «لغربته في بلاد البربر» بقدر ما نؤكد حرصه على الإفادة منها في جهاز الحكم وأمور العمران.

وبرغم اعتماد إدريس الثاني على العرب الوافدين[٢٦]، وبرغم ما سببه ذلك من إثارة حفيظة البربر، استطاع أن يوازن بين القبائل فاستمال زناتة ضد أوربة بعد أن تمكن من رأب الصدع داخل القبائل الزناتية نفسها[٢٧]. كما فتح الباب

---

(٢٥) نفسه: ٢٨.
(٢٦) نفسه: ٢٩.
(٢٧) نفسه: ٣١.

على مصراعيه لكافة العناصر الأخرى من فرس وعرب ليأمن غائلة زناتة إذا ما أزمعت العصيان. وبالمثل أفاد من جهود اليهود والنصارى في المجال المالي والعمراني[٢٨].

هكذا نجح إدريس الثاني بفضل دهائه السياسي أن يلعب لعبة الموازنة باقتدار مكرساً جهود كافة القوى الداخلية لتأكيد هيبة المخزن. وقد تجلى ذلك فيما وصلت إليه مدينة فاس من بهاء وازدهار في عهده حتى غدت قبلة للمشارقة والمغاربة والأندلسيين[٢٩].

على أن اهتمام إدريس الثاني بخاضرته الجديدة بعد الانتقال إليها آثار سخط أوربة التي راعها إنتقال العاصمة من وليلى. لم يكن هذا الانتقال لأن «وليلى ضاقت بأهلها» كما ذكر ابن الخطيب[٣٠]. بل لرغبته في التحرر من نفوذ أوربة وذلك بمغادرة مضاربها. وبالمثل نرى أن سخط أوربة لا يرجع إلى أسباب عنصرية كامنة في استعانة إدريس الثاني بالعرب بقدر ما يرجع إلى تخلي إدريس الثاني - لأسباب سياسية - عن سياسة العدل والمساواة التي حرص والده على إقرارها. يفهم ذلك من نص لابن أبي زرع[٣١] يفسر سخط أوربة «بإغداق إدريس الثاني على العرب؛ وتقريبهم ورفع منازلهم وجعلهم بطانته دون البربر». وفي ذلك ما يؤكد أهمية الدوافع الاقتصادية وإن اتخذت لبوساً عنصرياً.

ولما كانت أوربة عاجزة عن مناجزة إدريس علانية؛ عبرت عن سخطها عن طريق المؤامرات والمكائد. وتمثل كيدها في محاولة الحؤول دون عمران فاس

---

(٢٨) نفسه: ٣٧.
(٢٩) نفسه: ٣٩.
(٣٠) أعمال الأعلام: ٣: ١٩٨.
(٣١) القرطاس: ٣٠.

فكانت «تهدم ليلاً ما كان يبنى بالنهار وحمل ما حوله من خيام العرب»[٣٢]. وهذا يفسر حرص إدريس على البدء بتشييد سور المدينة ليتجنب مكائد أوربة في تعويق حركة البناء.

ومن أجل ذلك أيضاً درج على اتباع «سياسة الموازنة» التي أجادها؛ إذ استغل العداء بين صنهاجة ولواتة ومصمودة وبين أوربة[٣٣] فاعتمد عليهم في وضع حد لمكائدها حتى تمكن من إتمام بناء فاس. وليس أدل على خشية إدريس من البربر من إقامته وجهازه الإداري بعدوة الأندلسيين، بينما أوطن مواليه وحشمه في عدوة القرويين «لموازنة» قوة البربر الساكنين بها[٣٤].

وبرغم هذه الإجراءات؛ لم تكف أوربة عن التآمر، حتى أن إدريس الثاني ندد بها في إحدى خطبه بعد بناء فاس حيث دعى الله أن «يغمد عن سكانها سيف الفتنة والشقاق والنفاق»[٣٥].

لكن أوربة واصلت مكائدها؛ ومن ثم تفجر الصراع بينها وبين إدريس الثاني. والمصادر تلوذ بالصمت عن ماجريات ووقائع هذا الصراع. ونرى أن جذور السخط الأوربي على المخزن الإدريسي تمتد إلى عهد إدريس الأول. فبرغم دورها في إقامة الدولة كعصبية مؤسسة لم تتحقق طموحاتها في مكانة متفوقة. ونعلم أن إدريس الأول رغم تعيينه وزراء من أوربة؛ حاول فل شوكتها بالاعتماد على زناتة. ونفس السياسة عول عليها إدريس الثاني - كما ذكرنا سلفاً - مما زادها تبرماً وسخطاً. خاصة بعد أن أسفر إدريس عن تشيعه الزيدي واضعاً بذلك حداً للوفاق الزيدي - الاعتزالي.

---

(٣٢) نفسه: ٤٦.
(٣٣) نفسه: ٤٣.
(٣٤) نفسه: ٤٦.
(٣٥) نفسه: ٤٩.

وإذ فشلت أوربة في الحؤول دون عمران فاس وانتقال إدريس الثاني إليها مستعيناً بالعرب وقبائل البربر المعادية؛ لم تجد مناصاً من التآمر مع الأغالبة. خاصة وأن الأخيرين ذوي باع طويل في تدبير المكائد ضد الأدارسة. وساعد على ذلك ما جرى في دولة الأغالبة على عهد زيادة الله بن الأغلب من جعل الاعتزال مذهباً رسمياً في إفريقية(٣٦).

لذلك لم يجد إدريس الثاني بداً من وضع حد لمؤامرات أوربة؛ إذ باغتها باغتيال زعيمها إسحق بن عبدالحميد؛ فاضطرت للرضوخ صاغرة.

على أن تآمر أوربة شجع قبيلة مطغرة الصفرية على اتباع ذات الأسلوب. فبرغم استمالة إدريس الثاني زعيمها بهلول بن عبد الواحد واتخاذه وزيراً؛ قلبت له ظهر المجن. ويرجع ذلك كذلك إلى سياسة المحاباة التي اتبعها إدريس الثاني بتقريب العناصر العربية والتخلي عن سياسة العدل والمساواة إلى سياسة «الموازنات» العنصرية والحيل السياسية، فضلاً عن إظهار تشيعه وإقدامه على التنكيل بالخوارج الصفرية.

لذلك عقدت مطغرة العزم على الثورة متواطئة في ذلك مع دولة بني مدرار. لكن انشغال المدراريين بمشكلاتهم الداخلية(٣٧)، جعلها تولي وجهها شطر الأغالبة. ويبدو أن إدريس الثاني كشف عن المراسلات المتبادلة بين الطرفين في هذا الصدد. لذلك أثخن في مطغرة قتلا وسبيا، فاضطر زعيمها إلى اللجوء بمن معه إلى إفريقية الأغلبية.

إن اتخاذ حركات المعارضة ضد إدريس الثاني صورة التآمر والتخابر مع قوى خارجية دليل واضح على ضعفها وهزالها. وينم نجاح إدريس في القضاء

---

(٣٦) راجع: الفصل الخاص بالعلاقات الإدريسية ـ الأغلبية.

(٣٧) راجع: محمود إسماعيل: الخوارج، ص١٢٥ وما بعدها.

على المتآمرين والتنكيل بقبائلهم عن قوة الدولة وقدرتها على مواجهة الانتزاءات الإثنية والطائفية.

على أن تفاقم هذه الأخطار دفع إدريس الثاني إلى تعميق سياسة «التوازن القبلي»؛ وذلك بإثارة السخائم العصبية بين البربر والإفادة من نشوبها في تأكيد هيبة المخزن. في هذا الإطار يمكن تفسير ما أقدم عليه من «زواج سياسي» حين اختار زوجته التي أنجب منها ابنه محمد[٣٨] من قبيلة نفزة. وقد نجحت هذه السياسة في وضع حد للمؤامرات داخل دولة الأدارسة حتى وفاة إدريس الثاني سنة ٢١٣هـ.

ويبدو أن المعارضة البربرية انتهزت فرصة وفاة إدريس الثاني وعادت للسفور. لذلك عول محمد بن إدريس على اتباع سياسة جديدة تضمن وضع حد للقوى المناوئة من البربر والعرب على السواء. وتكمن هذه السياسة في إسناده حكم الولايات إلى إخوته. تذكر المصادر[٣٩] أن جدته كنزة هي التي أشارت عليه بذلك. وأياما كان الأمر فقد أخطأ الدارسون الذين رأوا في اتباع هذه السياسة «تقسيما» للدولة الإدريسية. والصواب - فيما نرى - أنها محاولة لإقرار نظام لامركزي بعد أن أثبتت المركزية في عهدي والده وجده استحالة السيطرة على أقاليم شاسعة تسودها البنى القبلية. لقد استهدفت السياسة الجديدة على حد قول باحث ثقة[٤٠] «تقوية الأسرة الإدريسية بأن تكون الولايات والقيادات العسكرية بين أيدي أفرادها». وهو أمر كفيل بتحقيق غايتين؛ الأولى: وضع حد

---

(٣٨) ابن أبي زرع: ٥١.

(٣٩) ابن الآبار: الحلة السيراء، جـ١، ص ١٣١، القاهرة ١٩٦٣، ابن أبي زرع: ٥١، ابن خلدون: ٤: ٤.

(٤٠) انظر: سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق، ص ٤٤٤.

لصراع العصبيات حول المناصب القيادية في الدولة الإدريسية. والثانية إحكام الهيمنة على مضارب القبائل بعد تطاول بعضها وانتزائها على المخزن.

لذلك جرى تعيين إخوة محمد بن إدريس على الولايات على النحو التالي: تولى القاسم بن إدريس طنجة وسبتة وحجر النسر وتطاون وبلاد مصمودة وما والى ذلك من القبائل. وتولى داود بن إدريس بلاد هواره وتسول ومكناسة وجبال غياثة وتازا. أما عيسى بن إدريس فقد نيط بولاية شالة وسلا وأزمور وتامسنا وما والى ذلك من القبائل. وتولى يحيى بن إدريس مدينة البصرة وأصيلا والعرائش إلى بلاد ورغه. أما عمر بن إدريس فقد عين واليا على تيجساس وتدغة وبلاد صنهاجة وغمارة وما والاها. وتولى أحمد بن إدريس مدينة مكناسة وبلاد فازاز ومدينة تادلة. أما عبدالله بن إدريس فقد نيط بولاية أغمات ونفيس وبلاد المصامدة والسوس. وأخيرا تولى حمزة بن إدريس تلمسان وأعمالها. وأقام محمد بن إدريس في فاس حاضرة[41] الدولة.

لم تكن تلك السياسة الجديدة سوى إقرار تنظيم إداري جديد بعد أن اتسعت الدولة بعد فتوحات إدريس الثاني لتضم أقاليم جديدة كبلاد تامسنا التي انتزعت من بورغواطة وبلاد تلمسان التي استردت من آل سليمان. وهذا يعني أن هذه الولايات جميعا رغم تمتع ولاتها بصلاحيات إدارية وعسكرية؛ كانت تتبع الحكم المركزي بفاس. وقد كفل هذا التنظيم الإداري الجديد هيمنة فاس على مضارب القبائل ومد نفوذ المخزن إلى البوادي. وهذا ما يعنيه نص ابن أبي زرع الذي يردف المدن والأقاليم التي تولاها كل والٍ من الأسرة الإدريسية بعبارة «وما والاها من القبائل».

---

(٤١) ابن أبي زرع: ٥١.

وبالفعل استقامت أمور الدولة في عهد محمد بن إدريس؛ فكف البربر عن التطاول والانتزاء؛ في ذات الوقت الذي كفل فيه التنظيم الجديد ولاء أفراد الأسرة الإدريسية لأخيهم الأكبر محمد بن إدريس بفاس. وقد فطن ابن أبي زرع[٤٢] إلى مزايا الحكم الجديد بقوله: «فأقاموا على بلاد المغرب وضبطوا ثغورهم وحكموا بلادهم وأمنوا سبلهم».

وبرغم نجاح هذه السياسة في ضبط العصبيات المختلفة داخل الدولة والحيلولة دون تمردها وتطاولها على المخزن؛ إلا أنها فجرت خطرا جديدا تمثل في الصراع بين أفراد الأسرة الإدريسية. وإذ نجح محمد بن إدريس في وأد هذا الخطر إبان حكمه؛ فإنه تفاقم في عهود خلفائه ليسهم - ضمن أخطار أخرى - في انهيار دولة الأدارسة كما سنلاحظ في المبحث التالي.

بدأت ظاهرة الصراع بين آل إدريس بخروج عيسى بن إدريس على أخيه محمد بفاس معلنا استقلاله التام بولايته[٤٣]. ولم يجد محمد بن إدريس مناصا من تكليف أخيه القاسم بطنجة ليكفيه مؤنة قتاله. فلما رفض أوكل المهمة لأخيه عمر صاحب تيجساس وبلاد غماره. وتمكن الأخير استنادا إلى عسكر من غمارة وأوربه وصنهاجة فضلا عن جيش من زناته أنفذه محمد بن إدريس؛ من قمع الانتزاء. وكافأه أخوه محمد على ذلك بأن ضم إليه ولاية أخيه الغنية بمقدراتها الاقتصادية الزراعية والتجارية[٤٤].

وبديهي أن يشرع محمد بن إدريس في تأديب أخيه القاسم الذي رفض الانصياع لأمره في قمع التمرد. وأسند المهمة كذلك لأخيه عمر الذي تمكن من

---

(٤٢) نفس المصدر والصفحة.

(٤٣) نفسه: ٥٣.

(٤٤) ابن الآبار: ١: ١٣٢.

هزيمته وضم بلاده إلى ولايته.

هكذا عبرت هذه الحركة عن حقيقتين هامتين: الأولى ما ترتب على سياسة اللامركزية من استشراء داء الصراع داخل الأسرة الإدريسية. والثانية قوة الدولة على عهد الأمير محمد بن إدريس الذي استطاع عن طريق القوة والسياسة مد سلطانه على سائر أقاليم الدولة الإدريسية.

دليلنا على ذلك استمرار هيمنة فاس على سائر ربوع دولة الأدارسة على عهد علي بن محمد بن إدريس الذي خلف أباه بعد موته سنة ٢٢١هـ[٤٥]. يفهم ذلك من قول ابن أبي زرع أنه «قمع الأعداء وضبط البلاد والثغور»[٤٦].

كما يفهم من هذا النص أيضا أن عوامل الضعف والانهيار بدأت تطل برأسها من جديد سواء في تفاقم ظاهرة الصراع الأسري أو في إحياء الانتزاءات العصبية والطائفية ومؤامرات «الأولياء والحاشية وصنائع الدولة»[٤٧].

إذ بعد وفاة علي بن محمد خلفه أخوه يحيى الذي أخل بسياسة التوازن بين العصبيات حين اعتمد على العناصر العربية الوافدة من إفريقية والأندلس[٤٨]؛ مثيرا بذلك سخط البربر. وانتهز حكام الولايات الفرصة للاستقلال بأقاليمهم والصراع بين بعضهم البعض. وفي ذلك يقول ابن حيان[٤٩]: «فاختلفوا وتقاطعوا وتفرقوا أوزاعا».

---

(٤٥) ابن أبي زرع: ٥٣، ابن الخطيب: ٣: ٢٠٧.
(٤٦) نفسه: ٥٤.
(٤٧) ابن خلدون: ٤: ٢٩.
(٤٨) ابن أبي زرع: ٥٣.
(٤٩) المقتبس، نشر شالميتا، : ٢٦٢.

وبديهي أن تنتهز بورغواطة الفرصة؛ فتنجح في استرداد ديارها[٥٠] الغنية الأمر الذي أضعف الدولة الإدريسية ومهد لظهور الأخطار الخارجية الفاطمية والأندلسية.

لقد انتكست الصحو البورجوازية التي تفسر عصر القوة والازدهار في تاريخ الأدارسة وعادت الإقطاعية لتقود هذا التاريخ إلى الضعف والانهيار. وهو ما سنعالجه في المبحث التالي.

---

(٥٠) محمود إسماعيل: مقالات، ص ٥٨.

الفصل الثاني

طور الانهيار (٢٢١ - ٣٧٥هـ)

إنتهينا إلى ارتباط طور القوة والتوسع في تاريخ الدولة الإدريسية بالصحوة البورجوازية. ولنحاول إثبات ارتباط طور الضعف والانهيار بسيادة النمط الإقطاعي.

من أهم الشواهد في هذا الصدد أن الإقطاعية المرتجعة ظاهرة شملت العالم الإسلامي بأسره حول منتصف القرن الثالث الهجري؛ كما أثبتنا في دراسة سابقة[١]. وبرغم صعوبة الكشف عن معطياتها في مجتمعات المغرب الوسيط - لغلبة تأثير البنى القبلية[٢] - إلا أننا نرى أن هذه المجتمعات في صيرورتها التاريخية لا تنبو عن حركة تاريخ الشرق الإسلامي. ولدينا من القرائن ما يرجح ذيوع وسيادة الإقطاعية في الدولة الإدريسية حول منتصف القرن الثالث الهجري.

من هذه القرائن؛ تكوين الضياع الواسعة التي حازها التجار والحشم والأولياء على حساب الأراضي الخراجية[٣]. كذا انجاح الفرق المذهبية المتمردة

---

(١) عن العوامل الممهدة والأسباب الموضوعية للظاهرة؛ راجع: محمود إسماعيل: سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، جـ٢، ص ١٠ وما بعدها، الدار البيضاء، ١٩٨١.

(٢) راجع: الحبيب الجنحاني: المرجع السابق، ص٢٠٣.

(٣) محمود اسماعيل، سوسيولوجيا: ٢: ٣٣.

ضد الأدارسة في الاستقلال بممتلكاتها وزراعتها عن طريق العبيد والرقيق(٤). هذا بالإضافة إلى ما ترتب عن الحروب بين أفراد الأسرة الإدريسية وما نجم عن الحروب القبلية والعنصرية من استيلاء المنتصر على ممتلكات المهزوم؛ حتى غدى «قانون الغلبة» يشكل عصب نظام الملكية آنذاك.

وقد عول الأمراء الأدارسة المظفرين على إعادة توزيع أراضي خصومهم المغلوبين على الأبناء والأخوال والأعمام(٥) بعد أن استقلوا عن فاس تماما. حتى غدت ديارهم أشبه «بالكور المجندة» و«المدن المحصنة» المستقلة عن بعضها البعض. وحسبنا أن هؤلاء الأمراء وشيوخ القبائل والمذاهب لم يجدوا غضاضة في ضرب العملة بأسمائهم(٦) ولم يجدوا حرجا في تزييفها حتى كان التجار يتعاملون بالدراهم وزنا لا عدا(٧). كما حرص الأمراء على جباية الضرائب من الحلي ورؤوس الماشية(٨)؛ لنفس الأسباب.

بديهي أن تسفر سيادة الإقطاعية عن تدهور الإنتاج الذي كرس آنذاك للاستهلاك المحلي؛ فالمزارع أقفرت والمراعي خربت من جراء الحروب الإقطاعية الدائمة إبان تلك الحقبة. كما تدهور الإنتاج الصناعي من جراء الصراع حول مناطق التعدين(٩). وبالمثل تدهورت التجارة نتيجة تضاؤل الإنتاج الزراعي والحيواني والصناعي، فضلا عن اضطراب الأمن ووقوع طرق التجارة ومنافذها ومدنها تحت سيطرة قوى خارجية فاطمية وأموية أندلسية. فقد استولى الفاطميون

---

(٤) نفسه: ٣٦.
(٥) انظر: Eustache: Op. Cit. P. 43.
(٦) عبد الكريم بيصعين: ٧٨.
(٧) البكري: ٧٨.
(٨) نفسه: ١٦٢، ابن حوقل: ١٠٠.
(٩) البكري: ٤٢.

على تلمسان أهم أسواق التجارة الواردة من الشرق. وأمويو الأندلس استولوا على سبتة وأصيلا. كما استردت بورغواطة سيادتها على تارودانت؛ وكلها مدن هامة ذات صلة بتجارة الشمال والجنوب. ناهيك عن الشطط في فرض المكوس والمغارم(١٠) وتفشي الغش والتدليس بعد أن فقد المحتسب صلاحياته في الإشراف على الأسواق(١١). ولا غرو فقد فرضت ضرائب ذات صبغة إقطاعية «كالمكس» و«المعونة»(١٢) وتعرض التجار للسطو والمصادرة(١٣).

بديهي أن تعكس تلك الأحوال الاقتصادية المتردية آثارها على الأوضاع الاجتماعية. فقد اختلت البنى الاجتماعية بعد هجرة القبائل البدوية الزناتية من المغرب الأوسط إلى الأقصى(١٤). وتدهورت الحياة المدينية والعمرانية بحيث لم تؤسس مدن جديدة إبان تلك الحقبة(١٥)؛ باستثناء تيطاون التي جرى تخريبها المرة تلو الأخرى.

بديهي أن يؤدي خراب العمران وغلبة الطابع البدوي والإقليمي والعسكري(١٦) ـ وكلها شواهد على سيادة الإقطاعية ـ فضلا عن الحروب الداخلية والخارجية(١٧) وتفاقم ظاهرة العيارين والشطار(١٨) إلى مزيد من التدهور الاجتماعي. فقد عملت الحروب المستمرة عملها في نقص السكان. وزاد الطين

---

(١٠) محمد حباني: ٣٠٨.

(١١) هويكنز: ٨١.

(١٢) ابن حوقل: ١٠٠.

(١٣) ابن حوقل: ١٠٠.

(١٤) راجع: سنوسي يوسف: دور زناتة في المغرب الإسلامي من خروج الفاطميين حتى قيام المرابطين ـ رسالة الدكتوراه ـ مخطوطة، ص ١ ـ ص ٩٣.

(١٥) الحبيب الجنحاني: المرجع السابق، ص ١٣.

(١٦) محمود إسماعيل: سوسيولوجيا: ٢: ٥٨.

(١٧) ابن حوقل: ١٠٠.

(١٨) عبد الكريم بيصعين: ١٠٠.

بلة شح الأقوات وارتفاع الأسعار وما صاحب ذلك من مجاعات وأوبئة. وقد قدم ابن أبي زرع[١٩] سجلا وافيا عن هذه المجاعات والأوبئة التي وقعت في أعوام ٣٣٩، ٣٢٤، ٣٥٥، ٣٦١هـ. ولاحظ أن وسق القمح الذي كان يباع بثلاثة دراهم[٢٠] إبان الحقبة الإدريسية الأولى ارتفع ثمنه إلى ثلاثة دنانير[٢١] وأكثر إبان الحقبة الإقطاعية.

ومن الطبيعي أن يفرز البناء الاقتصادي ـ الاجتماعي المتدهور أوضاعاً سياسية متردية. إذ أسفر عن ضعف ثم انقطاع نفوذ المخزن وتفاقم ظاهرة الصراع الأسري وتفشي الإقليمية والمحلية والقبلية والطائفية. هذا فضلا عن تفجر ثورات اجتماعية في المدن الهامة كفاس والبصرة وأصيلا وسبتة[٢٢]. وأخيرا تفاقم ظاهرة التطرف الديني[٢٣] والمذهبي[٢٤]. وكلها ظواهر سوف نتناولها بالدرس. وحسبنا أن نشير إلى كونها إفرازات لسيادة نمط الانتاج الإقطاعي.

وهنا حق لبعض الدارسين[٢٥] القول: «إذا كان للصبغة القبلية والمذهبية دور واضح في الصراع السياسي والعسكري؛ فإن ذلك لم يكن إلا غطاء لأسباب أعمق اقتصادية وتجارية على الخصوص». وحق لباحث آخر[٢٦] القول: «شهد المغرب الأقصى خلال القرن الثالث الهجري تحولات دينية ومذهبية كبيرة.. إذ أدى انعدام مركزية الحكم وتعدد اتجاهات السكان السياسية والعنصرية إلى أن

---

(١٩) القرطاس: ١٠٠.
(٢٠) نفسه: ٩٨.
(٢١) نفسه: ٩٨.
(٢٢) البكري: ١٠٩.
(٢٣) نفسه: ١٢٤.
(٢٤) عبد الكريم بيصعين: ٩٨.
(٢٥) الحبيب الجنحاني: ٢٩.
(٢٦) عبدالكريم بيصعين: ١٢٠ ـ ١٢١.

تستغل الحركات المذهبية هذه التناقضات لبث إيديولوجياتها. ولم يزد تدهور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية هذا الاتجاه إلا تعمقاً؛ الشيء الذي طبع المنطقة بطابع عدم الاستقرار ودخول المغرب الأقصى في دائرة محاولات الاستقطاب الخارجية».

ونظرة عامة على خريطة الدولة الإدريسية آنذاك تثبت ظاهرة الإقطاعية بما لا يدع للشك سبيلاً. إذ استقل بنو عيسى بفازاز الشمالي وأزفور وتادلا،[٢٧] وبنو القاسم بأصيلا والبصرة[٢٨]، وبنو عبدالله بنفيس وبلاد المصامدة والسوس الأقصى[٢٩]، وبنو عمر ببلاد الريف الجنوبي[٣٠]. كما استقل بنو سليمان بتلمسان وأعمالها مستغلين التمزق في توسيع رقعة نفوذهم وترسيخ استقلالهم.

وإلى جانب هذه الأقسام الكبرى، استقلت القبائل بمضاربها. كما وجدت تجمعات طائفية ومجتمعات إثنية استحدثت نظماً وأعرافاً بدوية وعشائرية وعسكرية كما سنوضح في موضعه.

ولنبدأ بعرض القسمات المميزة لمجتمع الأدارسة إبان الحقبة الإقطاعية. أما عن ظاهرة التنافس والصراع بين أمراء ورؤساء الكيانات الإدريسية فنلاحظ أنها استهدفت غايتين؛ الأولى توسيع مناطق النفوذ على حساب الجيران، والثانية محاولة السيطرة على فاس لما لها من أهمية اقتصادية وروحية[٣١].

وقد سبق رصد بواكير هذه الظاهرة في الحقبة الإدريسية الأولى فيما جرى من صراع بين عيسى بن إدريس وأخيه محمد، وأوضحنا كيف انتهى الحال

---

(٢٧) ابن عذاري: ١: ٢١١.

(٢٨) نفسه: ٢٣٣.

(٢٩) البكري: ١١٠.

(٣٠) نفسه: ٧٧.

(٣١) Marcais, G:La Berberie Musulmane et L'Orient, Paris, 1964, p. 129

بتكليف محمد بن إدريس أخاه عمر بمواجهته حتى هزمه وضم أملاكه. لكن آل عيسى مالبثوا أن استردوا نفوذهم على تادلا وفازاز وأوزفور. يفهم ذلك من كتب المسكوكات التي توضح كيف كانوا يضربون السكة باسمهم حتى سنة ٢٧٠هـ[٣٢].

وثمة محاولة أخرى قام بها القاسم بن إدريس الذي استقل بالبصرة وأصيلا وطمع في إسقاط كافة الدويلات والكيانات بالمغرب الأقصى وإحياء مجد الأدارسة الأوائل. ولسوف نعرض لجهوده في هذا الصدد في المبحث التالي. ونكتفي الآن بالإشارة إلى فشله نتيجة تدخل أموي الأندلس الأمر الذي وضع حداً لطموحاته الوهمية.

أما دواد بن إدريس الذي استأثر بتسول وتازا وهوارة فكان أقل طموحا؛ إذ اقتصر هدفه على ضم فاس[٣٣]. وقد تمكن بالفعل من دخول عدوتها الأندلسية بمساعدة بعض قبائل البربر منتهزا ضعف أمرائها الأدارسة الذين كانوا عازفين عن السياسة منشغلين إما بالعبادة والنسك أو العربدة والتهتك[٣٤].

هذا عن أدارسة الشمال. أما أدارسة الجنوب فقد انتهزوا صراعات إخوانهم في الشمال لإحكام قبضتهم على ديارهم. فضلا عن الدخول في صراعات بين بعضهم البعض من أجل الاستحواذ على مناجم الفضة ومنافذ تجارة السودان[٣٥].

---

(٣٢) Eustache: OP. Cit. p. 128.

(٣٣) ابن عذارى: ١: ٢١١.

(٣٤) أوردت المصادر قصة وله يحيى بن يحيى بن إدريس بإمرأة يهودية، وذكرت كيف دخل وراءها الحمام متخفيا في لباس امرأة لينال منها مأربا. انظر: ابن أبي زرع: ٧٧.

(٣٥) عبدالكريم بيصعين: ٣٨.

وفي هذا الصدد دار صراع بين عبدالله بن إدريس وبين أبناء عمومته من بني عيسى وبني يحيى للسيطرة على الطريق الغربي إلى السودان[٣٦]. ودارت حروب طاحنة أضعفت كافة قوى الصراع وزادت في تفاقم ظاهرة التجزئة السياسية؛ بعد أن عولوا على تقسيم أقاليمهم «دومينات» بين الأبناء والأحفاد. فقد أقطع القاسم بن إدريس ابنه إبراهيم البصرة، وابنه أحمد كرت، وابنه محمد ماسينة. وقد أورثها الأخير ابنه الحسن المعروف بالحجام. كما دخل الحجام في صراع مرير مع بني عمر للسيطرة على فاس وتمكن من دخولها بالفعل قبيل التدخل الفاطمي بالمغرب الأقصى[٣٧].

وعلى نفس المنوال نسج أدارسة نفيس وإيجلي. فقد حاز جعفر بن عبدالله بن إدريس مدينة نفيس وأورثها ابنه حمزة[٣٨]. ودخل الأخير في نزاع مع أدارسة جبال درن من بني أبي القاسم إدريس بن محمد بن جعفر بن عبدالله. كما اشترك البيتان في صراع محموم آخر اندلع بين أحمد الكرتي وبين ابن أخيه الحسن الحجام[٣٩]؛ أنهك الجميع ومزق دولة الأدارسة إربا.

هكذا أدت الحروب الأسرية بين آل إدريس إلى مزيد من التشرذم والتمزق الذي ازداد تفاقما نتيجة الحروب الإقطاعية فضلا عن العرف الإقطاعي في تقسيم الإقطاع بين الأبناء والأحفاد.

أما الظاهرة الثانية؛ فقد ترتبت على ضعف البيت الإدريسي وفقدان هيبة «المخزن». ألا وهي ظاهرة صراع العصبيات.

---

(٣٦) نفسه: ٣٩.
(٣٧) البكري: ١٢٦، ١٣٠.
(٣٨) نفسه: ١٦٠.
(٣٩) نفسه: ١٢٧.

وقد سبق أن رصدنا الخريطة الاجتماعية لدولة الأدارسة وأثبتنا احتواءها عناصر وقبائل شتى؛ من بربر - بتروبرانس - وعرب - قيسية ويمنية وأفارقة وأندلسيين فضلا عن الفرس واليهود. ولاحظنا كيف مهدت الطبيعة الجغرافية لحركات الانتزاء، وكيف فجرت حروبا بين السهل والجبل، بين المزارعين والرعاة. كما أوضحنا لماذا نجح الأدارسة الأوائل في مواجهة السخائم العصبية بفضل أسلوب «الموازنة» فضلا عن أسلوب القمع والبطش، وأخيرا بفضل تسخير الطاقات العسكرية في حروب خارجية توسعية.

لكن الحقبة الإقطاعية شهدت إحياء النعرات العرقية، إذ فتح الباب على مصراعيه «لتصفية الحسابات القديمة» خصوصا بعد تهاوي سلطة «المخزن».

وليس أدل على ذلك من نجاح بعض المغامرين العرب في الاستيلاء على فاس واحتكار السلطة بها؛ كما هو حال عبد الرحمن بن أبي سهل الذي طرد يحيى بن يحيى بن محمد بن إدريس على إثر فضيحته مع عشيقته اليهودية[٤٠]. وبالمثل نجح ربيع بن سليمان من عرب فاس في إعلان الثورة على يحيى بن القاسم الإدريسي وقتله سنة ٢٩٢هـ[٤١]. ولا يخفى دور العرب الأندلسيين - في سبتة وأصيلا - في التواطؤ مع أموي الأندلس ضد أدارسة الريف؛ وهو ما سنعرض له في موضعه.

أما البربر؛ فقد لاحظنا دورهم في إذكاء الصراع بين بني إدريس ونجاحهم بعد التواطؤ مع بني جلدتهم في المغرب الأوسط في الكيد للأدارسة. ونضيف في هذا الصدد نجاحهم أيضا في الاستيلاء على فاس. فريحان المكناسي حكم

---

(٤٠) ابن أبي زرع: ٧٨.
(٤١) نفسه: ٨٠.

عاصمة الأدارسة من قبل موسى بن أبي العافية سنة ٣٠٩هـ[٤٢]. كما غدر حامد بن حمدان الأوربي بالحسن بن محمد بن القاسم الإدريسي لصالح موسى بن أبي العافية[٤٣]. كما انتهز البربر فرصة الصراع بين عرب عدوتي فاس وتدخلوا في إذكائه انطلاقا من أحقاد عنصرية[٤٤].

وإذ عبرت هذه الوقائع عن دور البربر ضد الأدارسة في فاس؛ فلاشك أن دورهم خارجها كان أخطر وأفدح. وقد اتخذت معارضتهم صورا وأشكالا شتى. منها القيام بحركات ذات طابع هرطقي اجتماعي؛ كحركة حاميم المفتري ببلاد غمارة التي سنعرض لها فيما بعد بالتفصيل[٤٥].

ومنها أيضا تكوين أحلاف قبلية مناوئة للأدارسة نجحت في تكوين كيانات ذات طابع بربري قح؛ فيما عرف باسم «دول الأشياخ» - أمغارن - وخاصة في أغمات ودرن. واستند الحكم في هذه الكيانات على الأعراف البدوية؛ حيث أسندت السلطة إلى مجالس قبلية يتداول شيوخ البربر رئاستها بالتناوب لمدة سنة[٤٦]. وأدى نجاح هذه النظم إلى هجرة الكثير من قبائل بربر «السيبة» في المغرب الأقصى للعيش في كنفها. وبالمثل أغرت بني جلدتها في المغرب الأوسط هربا من اضطهاد الفواطم. بل إن عناصر عربية انتهزت نجاح هذه النظم ووفدت من الخارج لتستقر في بلاد الهبط والبصرة لإذكاء الصراعات بين هذه الكيانات البربرية وبين الأدارسة[٤٧].

---

(٤٢) ابن أبي زرع: ٨١.
(٤٣) نفسه: ٨٣.
(٤٤) محمد حباني: ٣١٠.
(٤٥) عبدالكريم بيصمين: ٤٤.
(٤٦) ابن خلدون: ٦: ٣٦٧.
(٤٧) عبدالكريم بيصمين: ٨٧.

واسفرت هذه الظاهرة عن مزيد من خلخلة البناء الاجتماعي بالمغرب الأقصى فضلا عن المزيد من الاضطراب السياسي والتداعي الحضاري. ولعل في هجرة زناتة المغرب الأوسط إلى الأقصى وما ترتب عليها من نتائج وخيمة ما يغني عن اللجاج(٤٨).

ومن مظاهر تفاقم السخائم العصبية كذلك ما عولت عليه العناصر والعصبيات البربرية من رفض الجبايات «وكسر الخراج»؛ الأمر الذي زاد في إضعاف حكم الأدارسة.

ترتب على ذلك كله إثارة الشقاق بين الحواضر والبوادي. وإحياء السخائم القديمة بين العرب والبربر؛ حتى ذكر البكري(٤٩) أن كلا من العنصرين في الموضع الواحد كان يتخذ مقابر خاصة تحرم على موتى العنصر الأخر. بل إن البربر لم يتورعوا في بعض المدن - كأغمات - عن طرد سكانها من العرب(٥٠). وتنسحب نفس المقولة على مدينتي أوزفور ووزيغة(٥١).

هكذا شكل البربر عنصرا مناوئا لأمراء الأدارسة؛ عبر عنه نص لابن حيان(٥٢) حيث ذكر على لسان أحد هؤلاء الأمراء: «إن البربر إلى اليوم على عاداتهم الأولى معنا. إن هممنا بتشديد السلطان هربوا عنا ونفروا منا واتخذوا الحصون علينا؛ فمرة نذهب إلى محاربتهم وتارة نؤول إلى مداراتهم».

أما الظاهرة الثالثة التي تفاقمت أخطارها إبان الحقبة الإقطاعية؛ فهي التعصب المذهبي والتطرف الديني. وقد سبق تبيان الخريطة المذهبية والدينية

---

(٤٨) راجع: سنوسي يوسف: المرجع السابق، ص ٢٥.
(٤٩) المغرب: ١١٠.
(٥٠) نفسه: ١٣٦.
(٥١) نفسه: ١٥٥.
(٥٢) المقتبس، تحقيق شالميتا، ص ٢٩٢.

لدولة الأدارسة، وأوضحنا كيف كان التسامح العقيدي سمة من سمات العصر الإدريسي الأول، وكيف كان الالتئام الزيدي ـ الاعتزالي بمثابة إديولوجية معتدلة ووثاق خفف من غلواء العصبية العنصرية والقبلية، ووسيلة توسل بها «المخزن» في لم شتات كافة السكان والإفادة من فعالياتهم في النواحي الاقتصادية والعمرانية، فضلا عن إذكاء الحماس الديني وتسخيره في خدمة مشروعات «المخزن» التوسعية. ودللنا على ذلك بالنقود والمسكوكات الإدريسية التي خلت من شعارات الشيعة واقتصرت على شعارات العدل(٥٣) والتوحيد، كما أوضحنا كيف تمكن إدريس الثاني من محق بواكير الانتزاء ذي الطابع المذهبي كما هو الحال بالنسبة لأوربة المعتزلية ومطغرة الصفرية. وانتهينا إلى تفسير ذلك في إطار الصحوة البورجوازية التي عمت المغرب الأقصى حتى العقد الثالث من القرن الثاني الهجري.

أما الحقبة الإقطاعية؛ فقد شهدت مزيدا من التعصب الديني وبروز خطر الطائفية والتطرف حتى غدت المذهبية بآثارها السلبية والعصبية العنصرية والقبلية وجهين لعملة واحدة.

بدأت بواكير هذه الظاهرة في أخريات عهد إدريس الثاني الذي عول على الانتصار للمذهب الزيدي(٥٤). وهو أمر فجر الصراع بين أصحاب المذاهب المختلفة من زيدية واعتزالية وخارجية وأهل سنة. بل لم يدخر الأدارسة الأواخر

---

(٥٣) راجع: Eustachc: OP. Cit. p. 288

(٥٤) هناك صورة لدرهم ضرب في أواخر حكم إدريس الثاني؛ يحمل شعارات الشيعة كالمهدوية واسم علي بن أبي طالب:

«إدريس ـ محمد رسول الله ـ المهدي إدريس بن إدريس ـ علي».

انظر: Eustache: OP. Cit. p.p. 199,200

وسعا في إثارة أصحاب هذه المذاهب المغايرة للمذهب الزيدي(٥٥). وربما كان إعلان الخلافة الفاطمية بإفريقية والأموية بالأندلس من أسباب حرص الأدارسة الأواخر على إظهار التشيع الزيدي؛ تعبيرا عن حق طالما دافعوا عنه منذ دعواتهم وثوراتهم الأولى في الشرق.

وما يعنينا أن حرص الأدارسة الأواخر على إظهار مذهبهم أدى إلى انفراط الوحدة الإديولوجية التي ظللت عهود الأدارسة الأوائل. وننوه بأن قضية المذهبية لم تكن إلا غطاء دثر مصالح وطموحات قوى اجتماعية هالها ما تردى إليه حال الأدارسة إبان الحقبة الإقطاعية من الضرب عرض الحائط بسياسة «العدل والتوحيد».

وحسبنا أن شيوخ المالكية ورؤساء المعتزلة شكلوا إبان تلك الحقبة طبقة ارستقراطية تجارية حازت الجاه والثروة واقتنت الضياع واستأثرت بالسلطان(٥٦). وهو أمر أكده ابن حوقل(٥٧) ـ الذي زار المغرب الأقصى آنذاك ـ حين وصف هذه الارستقراطية «بالغنى وسعة المال». هذا في الوقت الذي شكل فيه الخوارج الصفرية طبقة فقيرة مضطهدة كما سنوضح في موضعه.

في ضوء الرؤية السوسيو ـ اقتصادية تلك يمكن تفسير الصراع بين أهل السنة والزيدية في إيجلي والسوس الأقصى. مصداق لك ما قرره ابن حوقل(٥٨) بأن الصراع الذي كفر فيه الطرفان بعضهما البعض كان من أجل الاستحواذ على

---

(٥٥) يظهر ذلك في نقوش على عملة إدريسية ضربت سنة ٢٤٨هـ. وهاك صورة لشعارها:
«على خير الناس بعد النبي؛ كره من كره ورضي من رضي».
انظر: Eustache: Op. Cit. p. 155
(٥٦) ابن أبي زرع: ٢٩.
(٥٧) صورة الأرض: ٩٠.
(٥٨) نفس المصدر والصفحة.

مناجم النحاس. وأضاف باحث معاصر[٥٩] إلى العامل الاقتصادي دافعا سياسيا حين ذهب إلى أن المالكية كانوا يطمحون إلى الانعتاق من سيطرة آل إدريس.

وإذ تمحور الصراع في الجنوب حول مناجم النحاس؛ فقد تبلور في الشمال حول المدن التجارية والاستراتيجية والثغور الأطلسية؛ كتلمسان وسبتة وأصيلا. وفي هذا الصدد لعب المالكية دورا كبيرا في تعضيد ومؤزارة أموي الأندلس ضد الأدارسة؛ كما ستوضح في موضعه.

وفيما يتعلق بالصراع الزيدي ـ المعتزلي؛ نعلم أن الوفاق المذهبي والسياسي بين الطرفين انفرط وانفض مذ قتل إدريس الثاني إسحق الأوربي. وبرغم انصياع أوربة لمحمد بن إدريس؛ فإنها ما لبثت أن سخطت على أخلافه. وقد تمثل هذا السخط في إذكاء حركات الانتزاء ذات الطابع العنصري من ناحية وفي تكوين تجمعات اعتزالية مستقلة من ناحية أخرى؛ كتلك التي ترأسها معزوز بن طالوت ومكابر بن درقم وأبو حفص الزناتي. وليس أدل على استقلال هؤلاء من ضرب السكة بأسمائهم[٦٠].

وليس أدل على ضآلة المذهبية بالقياس إلى الأسباب السياسية والاقتصادية من تشجيع هذه الكيانات بورغواطة الصفرية للتوسع على حساب الأدارسة، فضلا عن تعاونهما معا في مراقبة طرق التجارة إلى السودان[٦١]. ولعل في اصطحاب يونس البورغواطي زيد بن سنان المعتزلي في رحلته إلى الشرق ما يشير إلى هذا الوئام.

---

(٥٩) انظر: عبد الكريم بيصعين: ١١٧.

(٦٠) انظر: Eustache: Op. Cit. p.p. 308, 313.

(٦١) عبد الكريم بيصعين: ١١٢.

أما عن موقف الخوارج الصفرية إزاء الأدارسة الأواخر؛ فقد اتسم بالعنف الثوري. وقد سبقت الإشارة إلى أسباب الصراع بين الخصمين وأوضحنا أنها كانت اقتصادية سياسية بالأساس، ونضيف إلى ما سبق تطرف الصفرية في مسألة العدل الاجتماعي واستئسادهم في قتالهم من أجل إقرارها(٦٢). فإذا أضيف إلى ذلك ما بلغته دولتا بورغواطة وبني مدرار من قوة وشأو آنذاك - حتى أن بورغواطة توسعت على حساب الأدارسة، وبني مدرار جهزوا حملة لغزوهم - أدركنا لماذا شكل الخوارج الصفرية بدولة الأدارسة خطرا فادحا عليها. إذ من المؤكد تواطؤهم مع بني مذهبهم في شالة وسجلماسة ضد الأدارسة.

تشهد على ذلك ثورة عبد الرزاق الصفري الذي تمكن من قيادة قبيلة مديونة وغيرها من قبائل البربر ونجح في اقتحام فاس والسيطرة على عدوة الأندلسيين(٦٣). وبرغم فشل الثورة(٦٤)؛ ما انفك الخوارج الصفرية يثيرون المتاعب في وجه الأدارسة حتى انقضاء دولتهم(٦٥).

ومن الحركات الاجتماعية تلك التي تزعمها حاميم المفتري. حيث اندلعت من تيطاون وآزرتها قبائل غمارة وصنهاجة(٦٦) ضد أدارسة الريف. وقد تجلى طابعها الهرطقي في الدعوة للتخفيف من العبادات كالصلاة والصوم وحذف الطهارة والوضوء والحج، والتأثر بالعقائد القديمة في الإقليم كاعتماد الكهانة والسحر والدعوة إلى الإباحية(٦٧). أما الجانب الاجتماعي فيمكن الكشف عنه من خلال

---

(٦٢) محمود إسماعيل: مغربيات، ص ٥٢.

(٦٣) عن تفصيلات وقائع وأحداث الثورة؛ راجع: محمود إسماعيل: الخوارج، ص ١٣٧، ١٣٨.

(٦٤) ابن أبي زرع: ٧٨، ٧٩.

(٦٥) البكري: ١٢٥. Marcais, G: Op. Cit. p. 126

(٦٦) البكري: ١٠٠.

(٦٧) نفسه: ١٠١، عبدالكريم بيصعين: ١٠٧.

معارفنا عن الحركات الثورية في العالم الإسلامي الوسيط. تلك التي كانت تربط بين الكهانة والإباحية كتعبير عن الضائقات الاقتصادية.

هكذا أسفرت دراسة سياسة الأدارسة الداخلية عن حقبتين متميزتين: الأولي تمثل طور القوة والتوسع والازدهار كانعكاس للصحوة البورجوازية، والثانية تمثل طور الضعف والانهيار نتيجة سيادة الإقطاعية.

ولسوف ينعكس تأثير الصحوة وانتكاساتها كذلك على سياسة الأدارسة الخارجية، وهو ما سنبثه في المبحث التالي.

الباب الثالث

علاقة الأدارسة الخارجية

تفردت علاقات الأدارسة الخارجية بخاصية لا نجد لها نظيرا في سياسات دول المغرب الخارجية في العصور الوسطى. ذلك أنها صيغت على أساس العداء لكافة دول المغرب المعاصرة كبورغواطة وبني مدرار وبني رستم والأغالبة فضلا عن الخلافة العباسية وأموي الأندلس. وظل هذا العداء قائما حتى نهاية القرن الثالث الهجري حيث سقطت كافة دول المغرب المستقلة وتقوقعت دولة الأدارسة في حجر النسر شمالي المغرب الأقصى. وحين دخل المغرب الكبير حقبة جديدة على إثر قيام الخلافة الفاطمية؛ شهد المغرب الأقصى صراعا محموما بين الفاطميين وأموي الأندلس وقف الأدارسة إزاءه موقفا يتراوح بين العداء والود إزاء الخصمين حسب مقتضيات الحال.

والحق أن تعليل سياسة الأدارسة الخارجية العدوانية يشكل لغزا استعصى تفسيره على المؤرخين المحدثين. ذلك أنهم تأثروا في ذلك برؤى القدامى التي تؤكد على البيولوجية والمذهبية والعصبية القبلية والعنصرية في تفسير تاريخ المغرب الوسيط بوجه عام وتاريخ الأدارسة على نحو خاص. على أساس أن الأدارسة كانوا عربا شيعة يحكمون قبائل من البربر على مذاهب شتى سنية واعتزالية وخارجية. كما تأثر المؤرخون المحدثون أيضا بالتفسيرات الخاطئة لمقولات ابن خلدون عن الدعوة المذهبية والعصبية كشرطين هامين لقيام الدول، وعاملين أساسيين في صياغة تطورها التاريخي فضلا عن انهيارها وسقوطها.

ولن نقف طويلا عند رؤى المؤرخين القدامى البيولوجية والإثنية أكثر من التنبيه إلى أنهم نظروا إلى «الظاهرات» باعتبارها دوافع وأسباباً، واعتبروا النتائج

عللا وعوامل محركة.

أما عن التأويل الخاطىء للمقولات الخلدونية التي جعلت من هذا المؤرخ العظيم «شعوبيا» و«طائفيا»؛ فلا أقل من تقديم إيضاحات تثبت أن الحوافز المادية تكمن وراء المذهبية والعصبية. فالدعوة المذهبية في نظر ابن خلدون مجرد وسيلة إديولوجية تفيد في لم شمل العصبية وتوجيهها نحو هدفها البعيد وهو إقامة الدولة؛ أي الانتقال من مرحلة التوحش والبداوة إلى مرحلة العمران والتحضر.

أما العصبية: فهي لا تعني عند ابن خلدون رابطة الدم بقدر ما تعني من قوة مادية وبشرية. إن إلتئام شمل العصبية لا يتم إلا عن طريق «الغلبة» والصراع الذي يستهدف في النهاية «تحقيق الخيرات الدنيوية والشهوات البدنية والملاذ النفسانية»[1]. لذلك لم نخطىء حين ذهبنا إلى أن فكر ابن خلدون التاريخي ينحو نحوا ماديا[2]. ولم يخطىء أحد تلامذتنا[3] حين رأى أن نظرية ابن خلدون في العصبية والدعوة المذهبية «تجمع بين الجغرافيا والديموغرافيا والقدرة على التوسع والصراع». ولم يخطىء ابن خلدون[4] نفسه حين استشف ما يمكن أن يحدث من خطأ تأويل آرائه في هذا الصدد حين قال: «وهذه الآراء بعيدة عن أفهام الجمهور بالجملة لأنهم نسوا عن تمهيد الدولة منذ أولها».

وبالعودة إلى ابتداء قيام الدولة الإدريسية ـ تطبيقا للمنهج الخلدوني ـ نجد أنها اعتمدت على إديولوجية زيدية ـ اعتزالية، وعلى عصبية من البربر تتمثل في قبيلة أوربة لتحقيق غاية سياسية وهي إقامة دولة نواة في المغرب الأقصى تكون منطلقا لتكوين خلافة علوية تضم العالم الإسلامي بأسره. وبديهي أن تحقيق هذا

---

(١) المقدمة: ١٥٤.

(٢) راجع؛ محمود إسماعيل: فكرة التاريخ بين الإسلام والماركسية، بيروت ١٩٨٨.

(٣) انظر: عبدالكريم بيصمين: المرجع السابق، ص ٢٣٢.

(٤) المقدمة: ١٥٤.

«المشروع السياسي الطموح» لا يمكن أن يتم إلا على أنقاض كافة القوى الإسلامية المعاصرة للأدارسة في الشرق والغرب الإسلاميين سواء بسواء. وبديهي أيضا أن يناصب الأدارسة كافة هذه القوى العداء بكافة صوره وأشكاله كما نوضح في موضعه.

وهذا التفسير لا يحول دون اهتمامنا بالعصبية والمذهبية بصدد التأريخ لعلاقات الأدارسة الخارجية. لكن هذا الاهتمام يتعلق بالأحداث والوقائع لا بالتأويل والتفسير. ذلك أننا نعول في هذا الصدد على الرؤية الخلدونية وليس على «المخيال» الشعوبي والبيولوجي المتواتر.

إن دراسة السياسة الخارجية لدولة ما تعني في النهاية «التعامل مع كيانات سياسية تجاوزت مرحلة البداوة إلى طور الحضارة». ومن ثم تصبح الوقائع والأحداث - وإن اتخذت لبوسا دينيا مذهبيا أو عنصرياً أو قبليا - معبرة عن سياسات تتبنى أهدافا «استراتيجية» اقتصادية واجتماعية. ويتطلب تحقيق هذه الأهداف صراعا عسكريا ودبلوماسيا وسياسيا ودعائيا لا مجال في صياغته لما اصطلح عليه - خطأ - بالعوامل الإثنية والمذهبية التي لا تعدو أن تكون «ظاهرات» للصراع ونتائج مترتبة عليه؛ لا أسباب ودوافع وحوافز له.

كما أن هذا الصراع يدور في «مجال حيوي» تلعب فيه معطيات «الجيو - بوليتيقا» ومدى قوة الدولة أو ضعفها الدور الفاعل والمؤثر. فبقدر قوة الدولة المادية والبشرية تتحدد نتائج الصراع وآثاره.

في إطار هذه الرؤية؛ لنحاول رصد وعرض وتفسير علاقات الأدارسة الخارجية سواء مع العباسيين والأغالبة أو مع الكيانات السياسية الخارجية المغربية أو مع أموي الأندلس والفاطميين.

الفصل الأول
سياسة الأدارسة إزاء العباسيين والأغالبة

أ ـ العلاقات الإدريسية ـ العباسية:

اتسمت سياسة الأدارسة إزاء العباسيين بالعداء برغم انتمائهما معا لآل البيت. وقد تمركز العداء حول محورين: أولهما: طموح العباسيين نحو إخضاع كافة أرجاء العالم الإسلامي وتحقيق وحدة «دار الإسلام» باعتبارهم الخلفاء الشرعيين؛ خصوصا وأن مفهوم الخلافة ـ نظريا وفقهيا ـ لا يمكن تجزئته. وهذا يفسر عدم إقدام أمراء الدول المستقلة على تنصيب أنفسهم خلفاء في الشرق والغرب على السواء. وهو أمر انسحب على الأدارسة أنفسهم برغم كون إمارتهم تدخل ضمن ما أسماه الماوردي «إمارة الاستيلاء» بحيث قطعوا صلاتهم تماما بالخلافة؛ فلم يذكروا أسماء بني العباس لا في الخطبة ولا على السكة، ولم يتلقوا منهم التفويض وتنصلوا من دفع الأموال السنوية، ولم يقيموا لهم وزنا في سياساتهم الداخلية والخارجية[1].

ولم يكن بوسع الخلافة العباسية ـ عمليا ـ مد نفوذها إلى المغرب الأقصى خصوصا بعد انسلاخ المغرب الأوسط عن نفوذهم بعد قيام دولة بني رستم عام

---

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ٢٤ وما بعدها، القاهرة ١٩٦٠.

١٦٢هـ. يضاف إلى ذلك انشغال العباسيين الأوائل بالمشكلات الشرقية الداخلية فضلا عن الأخطار الخارجية على أعالي الشام والعراق من قبل البيزنطيين[١].

على أن انتهاء الخلافة العباسية من مواجهة هذه الأخطار حفزها إلي محاولة استرجاع نفوذها في الغرب الإسلامي بعد أن تقلص حتى لم يتعد حدود إفريقية. وبرغم إنفاذها عدداً من الحملات العسكرية، واتباعها سياسة المحالفات والدبلوماسية، وتطبيق لامركزية الحكم في إفريقية، لم تنجح قط في استرداد أدنى نفوذ لا في المغرب ولا الأندلس.

وبقيام دولة الأدارسة عام ١٧٢هـ وتشكيلها خطرا مباشرا على إفريقية العباسية بل على مصر نفسها، عول العباسيون على الاهتمام بماجريات الأحداث في بلاد المغرب والأندلس[٢]. وبديهي أن تفجر هذه السياسة صداما مع الأدارسة.

وثانيهما: أن الأدارسة الذين نجحوا في تأسيس دولتهم بالمغرب الأقصى؛ راودتهم فكرة الانتقام لما حل بالعلويين من مجازر في الشرق على أيدي أبناء عمومتهم هذا فضلا عن تحقيق أطماعهم في الخلافة التي اغتصبها بنو العباس برغم جهود العلويين في مواجهة بني أمية وفي تأسيس الدعوة التي أسفرت عن قيام الخلافة العباسية سنة ١٣٢هـ. وساعد على بلورة هذه الطموحات الإدريسية إندلاع العديد من الثورات ضد بني العباس وانتشار التشييع حتى بين ولاتهم وعمالهم ناهيك عن وزرائهم من البرامكة.

في إطار هذين العاملين؛ يمكن رصد العلاقات الإدريسية ـ العباسية التي تمتد جذورها العدائية إلى ما قبل تأسيس دولة الأدارسة. ودون دخول في

---

(٢) راجع: Vonderheyden: La Berberie Orientale Sous la dynastie des Benu-L- Arlab. Paris. 1927, p. 26, Marcais. G: L'Afrique de Nord Francais dans L'histoire, Paris, 1937, p. 149.

التفصيلات حول هذه الجذور ـ التي سبق أن عرضنا[3] وعرض غيرنا لها[4] ـ من المفيد أن نشير إليها في عجالة باعتبارها خلفية لا سبيل إلى تجاهلها لمن يؤرخ للعلاقات الإدريسية ـ العباسية. هذا فضلا عن إضافة ما نرى أنه جديد بالنسبة للموضوع.

عرض الفصل الأول من الباب الأول لأسباب الخلاف الزيدي العباسي. كذا لمظاهره المختلفة من مساجلات نظرية حول أحقية الخلافة؛ إلى الصدام العسكري والدعاية السياسية. ويمكن أن نضيف إلى ما سبق إفادة العلويين من تجاربهم الفاشلة في الشرق، كذا من تجارب الخوارج الناجحة في الانتقال بنشاطهم الدعائي من القلب إلى الأطراف حيث أضرموا ثورات توجت بتأسيس كيانات مستقلة عن بني العباس.

أفاد العلويون الزيدية من ذلك كله وتعاونوا مع المعتزلة في بث دعوتهم ببلاد المغرب وتطلعوا لتأسيس دولتهم بالمغرب الأقصى. وما يعنينا الآن إثبات أن العباسيين كانوا على علم ودراية بكل هذه الماجريات. لذلك بثوا العيون والجواسيس للحؤول دون وصول إدريس بن عبدالله إلى المغرب الأقصى بعد مذبحة فخ. وقد أثبتت الأحداث تفوق التنظيم السياسي السري الزيدي ـ الاعتزالي في هذا المجال من الصراع الخفي مع التنظيم العباسي، وتمكن إدريس من الوصول إلى المغرب الأقصى سالما. وفي ذلك يقول أحد الدارسين الثقاة[5]. «كانت جواسيس بني العباس تلاحق إدريس؛ حيث أبلغت الخلافة العباسية ولاتها وعمالها بصفاته. فكانت نقط الحراسة المعروفة بالمسالح ترقب قدومه».

---

(٣) راجع: محمود إسماعيل: الأغالبة: ١١٢ وما بعدها.
(٤) راجع: محمد الطالبي: الدولة الأغلبية، ص ٣٩٨ وما بعدها، بيروت ١٩٨٥.
(٥) نفسه: ٣٩٩.

وكلل هرب إدريس من الحجاز إلى مصر إلى المغرب الأقصى بتأسيس دولة الأدارسة سنة ١٧٢هـ. ولم يكن بوسع العباسيين إسقاطها في مهدها نظرا لاضطراب أمور إفريقية آنذاك. فضلا عن افتقارهم إلى أسطول بوسعه حمل الجيوش من الشرق إلى المغرب الأقصى.[٦].

ما كان بوسع بني العباس الوقوف مكتوفي الأيدي أمام تفاقم خطر إدريس الأول خصوصا بعد أن توسع جنوبا وسيطر على أقاليم ثرية ماديا وبشريا. فضلا عن سيطرته على أماكن استراتيجية كمضيق تازا ومدينة تلمسان وأصبح بوسعه تجنيد الجيوش وإنفاذها نحو إفريقية.

إزاء هذه التطورات التي جعلت إدريس الأول يسفر عن طموحاته السياسية شرقاً، اتخذ العباسيون عدة إجراءات للحؤول دون تحقيق أطماعه. منها إنفاذ حملة بقيادة هرثمة بن أعين إلى إفريقية لوضع حد للفوضى الضاربة فيها. كذا تشييد هرثمة عددا من الحصون والقلاع استعدادا لمواجهة الخطر القادم من الغرب[٧].

وأخيرا إسناد إقليم الزاب على حدود إفريقية الغربية إلى قائد كفء عرف ببلائه في نصرة الخلافة هو إبراهيم بن الأغلب.

وليس أدل على توجس هرون الرشيد من خطر إدريس الأول من أمره إبراهيم بن الأغلب بالاتصال به مباشرة ـ دون الرجوع لوالي القيروان ـ لاتخاذ التدابير الكفيلة بوقف خطر إدريس، بل وحضه إياه على مباغتته بجيش الزاب إن استطاع إلى ذلك سبيلا[٨].

---

(٦) أرشيبالدلويس: القوى البحرية والتجارية في البحر المتوسط، ص١٦٢، القاهرة ؟
(٧) الرفيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب، ص٢٠٣.
(٨) محمد الطالبي: المرجع السابق، ص١١٧.

ويبدو أن هذه الإجراءات أفلحت في ردع إدريس الأول؛ فكف عن تسيير جيوشه من تلمسان إلى إفريقية برغم مكوثه بها ثلاث سنوات يعد العدة لحملته المزمعة. ولكن الرشيد أيقن أن عدم إنفاذ الحملة لا يعني وقف المخطط الإدريسي التوسعي؛ ومن ثم عول على اغتيال إدريس تخلصا من خطره.

ولا مناص من إثبات نص لابن أبي زرع[٩] حول هذا الموضوع رغم تفصيلاته نظرا لما أثير من خلاف حول هذه القضية بغية مقارنة محتواه بالروايات الأخرى ومناقشة آراء الدارسين المحدثين في هذا الصدد التماسا لحقيقة ما جرى.

ذكر ابن أبي زرع أن الرشيد اغتم لخطر إدريس فاستشار يحيى البرمكي «وأخبره بأمره بعد أن قوي سلطانه وكثرت جيوشه واشتهر أمره واسمه». وأردف قائلا «لقد عزمت على أن أبعث له جيشا عظيما لقتاله. ثم إني فكرت في بعد البلاد وطول المسافة وتنائي المغرب عن المشرق، ولا طاقة لجيوش العراق على الوصول إلى السوس من أرض المغرب؛ فرجعت عن ذلك. وقد هالني أمره فأشر علي برأيك فيه». أشار عليه يحيى بأن يبعث إلى إدريس رجلا تتوافر فيه صفات الذكاء والمكر والدهاء مع البلاغة والجرأة ليغتاله. ثم وقع اختيار يحيى على سليمان بن جرير المعروف بالشماخ. وأخبره بالمهمة التي نيط بتنفيذها ووعده برفعة المنزلة والصلات السنية و«أعطاه أموالا جزيلة وتحفا مستطرفة وجهزه بما يحتاج إليه. وأعطاه قارورة فيها غالية مسمومة ثم وجه معه رجلا يثق به وبشجاعته». فانطلق سليمان مع صاحبه من بغداد «وهو يتظاهر بالطب»... «وما زال يجد في السفر حتى وصل إلى وليلى واتصل بإدريس فسأله عن اسمه ونسبه وسبب قدومه إلى المغرب. فذكر له أنه من موالي أبيه وأنه اتصل به

(٩) أثبتنا نص العبارات الهامة كما ذكرها ابن إبي زرع مع التصرف فيما عداها ليستقيم سياق العرض. انظر: القرطاس: ٢٢، ٢٣.

خبره؛ فأتاه برسم خدمته» بسبب محبته لآل البيت. «فأنس إليه إدريس وسربه واتخذه صاحبا ونديما لا يجلس إلا معه ولا يأكل إلا إذا أكل معه». وأبدى سليمان من العلم والأدب والبلاغة والجدال ما جعل إدريس يرفعه إلى تلك المنزلة... وأخذ الشماخ يترصد فرصة لاغتيال إدريس حتى واتته بغياب راشد.. فدخل سليمان على إدريس «وجلس بين يديه على عادته وتحدث معه مليا وقال: يا سيدي قد جعلت فداك. إني جئت من المشرق بقارورة طيب أتطيب بها. ثم إني رأيت هذه البلاد ليس بها طيب فرأيت أن الإمام أولى بها مني؛ فخذها تتطيب بها، فقد آثرتك على نفسي.. ثم أخرجها ووضعها بين يديه. فشكره إدريس ثم أخذ القارورة وشمها... وتحصل بمراده منه فتمت حيلته... وخرج كأنه يريد قضاء حاجته؛ فسار إلى منزله. وركب فرسا له من عتاق الخيل وسباقها كان قد أعدها لذلك. وخرج من مدينة وليلى يطلب النجاة.. وكانت القارورة مسمومة، فلما انتشق إدريس الطيب صعد السم في خيشومه وانتهى إلى دماغه؛ فغشي عليه وسقط بالأرض على وجهه لا يفهم ولا يعقل ولا يعلم أحد ما به ولا ما أصابه».

باستكناه محتوى هذا النص الهام؛ نقف على عدة حقائق هي: أن الرشيد استشار وزيره يحيى البرمكي في أمر إدريس نظرا لخبرته السابقة في التعامل مع يحيى بن عبدالله ـ أخ إدريس ـ حيث تمكن باتباع أساليب الغدر من التحايل عليه حتى تخلص منه وقضى على دولته بطبرستان.

أما عن اختيار يحيى سليمان بن جرير المعروف بالشماخ لاغتيال إدريس الأول؛ فقضية خلاف بين المؤرخين. ونحن نميل إلى رواية ابن أبي زرع التي تؤكد أن الشماخ لم يكن طبيبا ـ كما ذهب البعض[١٠] ـ بل ادعى التطبب كوسيلة

---

(١٠) أنظر: محمد الطالبي: ٣، ٤.

يتذرع بها في التقرب من إدريس. كما لم يكن زيديا ـ كما ذهب البعض[11] الآخر ـ إلى حد القول بأنه «متكلم الزيدية». بل كان رجل سياسة موالٍ لبني العباس ادعى أنه على مذهب إدريس لنفس السبب السابق. لقد كان الشماخ كما ذكر[12] الرقيق من «موالي المهدي» الأمر الذي أهله لتنفيذ مهمته لصالح الرشيد. فلو كان زيديا حقا لما أقدم على فعلته. ولو كان «متكلم الزيدية» لعلم إدريس بأمره وخبره ولما سأله عن أصله ونسبه وموطنه. ونحن لا نمانع في ادعائه الطب، كذا ادعائه التشيع الزيدي تسهيلا لمهمته في التقرب من إدريس؛ خاصة وأن الكثيرين من الزيدية وفدوا إلى المغرب هربا من بطش بني العباس، كذا للإقامة في كنف دولة إدريس[13]. المعقول أن يكون الشماخ قد أعد من قبل يحيى البرمكي إعدادا خاصا من حيث الإحاطة بالمذاهب والفرق خاصة المذهب الزيدي حتى يحوز ثقة إدريس. خاصة وأنه أوتي ذلاقة اللسان وحسن البيان كما ذكر البكري[14].

وبرغم اتساق رواية ابن أبي زرع بوجه عام؛ إلا أنها لا تخلو من مغالطات. منها عدم إثبات قدوم الشماخ على إبراهيم بن الأغلب ببلاد الزاب وهو المتآمر الأول مع الرشيد على اغتيال إدريس. ومنها أيضا الوصف الدقيق لحال إدريس عقب تسميمه في الوقت الذي ينص فيه ابن أبي زرع على أنه كان وحيدا بعد هرب الشماخ على إثر نجاح المهمة. كذلك لا منطقية وصف ابن أبي زرع لمجريات ما وقع بين المولى راشد وبين الشماخ حين لحق به راشد في

(١١) البكري : ١٢٠.

(١٢) تاريخ إفريقيةوالمغرب، ص ٢١٥.

(١٣) نفسه : ٢٢.

(١٤) المغرب : ١٢٠.

الطريق من وليلى إلى إفريقية. يقول ابن أبي زرع[١٥] «وشد راشد على الشماخ بالسيف فقطع يده اليمنى وشجه في رأسه ثلاث شجات وجرحه في جسده». والسؤال: لماذ والحال كذلك لم يجهز راشد على الشماخ؛ وكيف استطاع راشد الوصول إلى بغداد بحالته تلك؟.

الأمر محض مبالغات تستهدف إظهار فتوة راشد وبلائه وإخلاصه لسيده إدريس. وهي مبالغات مألوفة في كتابات ابن أبي زرع ذات الطابع المنقبي المتعاطف مع الأدارسة.

ولا مناص من التوقف عند إشكالية أخرى هي كيفية اغتيال إدريس بالسم. المصادر تختلف ما بين قائل بأنه سم بقارورة طيب أو قارورة «سم»[١٦] أو بمسواك[١٧] مسموم أو بعلاج للأسنان أو في دلاحة مسمومة... الخ

وأيا ما كان الأمر، فالثابت أنه مات مسموما ولا يمكن أن يتخذ الاختلاف حول كيفية تجرعه السم أساسا لنفي المسألة برمتها؛ وهو ما ذهب إليه أحد الدارسين[١٨] المتشككين في اغتيال إدريس. إذ ذهب إلى «أن أنصار إدريس نسجوا قصة موته شهيدا استدرارا لعطف الجماهير على الأسرة العلوية». بينما ذهب في موضع آخر إلى «أن العباسيين هم الذين نسجوا تلك الرواية ليحيطوا شخص الرشيد بهالة أسطورية تجعله قادرا على التخلص من خصومه مهما بعدوا».

---

(١٥) القرطاس : ٢٤.
(١٦) البكري : ١٢٠.
(١٧) ابن الخطيب : ٣ : ٩، ١٠.
(١٨) أنظر : سعد زغلول عبدالحميد: تاريخ المغرب العربي، ص ٤٢٢.

ونحن لا نجد مبررا لهذا التشكيك في وقت أجمعت فيه المصادر على إثبات الاغتيال. كما أن هذا الأسلوب وسيلةمألوفة اتبعها خلفاء بني العباس للتخلص من خصومهم في الشرق والغرب على السواء. ولسوف يعولون عليها فيما بعد للتخلص من المولى راشد وإدريس الثاني بالتواطؤ مع الأغالبة كما سنثبت في موضعه.

على كل حال ـ نرى أنه بعد أن أنجز الشماخ مهمته في اغتيال إدريس الأول عرج على إفريقية لإعلام إبراهيم بن الأغلب بنجاح المهمة. وأنفذه إبراهيم بدوره إلى بغداد حيث ابتهج الرشيد لما جرى وكافأ الشماخ على فعلته بأن ولاه بريد مصر[١٩]. أما الرشيد فقد احتفل بالمناسبة حيث انبرى الشعراء يدبجون قصائد المديح عن قدرته وجبروته[٢٠].

تبقى بعد ذلك إشكالية أخيرة هي توقيت الاغتيال. إذ تختلف المصادر في هذا الصدد؛ فمنها ما تذكر وقوعه قبل عام ١٧٥هـ،[٢١] ومنها ما تؤكد حدوثه عام ١٧٥هـ[٢٢] وأخرى ترجح عام ١٧٧هـ[٢٣]. لكن نقودا تحمل اسم إدريس الأول ضربت عامي ١٧٨هـ، ١٧٩هـ [٢٤]تقطع بخطأ كل التواريخ السابقة.

---

(١٩) الرقيق : ٢١٥.

(٢٠) امتدح أحد الشعراء هارون الرشيد بقوله :

أتظن يا إدريس أنك فاعل ... كيد الخليفة أو يقيك خدار
إن السيوف إذا انتضاها عزمه ... طارت وتعقد دونها الأعمار
هيهات إلا أن تكون ببلدة ... لا يهتدي فيها إليك نهار
ملك كأن الموت يتبع أمره ... حتى يقال تطيعه الأقدار

(٢١) راجع التفصيلات عند : محمد الطالبي : ٤٠٥.

(٢٢) ابن الخطيب : ٣ : ١٩٦.

(٢٣) ابن أبي زرع : ٢٢.

(٢٤) Colin, B.S: Monnaies de la periode Idrisite trouvees a Volubilis, Hesperis, XX11, 1966, P.P. 113-127.

ومع ذلك يرى أحد الدارسين[٢٥] المحدثين أن هذه العملة برغم كونها تحمل اسم إدريس الأول إلا أنها ضربت بعد عامين من وفاته. إلا أننا نرجح خطأ هذا الرأي استنادا إلى تاريخ محقق هو عام ١٧٩هـ[٢٦] وهو العام الذي غادر فيه هرثمة بن أعين إفريقية ووصل فيه الشماخ إلى إقليم الزاب حيث التقى بإبراهيم بن الأغلب الذي وجهه إلى وليلى حيث تمكن من اغتيال إدريس في نفس العام. وبذلك يتسق هذا القول مع العملة التي سكها إدريس سنة ١٧٩هـ.

ومهما كان الأمر؛ فالثابت أن الدولة الإدريسية لم تسقط بعد اغتيال إدريس الأول. كما أن راشد الذي تولى الوصاية على ابنه الطفل إدريس الثاني أزمع الأخذ بالثأر؛ فعول على إنفاذ حملة إلى إفريقية[٢٧].

وتمثل رد الفعل العباسي في إيعاز الرشيد إلى إبراهيم بن الأغلب ـ عامله على الزاب ـ بإنفاذ حملة مضادة لغزو دولة الأدارسة. ونحن نخالف الرأي القائل بأن إبراهيم بن الأغلب توجه بالفعل على رأس جيش صوب الغرب ونجح في الاستيلاء على تلمسان[٢٨]. وحجة صاحبه في هذا الزعم نصوص أوردها الرقيق القيرواني في هذا الشأن. لكن بالرجوع إلى هذا المصدر وغيره لم نجد أدنى إشارة إلى سقوط تلمسان في يد إبراهيم. بل تخبرنا أن تلمسان آنذاك كان يحكمها آل سليمان أبناء عمومة الأدارسة. يؤكد خطأ هذا الزعم أيضا إنشغال إبراهيم بن الأغلب بتحقيق طموحاته في حكم إفريقية حين تدخل في النزاع القائم بين

---

(٢٥) محمد الطالبي : ٤٠٦.

(٢٦) الرقيق القيرواني : ٢٠٣.

(٢٧) ابن الأبار : الحلة السيراء : ١ : ٢٣٤، فرانز ١٨٦٦.

(٢٨) محمد الطالبي : ٤٠٧.

الوالي الشرعي محمد بن مقاتل العكي وبين الثائر تمام بن تميم[٢٩].

وتأسيساً على ذلك يمكن القول أن حملة راشد وحملة إبراهيم بن الأغلب لم يقدر لهما الالتحام ألبتة. وأن إثارة أخبارهما كان من قبيل الدعاية السياسية ليس إلا؛ حيث لم يكن بوسع أي من الطرفين غزو ديار الآخر لانشغال الأول بأمور الدولة الإدريسية بغد اغتيال إدريس الأول وانشغال الثاني بمشكلات إفريقية.

لذلك عول الرشيد على اتباع أسلوبه التقليدي في التآمر والاغتيال. وقد استهدفت مؤامرته هذه المرة اغتيال راشد بالاتفاق مع إبراهيم بن الأغلب. أما عن كيفية نجاح المؤامرة فهو ما سنفصله في المبحث التالي. وحسبنا الإشارة في هذا المقام إلى خطأ آخر وقع فيه أحد الدارسين[٣٠] المتخصصين الثقاة حين ذهب إلى أن موت راشد لم يكن نتيجة اغتيال وإنما قتل في معركة ضد إبراهيم بن الأغلب. وليس أدل على خطأ هذا الزعم من شعر لإبراهيم نفسه من المفيد إثباته؛ حيث يقول[٣١]:

ألم ترني بالكيد أرديت راشدا ... وإني بأخرى لابن إدريس راشد
تناوله عزمي على نأي داره ... بمختومة في طيهن المكائد
ثلاثون ألفا سقتهن لقتله ... لأصلح بالغرب الذي هو فاسد

وعلى إثر نجاح إبراهيم بن الأغلب في اغتيال راشد؛ كافأه الرشيد بتوليته إفريقية، وأتاح له من السلطات والصلاحيات ما لم يتيح لغيره من الولاة لا لشيء إلا ليجعل من إفريقية ثغرا عسكريا يحول دون تسرب الأدارسة شرقا.

---

(٢٩) محمود اسماعيل: الأغالبة: ٢٨ وما بعدها.
(٣٠) أنظر: محمد الطالبي: ٤٠٧.
(٣١) ابن الأبار: ١: ٢٣٣.

وفضلا عن أسلوب الاغتيال وتدبير المكائد ضد الأدارسة، اتبع العباسيون أسلوبا آخر أبعد ما يكون كذلك عن المواجهة العسكرية. لم يكن هذا الأسلوب إلا تشويه الأسرة الإدريسية عن طريق التشكيك في نسبها. إذ شنوا حملة دعائية تروج لشائعة فحواها أن إدريس الثاني لا ينسب إلى أبيه بل إلى المولى راشد. ولطالما اتبع العباسيون هذا الأسلوب المشين لتشويه خصومهم في الشرق والغرب على السواء.

فإذا كانوا قد أفلحوا في إثارة مسألة النسب لتبرير حقهم في الخلافة دون العلويين بعد قيام دولتهم سنة ١٣٢هـ واستئثارهم بالخلافة؛ فقد شنوا بعد ذلك حربا دعائية شعواء للتشكيك في نسب الفواطم عن طريق الزعم بأصلهم اليهودي. وبالمثل اتبعوا ذات الأسلوب ضد الأدارسة كما أشرنا من قبل؛ وهو أمر فطن إليه ابن خلدون وكشف عن أسبابه وملابساته وغاياته. ولا بأس من عرض بعض مقولاته في هذا الصدد. يقول ابن خلدون[٣٢]؛ «. . .وما يتناجى به الطاعنون في نسب إدريس بن إدريس بن عبدالله الإمام بعد أبيه بالمغرب الأقصى. . بالتظنن في الحمل المخلف عن إدريس الأكبر إنه لراشد مولاه؛ قبحهم الله. . . كلا والله إنما صدرت هذه الكلمات من بني العباس. . . إذ أن تجدد الدولة بإدريس بن إدريس كان عليهم أنكى من وقع السهام. . . وكان الفشل والهرم قد نزلا بدولة العرب عن أن يسموا إلى القاصية. . . وكان نسب بني إدريس بمواطنهم بفاس وسائر ديار المغرب قد بلغ من الشهرة والوضوح مبلغا لا يكاد يلحق ولا يطمع أحد في دركه. . . وليس في المغرب فيما نعلم من أهل البيت الكريم من يبلغ في صراحة نسبه ووضوحه مبالغ أعقاب إدريس هذا من آل الحسن. . . ».

(٣٢) المقدمة: ٢٣ ـ ٢٦.

هكذا وقف ابن خلدون على الدافع من وراء هذه الحملة العباسية الدعائية ضد الأدارسة، ويرجعه إلى عجزهم عن مناوءة خصومهم عسكريا.

وإذا كان هذا الأسلوب لم يحقق أغراضه ـ كما أوضح ابن خلدون ـ لم يجد العباسيون مناصا من العودة لأسلوب التآمر والاغتيال خاصة بعد أن شب إدريس الثاني عن الطوق وآزرته القبائل على اختلافها ونجح في توسيع رقعة الدولة الإدريسية بعد أن أعاد فتح الأقاليم التي تمردت إبان طفولته، وأحيا المشروع الإدريسي الطموح في التوسع شرقا. لذلك تآمر العباسيون بالاشتراك مع الأغالبة من أجل إثارة المتاعب داخل الدولة الإدريسية بتحريض القبائل على الثورة وخاصة أوربة المعتزلية ومطغرة الصفرية[٣٣].

وحين فشلت هذه المكائد لم يجد العباسيون بدا من التآمر على حياة إدريس الثاني بالتواطؤ مع الأغالبة كذلك. وقدر لهم تحقيق مأربهم[٣٤].

على أن تدهور أحوال دولة الأدارسة وأد مشروعهم التوسعي في ذات الوقت الذي آلت فيه الخلافة العباسية إلى المأمون الذي أبدى تسامحا مع العلويين إلى حد تعيين أحدهم ـ على الرضى ـ ولاية عهده. كل ذلك وضع حدا للعداء بين الطرفين، وأوكل العباسيون إلى الأغالبة مهمة مراقبة بني إدريس. وانصرف العباسيون إلى أمور المشرق كما انصرف الأدارسة إلى إتمام نشر الإسلام والتعريب في المغرب الأقصى[٣٥].

وخلال العصر العباسي الثاني شغل العباسيون بالخطر الفاطمي الذي ورث المشروع الإدريسي في التوسع شرقا. كما شغلوا عن الفاطميين أنفسهم باسترداد

---

(٣٣) سنعرض للتفصيلات في المبحث التالي.

(٣٤) سنعرض للتفصيلات في المبحث التالي.

(٣٥) محمد الطالبي: ٤١١.

نفوذهم في العراق بعد تطاول العسكر التركي على الخلفاء. وكان ذلك من أسباب ظهور البويهيين الشيعة الزيدية الذين لم يدخروا وسعا في الانتقام من خلفاء بني العباس بعد أن سيطروا على معظم أقاليم الخلافة في الشرق[٣٦].

هكذا تأثرت العلاقات الإدريسية ـ العباسية بمعطيات صراع أعم بين العباسيين والعلويين في المشرق والمغرب على السواء.

ب ـ العلاقات الإدريسية ـ الأغلبية:

اتسمت العلاقات الإدريسية ـ الأغلبية بطابع العداء الذي ورثه الأغالبة عن بني العباس. إذ كان الأغالبة هم المنفذين للسياسة العباسية في الغرب الإسلامي بأسره. يضاف إلى ذلك أن ظروف تأسيس الإمارة الأغلبية جعلت سياستها الخارجية تتسق مع السياسة العباسية؛ فكان أعداء الخلافة في الغرب الإسلامي هم أعداء الأغالبة أيضا.

وسبق إيضاح عجز الخلافة العباسية عن استرداد نفوذها في المغرب؛ الأمر الذي ساعد على تفاقم أخطار دوله المستقلة بعد اشتداد عودها وطموحها إلى تكوين دولة كبرى تضم المشرق والمغرب على السواء.

وأمام تفاقم هذه الأخطار لجأ العباسيون إلى تأسيس أسرة حاكمة قوية وموالية في إفريقية لتشكل خط دفاع أول عن مصر وتسترد نفوذها المفقود في المغرب والأندلس إن استطاعت إلى ذلك سبيلا. وهذا يفسر لماذا أسند الرشيد إمرتها إلى إبراهيم بن الأغلب بعد أن منحه صلاحيات واسعة تؤهله لمواجهة

---

(٣٦) محمود إسماعيل: الحركات السرية في الإسلام، الفصل المعنون «المعتزلة بين النظر العقلي والعمل السياسي».

أخطار الخصوم في سرعة وحزم. وهو أمر عجزت الخلافة من مركزها البعيد في بغداد عن الاضطلاع به. تماما كما فعلت بعد ذلك حين أسندت حكم خراسان إلى الطاهرين لذات الأسباب وذات الأهداف.

وكان إبراهيم بن الأغلب مؤهلا للقيام بهذا الدور. ففضلا عن تاريخ والده وتاريخه هو - حين كان عاملا على الزاب - في خدمة مخططات العباسيين؛ كان يعد رجل الخلافة الأقوى في إفريقية التي مزقتها الاضطرابات الشعوبية والسخائم العنصرية والقبلية.

وسبق أن أثبتنا أن إبراهيم ربط بين طموحاته في تولي إمرة إفريقية وبين الولاء للخلافة العباسية عن طريق مؤازرة ولاتها في المغرب وتنفيذ مخططاتها إزاء الأدارسة.

أما عن مصالح الأغالبة في الارتباط بالخلافة؛ فترجع إلى طبيعة قيام دولتهم العربية وسط بحر من الأعداء العنصريين والمذهبيين. لذلك كانوا بحاجة إلى عون الخلافة ماديا ومعنويا. وقد اتسقت هذه المصالح مع مصلحة العباسيين في أن تظل إفريقية بمنأى عن أخطار الدول المستقلة في الغرب الإسلامي، وأن تظل ثغرا طرفداريا يحول دون تسرب أطماعها شرقا. وهذا يدحض مزاعم بعض الدارسين[٣٧] الذين ذهبوا إلى أن سياسة الأغالبة إزاء هذه الدول - ومن بينها دولة الأدارسة - اتسمت «بعلاقات طيبة أشبه ما تكون بحسن الجوار والتعايش السلمي». والصواب أن مصالح الأغالبة في الحفاظ على استقلال إمارتهم ارتبطت باستمرارية تنفيذهم المخطط العباسي إزاء الأدارسة، وغيرهم من القوى التي تطلعت للاستيلاء على إفريقية كخطوة أولى نحو الزحف إلى الشرق.

---

(٣٧) راجع: سعد زغلول عبد الحميد: ٤٥.

لذلك كان العداء بين الأدارسة والأغالبة قدرا محتوما أملته طبيعة تأسيس كل من الدولتين. لكن هذا العداء لم يترجم قط لنشاط عسكري فعلي نظرا لقصور قوة كل من الدولتين عن الإطاحة بالأخرى. هذا فضلا عن منظومة «التوازن» التي حكمت كافة العلاقات بين قوى المغرب آنذاك بحيث لم يؤد التنافس والصراع بينها قط إلى تغيير خريطة المغرب السياسية.

يضاف إلى ذلك تأثير العامل الاقتصادي الكامن في التبادل التجاري بين سائر هذه القوى؛ الأمر الذي خفف من غلواء الخلافات السياسية والاختلافات الإثنية والمذهبية.

وهذا يفسر لماذا ترجم العداء بين الأغالبة والأدارسة إلى صيغ وصور أخرى كالتآمر والاغتيال وتشجيع المنتزين؛ فضلا عن «الحرب النفسية» الكامنة في التلويح بالحرب العسكرية المتبادلة.

فلنحاول رصد مسيرة العلاقات الإدريسية ـ الأغلبية في ضوء هذه الاعتبارات الأولية.

وننبه إلى أننا لن نسترسل في ذكر ما سبق ذكره بصدد دور إبراهيم بن الأغلب ـ حاكم الزاب ـ في تنفيذ مخططات العباسيين إزاء الأدارسة[٣٨]. وما يعنينا أن إبراهيم لم ينط بحكم إفريقية إلا نتيجة جهوده في التآمر لاغتيال إدريس الأول ومن بعده المولى راشد. لقد كوفىء على ذلك حين أسند إليه الرشيد الولاية وفق صيغة فريدة تجمع بين خصائص إمارتي الاستكفاء والاستيلاء.

---

(٣٨) عن مزيد من التفصيلات؛ راجع: محمود إسماعيل؛ الأغالبة: ٤٧ وما بعدها.

استأنف إبراهيم بن الأغلب بعد ولاية إفريقية عام ١٨٤هـ سياسته السابقة ضد الأدارسة عندما كان عاملا على إقليم الزاب. خاصة وأن نجاحه في اغتيال راشد لم يحل دون استمرارية الدولة الإدريسية، كذا لم يقض على مشروعها التوسعي الذي استهدف إفريقية نفسها.

ذكر بعض المؤرخين[٣٩] أن إبراهيم بن الأغلب شرع في غزو دولة الأدارسة عقب تولية الإمارة؛ لكن أصحابه نهوه عن ذلك. وفسر بعض الدارسين[٤٠] تقاعس إبراهيم عن إتمام الغزو «بكرهه قتال إدريس الثامن». ونحن نستبعد فكرة الغزو من أساسها آنذاك نظرا لانشغال إبراهيم بمواجهة التحديات التي واكبت توليه الإمارة. لم يكن بوسعه تجاهل تلك الأخطار ليقوم بمغامرة مجهولة العواقب وراء الحدود.

مع ذلك لا نستبعد إعلان إبراهيم عن هذا الغزو المزمع من قبيل بث الخوف في قلوب خصومه ليتحاشى غزوا مضادا يشنونه على إفريقية. ولسوف نلاحظ أن التلويح بالحرب «تكتيك» شائع طالما عول عليه الأغالبة حين تتفاقم مشكلاتهم الداخلية، أو حين يتعاظم خطر الأدارسة الذي يهدد إفريقية.

استعاض إبراهيم عن الصراع المسلح؛ بشن حرب دعائية تشكك في نسبة إدريس الثاني لأبيه جريا على السياسة العباسية في هذا الصدد. يقول ابن خلدون[٤١] «صدرت هذه المزاعم من لدن بني العباس وبني الأغلب».

وحين فشل هذا الأسلوب في تحقيق أهدافه؛ عول إبراهيم على إثارة المكائد داخل دولة الأدارسة. إذ حرض قبيلة مطغرة للثورة على إدريس الثاني.

---

(٣٩) ابن الأثير: الكامل: ٥: ١٠٤، القاهرة ١٩٥٧.

(٤٠) راجع؛ محمود إسماعيل: الأغالبة: ١١٧.

(٤١) المقدمة: ٢٤.

ومعلوم أن مطغرة اعتنقت المذهب الخارجي الصفري أوائل القرن الثاني الهجري. ثم تصدت لزعامة الثورة الصفرية الأولى ضد بني أمية عام ١٢١هـ[٤٢]. ثم كفت عن الثورة حين تقلدت زناتة زعامتها. وقد راودها حلم تأسيس دولة خارجية صفرية شأن مكناسة التي أقامت دولة المدرايين سنة ١٤٠هـ وبورغواطة التي أسست دولتها قبل ذلك. لكن قيام الدولة الإدريسية عام ١٧٢هـ وأد أحلامها. لذلك بايعت إدريس الأول صاغرة. ثم سخطت عليه بعد أن أثخن في الخوارج الصفرية. وبرغم استرضاء إدريس الثاني زعيمها بهلول بن عبدالواحد ـ حتى غدا «صاحب سره»[٤٣]، إلا أنها لم تنس ما حل بها على يد والده من قبل. وظلت تترقب الفرص للانتزاء حتى لاحت حين اتصل بها إبراهيم بن الأغلب الذي «حض زعيمها بهلول على ترك طاعة إدريس إلى طاعة هرون»[٤٤]. ودارت مراسلات متبادلة بين إبراهيم بن الأغلب وبهلول[٤٥] أسفرت عن انتزاء مطغرة ضد إدريس الثاني. ويبدو أن الأخير نجح في محق التمرد وأثخن في المنتزين. بحيث لم يجد بهلول مناصا من الهرب بمن معه من شيوخ مطغرة إلى دولة الأغالبة حيث أنفذهم إبراهيم بن الأغلب إلى بغداد؛ فرحب الرشيد بمقدمهم[٤٦]. وضاعت سدى نداءات إدريس الثاني كي يعود

---

(٤٢) محمود إسماعيل: الخوارج: ٦٤ وما بعدها.

(٤٣) النويري: نهاية الأرب: ٢٦: ٢٨، مخطوط بدار الكتب المصرية، ابن خلدون: ٤: ١٤.

(٤٤) نفس المصدر والصفحة.

(٤٥) ورد في رسالة من بهلول إلى إبراهيم ما يلي:

لئن كنت تدعوني إلى الحق ناصحا ... لتكشف عن قلبي ضمير خلافي

فعجل على رد رأيي فإنني ... أرد الهوى للحق حين يوافي

وجاوبه إبراهيم بقوله:

عرضت على البهلول ما إن أصابه ... تعوض منه طاعة بخلاف

فبايع لهرون الإمام بطاعة ... تجده على الإسلام خير مكاف

انظر ابن الأبار: ٢٠١.

(٤٦) نفسه: ٢٠٦

بهلول وصحبته إلى المغرب الأقصى[٤٧].

وينم نجاح إبراهيم بن الأغلب في استمالة بهلول المطغري عن حقيقتين هامتين؛ الأولى : مواصلة إبراهيم بن الأغلب سياسة الكيد للأدارسة تمشيا مع السياسة العباسية. والثانية : ضآلة الجانب المذهبي بالقياس للعامل السياسي؛ حيث تخلى زعيم مطغرة عن مذهبه الخارجي وتعاون مع الأغالبة والعباسيين السنة نكاية في الأدارسة.

على أن نجاح إدريس الثاني في إحباط تآمر مطغرة، كذا نجاحه في استمالة قبائل البربر الأخرى حتى «قويت جنوده وأتباعه وعظمت جيوشه وأشياعه»[٤٨]؛ دفعه إلى الرد بالمثل على تآمر إبراهيم بن الأغلب.

تمثل هذا الرد في تحريض خريش الكندي ـ من زعماء عرب إفريقية ـ للثورة على إبراهيم؛ منتهزا تعاظم ظاهرة الشعوبية في إفريقية آنذاك فضلا عن الصراع بين السنة والمعتزلة. ويرى أحد الدارسين[٤٩] أن ثورة خريش استهدفت الأغالبة والعباسيين سواء بسواء. وأن يد إدريس الثاني كانت ضالعة في إثارتها؛ حيث استنفر العلويين في إفريقية للتنصل من طاعة الأغالبة. كما يرى في الحركة ثورة زيدية قحه. يقول في هذا الصدد «إن الجو الذي دارت فيه الثورة والقمع الذي تلاها تذكرنا تماما بالفتن التي اضطلع بها العلويون في الشرق من حين

---

(٤٧) كتب إدريس الثاني إلى البهلول:

أبهلول قد جشمت نفسك خطة	تبدلت منها ضلة برشاد
أضلك إبراهيم من بعد داره	فأصبحت منقادا بغير قياد
كأنك لم تسمع بمكر ابن أغلب	وما قد رمى بالكيد كل بلاد
ومن دون ما منتك نفس خاليا	ومناك إبراهيم خرط قتاد

(٤٨) مجهول: تاريخ مدينة فاس: ٢١، مخطوط بدار الكتب المصرية.

(٤٩) انظر: محمد الطالبي : ١٥٨.

لأخر. تلك التي كان يثيرها حفنة من الأشخاص الذين كانوا يستجيبون لدعوة، أحد أفراد ذرية علي أو أحد أعضاده المتخفين».

وبغض النظر عن ركاكة التعبير؛ نوافق الباحث فيما ذهب إليه من تحريض إدريس الثاني للثوار. لكننا نخالفه الرأي بأن الحركة ثورة زيدية كسائر ثورات الزيدية بالشرق. بل نرى أن زعيم الثورة كان معتزليا استجاب لتحريض إدريس الثاني الذي كان لا يزال على وئام مع المعتزلة داخل دولته. ونظرا لخطورة الإشكالية من المفيد أن نثبت نص رسالتين متبادلتين بين خريش الكندي وإبراهيم بن الأغلب؛ ثم نتناولهما بالدرس والتحليل بغية الكشف عن هوية الثوار مذهبيا.

أما عن رسالة خريش فقد ورد بها ما يلي[٥٠] :

«من خريش القائم بالعدل إلى إبراهيم بن الأغلب

أما بعد ـ فإني أقمت على الخروج قبل يومي هذا لأني كنت أنتظر أن تفنيكم الحرب. فلعمري لقد آراني الله فيكم ما قوي به أهل دعوة الحق عليكم. فلما وليت أنت وعلمت أنهم منقسمون بين خوف منك ورجاء لك؛ عرفت قلة طمعهم فيك. وإن كان أحد ممن ولي هذا الثغر ممن لا نرى طاعته يستحق أن نرضى بولايته؛ لكنت أنت ذلك. وقد كان علي بن أبي طالب رضي الله عليه يقول : إذا ولي عليكم عدوكم من أهل الملة فلا تتبعوهم. ولست أطلبك إن خرجت عن الثغر فلا ترد أن تصلى بحربي. وليكن رأيك طلب سلمي والسلام».

ورد عليه إبراهيم بن الأغلب بقوله[٥١] :

---

(٥٠) ابن الأبار : ٢٣٧ ، ٢٣٨.

(٥١) نفسه : ٢٣٩.

«من إبراهيم بن الأغلب إلى خريش رأس الضلال. سلام على من اتبع الهدى.

أما بعد. فإن مثلك مثل البعوضة التي قالت للنخلة وسقطت عليها: استمسكي فإني أريد الطيران. فقالت النخلة: ما شعرت بسقوطك فيكربني طيرانك. فأما انتظارك في الحرب فناء، فلو لم يبق في المغرب من أهل الطاعة غيري ما وصلت أنت فيمن معك بخلافكم إليه. ولرجوت أن أظفر بطاعتي ونصرة دولة أمير المؤمنين أطال الله بقاءه. فكيف وعندي من شيعته وأبناء أنصاره من يعلم الله أني أرجوه أن ينتقم منك على يدي. وأما ما ذكرت عن علي بن أبي طالب رضوان الله عليه؛ فذاك أمر غاب عنك. وإن كان كما ذكرت؛ فلست منهم. لأن أهل الملة خلافهم خلاف هوى في نقمة على جور. وخلافكم خلاف فرقة دين وشق عصا المسلمين. وستعلم أنت وأصحابك إن لقيناكم غدا أنا ستتبعكم، وإن صبرتم أنا سنفنيكم».

ولنبدأ أولا بتفنيد القول بزيدية الحركة تأسيساً على استشهاد خريش بعبارة لعلي بن أبي طالب. ونلاحظ بدء أن خريش لو كان زيديا لذكر عبارات المديح المألوفة عند الشيعة مردفة باسم علي، لكنه اقتصر على القول «برضي الله عليه». كما أن الاستشهاد بعبارة علي لا تنفي أن خريش كان معتزليا. ذلك أن واصل بن عطاء كان من ورثة علم علي. كما كان أستاذا لزيد بن علي زيد العابدين مؤسس الفرقة الزيدية.

أما القرائن على اعتزالية الحركة؛ فنقف عليها من طبيعة الحوار الجدلي السجالي الذي اشتهر به المعتزلة والذي يتضح تماما في رسالة خريش. كذا ما تحفل به الرسالة من الإلحاح على مقولة «العدل» ودعوة أهل الحق». وهو مبدأ اعتزالي قح حتى أن المعتزلة عرفوا «بالعدلية» و«بأهل العدل والتوحيد». كذلك

تفصح الرسالة عن رأي المعتزلة في الثورة من اشتراط الخروج تحت راية إمام عادل واختيار التوقيت المناسب؛ وهو ما يظهر بوضوح في مفتتح الرسالة. أما خاتمة الرسالة فتظهر رأي المعتزلة في الحرب والسلم حيث ربط خريش بين خروج إبراهيم من إفريقية وبين الكف عن قتاله.

أما رسالة إبراهيم بن الأغلب إلى خريش؛ فتنطوي خاتمتها على ما يفيد وجود صلة بين الثوار وبين دولة الأدارسة. يظهر ذلك في قول إبراهيم «إن لقيناكم غدا أنا سنتبعكم» إذا ما هربتم إلى الدولة الإدريسية.

هذا ما تفصح عنه فحوى الرسالتين من دلالات. ولا نعدم قرائن أخرى تؤكد دلالات الرسالتين على اعتزالية حركة خريش. منها كون خريش من الأرستقراطية العربية في إفريقية. ومعلوم أن معتزلة إفريقية كانوا ينتمون إلى هذه الطبقة. وإذا ما علمنا أن أنصار خريش بلغوا عشرة آلاف؛ استحال القول بأنهم كانوا زيدية لأننا نعرف أن الدعوة الزيدية لم تحرز نجاحا يذكر في إفريقية، على عكس المعتزلة الذين انتشر مذهبهم انتشارا واسعا كما أثبتنا في دراسة سابقة[٥٢]، وأخيرا ما جرى من رفع الثوار شعار المعاداة لبني العباس[٥٣]؛ يعد رد فعل طبيعي لما حل بالمعتزلة في العراق من محن في عهد الرشيد الذي طردهم من بغداد وبدد حلقاتهم في مساجدها[٥٤].

على كل حال ـ كانت ثورة خريش الكندي في إفريقية نتيجة تحريض من إدريس الثاني كرد مباشر على تحريض إبراهيم بن الأغلب قبيلة مطغرة ضد إدريس.

---

(٥٢) راجع محمود اسماعيل : الحركات السرية في الإسلام، الفصل المعنون «المعتزلة بين النظر العقلي والعمل السياسي».

(٥٣) محمود اسماعيل : الأغالبة : ٣٣.

(٥٤) محمود اسماعيل : الحركات السرية، نفس المقال.

أما عن مصير الثوار؛ فقد أثخن فيهم إبراهيم قتلا وأسرا وطردامن إفريقية.

وبديهي أن تتجه أعداد غفيرة منهم إلى دولة الأدارسة. وبديهي أيضا أن يرحب إدريس الثاني بمقدمهم. إذ نعلم أنه أسكنهم عدوة القرويين بفاس سنة ١٩٢هـ. كما هلت وفود أخرى من الأندلس أسكنهم إدريس عدوة الأندلسيين. ونظرا لخبرة القرويين بفنون القتال وخبرة الأندلسيين بأمور العمران؛ فقد أدت هاتين الهجرتين إلى تعاظم قوة الدولة الإدريسية.

ولم يجد إبراهيم بن الأغلب مناصا من التلويح ـ كعادته ـ بغزو دولة الأدارسة. ويخطىء بعض المؤرخين[٥٥] الذين ذهبوا إلى أن إدريس الثاني كاتب إبراهيم بن الأغلب يستعطفه في عدم غزو دولته مذكرا إياه بقرابته من الرسول ﷺ. كما يخطىء البعض[٥٦] الآخر ممن ذكروا أن إبراهيم استجاب لإدريس «فكف عنه». «ولم تجر بينهما حرب»[٥٧]. والصواب ما ذكره ابن خلدون[٥٨] بأن إبراهيم «صالح إدريس وكف عن مدافعته لا لشيء إلا لعجزه». وقد أخذ جوتييه[٥٩] برأي ابن خلدون تأسيساً على تعاظم قوة إدريس الثاني بعد قدوم العرب الوافدين من إفريقية والأندلس. كذلك ذهب فنذر هيدن[٦٠] حين أشار إلى أن إدريس الثاني ما كان بحاجة لاستثارة عطف الأغالبة.

---

(٥٥) راجع؛ ابن الآبار : ٢٠٢.

(٥٦) ابن الأثير : ٥ : ١٠٤.

(٥٧) النويري : ٢٦ : ٢٨.

(٥٨) العبر : ٤ : ١٤.

(٥٩) Les siecles obscurs, P. 276.

(٦٠) La Berberie Orientale, P. 262.

وربما كان فورنل[٦١] أكثر إيضاحا حين ذهب إلى أن الخصمين ما كان بوسعهما أن ينال أحدهما من الآخر[٦٢]. وعلى ذلك يمكن الجزم بأن إبراهيم هدد إدريس بالغزو لا لشيء إلا لتحاشي غزو إفريقية من قبل إدريس.

وليس أدل على «عدم وقوع مصالحة» بين الطرفين من استئناف إبراهيم بن الأغلب سياسة تدبير المكائد ضد إدريس الثاني. ذلك أن انحياز إدريس إلى العناصر العربية التي أسند إليها المناصب العليا في دولته[٦٣] أثار سخط قبائل البربر وخاصة قبيلة أوربة. لذلك لم يدخر إبراهيم وسعا في تحريضها على الثورة. وبرغم اتفاق المؤرخين[٦٤] حول دور إبراهيم في إثارة إسحاق الأوربي ضد إدريس الثاني؛ لم يذكروا شيئا عن أسباب ذلك ولا عن كيفية وقوعه اللهم إلا أن «إدريس الثاني بطش بأوربة وأقدم على قتل زعيمها[٦٥]».

ويمكن الكشف عن أسباب سخط أوربة وكيفية تآمرها مع إبراهيم إذا أدركنا دور أوربة الهام في قيام دولة الأدارسة. ومع ذلك لم تتحقق طموحاتها كعصبية مؤسسة؛ إذ استعان إدريس الأول بقبائل زناتة لتحجيم نفوذ أوربة. كما أسس إدريس الأول مدينة فاس واتخذها إدريس الثاني عاصمة بدلا من وليلى

---

(٦١) Les Berbers, Vol. I, Paris, 1875, P. 260.

(٦٢) أما ما أورده ابن الأبار من أشعار دلل بها البعض على ضعف موقف إدريسالثاني؛ نرى أن مضمونها بوجه عام يستفاد منه العكس؛ إذ تفصح عن دعوة إدريس الثاني إبراهيم لاعتناق مذهبه. وهاك نص هذه الأبيات:

أذكر إبراهيم حق محمد وعترته — والحق غير مقول
وأدعه للأمر الذي فيه رشده — وما هو لولا رأيه بجهول
فإن آثر الدنيا فإن أمامه — زلازل يوم للعقاب طويل

أنظر: ابن الأبار: ٢٠٢.

(٦٣) ابن خلدون: ٤: ٤٠٧، مجهول: تاريخ مدينة فاس: ٢١، Marcais: Op.Cit. P. 147

(٦٤) البكري: ١٢٣، Founel: Op. Cit. P. 461

(٦٥) البكري: ١٢٣.

جريا على نفس السياسة. وبديهي أن تزداد أوربة سخطا على إدريس الثاني بعد أن حرمها من المناصب الهامة وأوكلها إلى العرب الوافدين.

انتهز إبراهيم بن الأغلب هذه الفرصة وعول على التدخل في الشؤون الداخلية لدولة الأدارسة خاصة بعد أن فرغ من أخطار ثورات العرب داخل إفريقية[٦٦]. وإذا كنا نخالف فؤرنل[٦٧] فيما ذهب إليه من أن إبراهيم استهدف بتدخله هذا عودة عرب عدوة القرويين إلى إفريقية؛ فلا أقل من التسليم برغبته في إثارة السخائم العصبية بين العرب والبربر داخل الدولة الإدريسية لتشغل إدريس الثاني عن التفكير في غزو إفريقية.

ولم يعدم إبراهيم وسيلة للاتصال بزعيم أوربة وتأليبه ضد عرب فاس والأدارسة. ويبدو أن إدريس الثاني كشف عن هذا التآمر؛ فهم بردع أوربة بأن قتل زعيمها.

تنفس الأدارسة الصعداء بموت إبراهيم بن الأغلب سنة ١٩٦هـ. إذ خلفه إبنه أبو العباس الذي شغل بمواجهة أخطار بني رستم في طرابلس وأحوازها[٦٨]. انتهز إدريس الثاني هذه الظروف لتوطيد دعائم حكمه بعد زعزعته نتيجة تفاقم السخائم العصبية داخل دولته. وبالفعل نجح في استعادة ولاء أوربة. وقاد جيوشه لتأكيد نفوذه في بلاد المصامدة والهيمنة على خطوط التجارة مع السودان[٦٩]. كما نجح في دعم سيادته على تلمسان بعد أن أثخن في الخوارج الإباضية والصفرية بنواحيها[٧٠].

---

(٦٦) محمد الطالبي: ٤١٢.

(٦٧) Les Berbers, Vol. I, P. 497.

(٦٨) محمود إسماعيل: الخوارج: ١٨٧ وما بعدها.

(٦٩) Vonderheyden: Op. cit. p. 263.

(٧٠) راجع: العلاقات الإدريسية - الرستمية.

وكان بوسع إدريس إحياء مشروع غزو إفريقية عن طريق تلمسان؛ لكن أيلولة حكم إفريقية إلى أمير قوي هو زيادة الله الأول أحبط المشروع. ويخطىء فندرهيدن(٧١) حين ذكر أن الأمير الأغلبي لم يعبأ بما يدور في تخوم دولته الغربية. ذلك أن زيادة الله الأغلبي رغم مشاغله الداخلية في مواجهة ثورات الجند من جديد، ورغم تذؤب الخطر البيزنطي في صقلية، فضلا عن تكدر علاقته - إلى حين - ببني العباس؛ هاله ما وصل إليه حال إدريس الثاني بعد أن وطد نفوذه داخل دولته خصوصا في تلمسان وأحوازها. يقول ابن خلدون(٧٢) أنه «بعث إلى إدريس يأمره بعدم تجاوز حد التخوم» على الرغم من أن التوسع الإدريسي في هذه النواحي تم على حساب بني رستم.

ويبدو أن تطاول إدريس الثاني وتوسعه في حوز تلمسان كان من أسباب إقدام زيادة الله الأغلبي على تحسين علاقته بالخليفة المأمون العباسي بعد أن شابها الكدر حين أزمع المأمون الانتقاص من سلطات الأمير الأغلبي. ويبدو كذلك أن المأمون كف عن هدفه حين أوضح الأمير الأغلبي له تعاظم أمر إدريس(٧٣).

أصبح بوسع زيادة الله الأول مواصلة سياسة أبيه إبراهيم في الكيد للأدارسة خاصة بعد قضائه على ثورات الجند في إفريقية وإنفاذ حملة على صقلية سنة ٢١٢هـ لوقف الخطر البيزنطي وعودة علاقته الودية من بني العباس. لذلك أخطأ فندرهيدن(٧٤) حين ذهب إلى أن زيادة الله كان يخشى إدريس الثاني.

---

(٧١) La Berberie Orientale. p. 263.

(٧٢) المقدمة: ٥٢.

(٧٣) يقول ابن خلدون: «درج الأغالبة على إنفاذ سكة إدريس في تحفهم وهداياهم إلى بني العباس تهويلا باشتداد شوكته وتعظيما لما دفعوا إليه من مطالبته».
انظر: المقدمة: ٢٥.

(٧٤) La Berberie Orientale. p. 264.

ومهما كان الأمر، فقد أقدم الأمير الأغلبي على حيك مؤامرة انتهت باغتيال إدريس الثاني، رغم شكوك بعض الدارسين(٧٥) على أساس «أن رواية التآمر تلك انعكاس لمشاغل خيال قلق مرتاب مشحون بالذكرى القاسية عن مصير إدريس الأول».

ونحن لا نجد مبررا لهذا الشك لعدة أسباب. أولها: أن أسلوب الاغتيال السياسي أسلوب شائع في العلاقات الأغلبية الإدريسية. فقد سبق لإبراهيم بن الأغلب المشاركة في مؤامرتي اغتيال إدريس الأول ومولاه راشد. وثانيها: إجماع المؤرخين القدامى على صحة واقعة الاغتيال. يقول ابن الآبار(٧٦): «إحتال زيادة الله على إدريس حتى اغتاله». ويؤكد ابن عذارى(٧٧) أن «إدريس الثاني مات مسموما».

وتلوذ المصادر بالصمت عن كيفية تدبير المؤامرة. ومن المرجع أن زيادة الله بن الأغلب أوكل أمر الاتصال بإسحق الأوربي المعتزلي إلى صنائع من المعتزلة كذلك، خاصة وأن الاعتزال كان آنذاك هو المذهب الرسمي في إفريقية الأغلبية. أما عن تاريخ الاغتيال، فهو موضوع خلاف بين المؤرخين. فمنهم من يرى أنه وقع عام ٢١٣هـ(٧٨)، ومنهم من رجح عام ٢١٤هـ(٧٩). ونحن نرجح التاريخ الثاني استنادا إلى عملة تحمل اسم إدريس الثاني ضربت عام ٢١٣هـ(٨٠).

---

(٧٥) انظر، محمد الطالبي: ٤١٠.

(٧٦) الحلة السيراء: ٢٠٠.

(٧٧) البيان المغرب: ١: ٢٩٩.

(٧٨) ابن عذارى: ١: ٢١١، ابن خلدون: ٤: ٢٧، ابن الآبار: ٢٠٠، البكري: ١٢٣.

(٧٩) انظر، ابن الأثير: ٥: ٢١٩.

(٨٠) اكتشف ليفي بروفنسال عملة باسم ادريس الثاني ضربت عام ٢١٤هـ
راجع: محمد الطالبي: ٤١١، الحاشية.

باغتيال إدريس الثاني وتقسيم دولته بين أبنائه، أخذت دولة الأدارسة طريقها إلى التداعي والانهيار. لذلك لم يعول الأغالبة على مناوءتها[٨١] بعد عجزها عن تشكيل أدنى خطر على إفريقية. وشغل الأغالبة بالفتوحات في صقلية وجنوبي إيطاليا، كما شغل العباسيون بالصراع مع العسكر التركي ثم مع سلاطين بني بويه. وهذا يعني انتفاء الظروف التي أفرزت سياسة العداء.

ليس أدل على ذلك من تقاعس الأدارسة عن مناصرة قبائل زناتة في سطيف وبلزمة حين استعانت بهم للخلاص من بطش الأميرين الأغلبيين أبي الغرانيق وإبراهيم بن أحمد[٨٢]. وبالمثل أحجم الأغالبة عن غزو تلمسان التي استقل بها آل سليمان رغم ضعفهم واستكانتهم[٨٣].

لقد ظهر خطر جديد هدد الدولتين الأغلبية والإدريسية؛ ووضع حداً لما كان بينهما من إحن ومحن؛ بل وضع نهاية لدولة الأغالبة سنة ٢٩٦هـ وغزو دولة الأدارسة سنة ٣٠٧هـ.

هكذا اتسمت العلاقات الإدريسية ـ الأغلبية بطابع العداء الذي لم يصل إلى حد امتشاق الحسام بقدر ما اتخذ صورا شتى من التآمر وتدبير المكائد والاغتيالات.

---

(٨١) Provencal;L: Histoire de l'Espagne Musulmane, Vol. I. Alger, 1944, p. 381.

(٨٢) ابن عذارى: ١ : ١٦٠، Vonderheyden: Op. cit. p. 264.

(٨٣) Ibid: 265.

الفصل الثاني

سياسة الأدارسة إزاء دول الخوارج

شهدت بلاد المغرب قيام دول خارجية ثلاث هي دولتي بورغواطة وبني مدرار الصفريتين بالمغرب الأقصى، ودولة بني رستم الإباضية بالمغرب الأوسط. وكان ظهور هذه الدول الأولى سنة ١٢٧هـ والثانية سنة ١٤٠هـ والثالثة سنة ١٦٢هـ تتويجا لدعوات سرية أعقبتها حركات ثورية ضد الأمويين ومن بعدهم العباسيين. وسقطت دولتا بني مدرار وبني رستم على يد الفاطميين سنة ٢٩٧هـ، أما بورغواطة فقد عمرت إلى عصر الموحدين.

وبرغم وحدة ظروف نشأة هذه الدول ودولة الأدارسة، حيث قامت جميعا على أنقاض نفوذ الخلافة الشرقية، وبرغم وحدة المصير - إذ تعرضوا جميعا لأخطار العباسيين والأغالبة - اتسمت علاقة الأدارسة بها جميعا بطابع العداء.

وبرغم إلحاح الدارسين على الخلاف المذهبي في تفسير هذا العداء، نرى في العوامل الاقتصادية والاجتماعية والاستراتيجية الدافع الحقيقي لصياغته وتأصيله. ذلك أن العلاقات الدولية كانت ولا تزال تخضع لعامل المصلحة وليس للدين أو المذهب أو رابطة الدم.

إن نظرة صحيحة وشاملة لتحديد أبعاد الصراع الإدريسي - الخارجي يجب أن تضع في الاعتبار قيام دولة الأدارسة وتوسعها على حساب الدول الخارجية.

كما أن معطيات الجغرافيا التي حددت موضع دولة الأدارسة بين تلك الدول الضعيفة التي أحاطت بها من الشرق والغرب والجنوب؛ جعلت الصدام بين الطرفين لا مندوحة عنه. ذلك الصدام الذي اتخذ طابع الصراع العسكري - على عكس علاقة الأدارسة بالعباسيين والأغالبة وأموي الأندلس - الذي أمسك فيه الأدارسة بزمام المبادرة في الغالب الأعم واكتفت دول الخوارج بردود الأفعال. لذلك كان التوسع والغلبة الإدريسية على حساب جيرانهم الضعفاء في معظم الأحيان.

وتأسيسا على ذلك؛ يمكن الجزم بالدوافع الاقتصادية والاجتماعية والاستراتيجية باعتبارها حجر الزاوية في صياغة السياسة الإدريسية التوسعية.

فيما يتعلق بالحافز الإقتصادي؛ نلاحظ أن المناطق التي استهدفها التوسع الإدريسي كانت إما سهولا غنية بالإنتاج الزراعي والحيواني كسهول تامسنا البورغواطية. وإما مناطق ذات ثروات معدنية كإقليم درعة الغني بالفضة التابع لبني مدرار. وإما مدنا ذات أهمية تجارية كتلمسان وموانى المغرب الأوسط على البحر المتوسط ذات الصلة الوثيقة بتجارة المشرق والأندلس، وكانت تابعة لبني رستم، أو مدنا وطرقا ومنافذ صحراوية على صلة بتجارة السودان كطريق سجلماسة في دولة بني مدرار وطريق تاروادنت في الدولة البورغواطية. لم يكن جزافا أن يوجه الأدارسة حملاتهم صوب هذه النواحي لغزوها وانتزاعها من جيرانهم الخوارج.

أما العامل الاجتماعي؛ فيمكن الكشف عنه من خلال فهم طبيعة البنيات القبلية باعتبارها النمط السائد في مغرب القرون الوسطى. ولسوف تعكس هذه البنى تأثيراتها على ماجرى من صراع بين الأدارسة وجيرانهم. إذ حرص الأدارسة على الهيمنة على المناطق الأهلة بالسكان كتلمسان وأحوازها حيث مضارب زناتة

من مغراوة وبني يفرن. كذا أنفذوا العديد من الحملات نحو بلاد المصامدة لموازنة قبائلها بالقبائل الزناتية وقبيلة أوربة التي مثلت العصبية المؤسسة للدولة الإدريسية.

كما ألحت المسألة القبلية وفرضت وجودها وأفرزت آثارها على السياسة الخارجية الإدريسية إزاء جيرانها الخوارج؛ خاصة وأن الكثير من القبائل المقيمة في دولة الأدارسة كان لها امتداداتها في دول الخوارج المجاورة. وفي هذا الصدد لعبت القبائل البدوية - التي لم تعبأ بالحدود السياسية - دورا في إثارة المشكلات بين الأدارسة وجيرانهم خصوصا بعد اقتران العصبية بالمذهبية، وارتباطهما معا بالدافع الاقتصادي. إذ نعلم أن دولة الأدارسة عاشت في كنفها أقليات مذهبية شتى؛ سنية واعتزالية وخارجية. كانت هذه الأقليات تحرص على دفع زكاة أموالها لشيوخها ورؤساء طوائفها في الدول الأخرى المجاورة. فالخوارج الصفرية في دولة الأدارسة حرصوا على موالاة بني مدرار. والبورغواطيين ودوا لو تنصلوا من تبعيتهم للأدارسة وعاشوا في كنف دول نظرائهم في المذهب. كما عاشت أقليات زيدية واعتزالية في كنف الدولة الرستمية سعت للانضمام للأدارسة. كما ضمت دولة الأدارسة بعد استيلائها على تلمسان عناصر زناتية إباضية طالما أثارت المتاعب في وجه الأدارسة لصالح بني رستم. لذلك حق لأحد الدارسين[١] النابهين القول بأن تلك البنيات الإثنية الطائفية شكلت «حوزات متقطعة» شكلت حجر عثرة أمام هيمنة «المخزن» في مغرب القرون الوسطى.

وبالمثل شكلت هجرات القبائل بين تلك الدول دون حساب للحدود السياسية مشكلات كبرى أدت إلى إثارة الصراع العسكري المسلح خاصة في

---

(١) انظر محمد الطالبي: المرجع السابق ص ٣٨٩.

مناطق التخوم. وحق لذات الدارس[٢] القول بأن الحدود بين دولة الأدارسة وبين جيرانها كانت «حدودا مائعة جدا». ولطالما انتهك الأدارسة أنفسهم هذه الحدود خاصة في المناطق الاستراتيجية كتلمسان ومضيق تازا وأعالي شلف؛ باعتبارها منافذ هامة تخدم المشروع السياسي الإدريسي الطموح في التوسع شرقا.

ولعل هذا المشروع كان من أسباب تكوين محاور سياسية في المغرب الإسلامي؛ أحدهما «عباسي - أغلبي» للحيلولة دون توسع الأدارسة شرقا. والآخر «أموي أندلسي رستمي مدراري بورغواطي» للحيلولة دون توسع الأدارسة شمالا والأغالبة غربا. وهذا التمحور في حد ذاته كفيل بالكشف عن دور العامل الاستراتيجي في صياغة سياسة الأدارسة إزاء دول الخوارج.

على أن الفصل بين هذه الدوافع جميعا غير ذات موضوع؛ ذلك لأنها تضافرت جميعا على صياغة أحداث الحقبة وتشكيل وقائعها. لذلك يمكن دمجها جميعا في مصطلح واحد هو «المعطيات الجيو - بوليتيقية».

في ضوء هذه المعطيات يمكن أن نفسر لماذا لم يتوسع الأدارسة على حساب الأغالبة أو أموي الأندلس؟ ولماذا توجه كل نشاطهم العسكري صوب مناطق ومنافذ وموانىء ومدن وطرق التجارة شرقا وغربا، شمالا وجنوبا[٣] وأخيرا لماذا تم كل ذلك حساب دول الخوارج وحدها؟ ذلك ما نجيب عليه بالتفصيل في ثنايا العرض التالي.

---

(٢) نفسه: ص ٣٨٦.

(٣) راجع: موريس لومبار: الذهب الإسلامي منذ القرن الثامن حتى القرن الحادي عشر الميلادي: ص ٦٢ وما بعدها، فصله من كتاب: «بحوث في التاريخ الاقتصادي». القاهرة ١٩٦١.

(أ) العلاقات الإدريسية - البورغواطية :

قامت دولة بورغواطة في سهول إقليم تامسنا بالمغرب الأقصى سنة ١٢٧هـ؛ استنادا إلى عصبية من قبائل بورغواطة المصمودية ومذهب ديني هو المذهب الخارجي الصفري. ومن ثم تسقط دعاوي المؤرخين الذين شككوا في نسب العصبية فردوه إلى اليهود وفي عقيدتها التي قالوا إنها ذات طابع هرطقي[٤].

اتسمت سياسة الأدارسة إزاء جيرانهم البورغواطيين بالعداء السافر. وقد وصل هذا العداء إلى حد اندلاع حروب بين الطرفين كان الظفر فيها للأدارسة الأوائل والبورغواطيين الأواخر. ولا يرجع العداء إلى الاختلاف المذهبي بقدر ما يرجع إلى أطماع الأدارسة في مقدرات إقليم تامسنا الاقتصادية. تلك المقدرات التي جعلت بورغواطة -كما ذكر ابن حوقل[٥]- «مستقلة بنفسها عن الحاجة». ففضلا عن شهرة إقليم تامسنا بالإنتاج الزراعي والحيواني الوفير وامتداد سواحلها على المحيط الأطلسي الذي أهل البورغواطيين لاحتراف الصيد البحري؛ تحكم موقع الدولة في الطريق الغربي إلى تجارة السودان؛ وهو طريق تارودانت. فإذا أضيف إلى ذلك الصلات الودية بين بورغواطه وبين أموي الأندلس أعداء الأدارسة[٦]؛ أدركنا الأسباب الموضوعية التي حفزت إلى اتسام العلاقات بين الأدارسة والبورغواطيين بالعداء السافر. ولعل هذه الأسباب الاقتصادية كانت من وراء تعرض الدولة البورغواطية طوال تاريخها لأطماع القوى الخارجية. وهي حقيقة أكدها ابن خلدون[٧] حين قال : «وكان لملوك العدوتين في غزو بورغواطة آثار عظيمة».

---

(٤) راجع : محمود اسماعيل : مغربيات : ١٥ وما بعدها.

(٥) صورة الأرض : ٨٣.

(٦) محمود اسماعيل : المرجع السابق : ٣٤، ٣٥.

(٧) العبر : ٦ : ٤٣٢.

ومن هنا تسقط دعاوي المؤرخين الذين فسروا حملات الأدارسة على ديار بورغواطة تفسيرا دينيا؛ تأسيسا على أن بورغواطة «كانت على دين النصرانية واليهودية والإسلام بها قليل»[8]. وهو ادعاء يفنده اعتناق البورغواطيين الإسلام منذ فتح موسى بن نصير بلادهم. كذا اعتناقهم المذهب الخارجي الصفري منذ أوائل القرن الثاني الهجري.

كما تسقط أيضا الدعاوي[9] القائلة بأن حملة إدريس الأول نجحت في ضم إقليم تامسنا؛ حيث تم «فتح معاقلها وإسلام جميع أهلها». وقد فسر أحد الدارسين المحدثين[10] هذا الادعاء بأن صاحبه - ابن أبي زرع - «أراد بإضفائه طابعا دينيا على حملة إدريس الأول أن يمجده ويعظم أعماله».

والثابت أن هذه الحملة لم تحقق أغراضها نتيجة استئساد بورغواطه في الدفاع عن استقلالها. وهذا يفسر لماذا أعاد إدريس الثاني الكرة حيث «دارت وقائع عظيمة»[11] لم تسفر كذلك عن سقوط دولة بورغواطه. وهذا راجع أيضا إلى ما عرف به الخوارج الصفرية من فروسية وبلاء في كافة حروبهم بالشرق والغرب على السواء[12]. هذا بالإضافة إلى ما كفلته الطبيعة الجغرافية من حماية لديار بورغواطة أهلت دولتها لأن تعمر طويلا على خلاف دول المغرب المستقلة المعاصرة التي سقطت على يد الفاطميين أواخر القرن الثالث الهجري وأوائل القرن الرابع.

---

(٨) ابن أبي زرع : ٢٠.
(٩) نفس المصدر والصفحة.
(١٠) راجع : سعد زغلول عبدالحميد : ٤١٩.
(١١) ابن الخطيب : ٣ : ٣٢.
(١٢) محمود اسماعيل : الخوارج : ٦٢ وما بعدها.

ومع ذلك أسفرت حملة إدريس الثاني عن نجاح محدود؛ إذ اقتطعت بعض المدن الهامة ـ كنفيس ـ وفتحت للأدارسة بابا للوصول إلى تجارة السودان. كما نجحت في تحويل بعض قبائل المصامدة من الولاء لبورغواطة إلى التبعية للأدارسة(١٣).

وفي عهد محمد بن إدريس توجهت حملة كبرى نجحت بالفعل في تحقيق أغراضها؛ إذ أسفرت عن سقوط دولة بورغواطة إلى حين؛ على إثر معركة فاصلة دارت عام ٢٢٠هـ. مصداق ذلك حدوث فترة شغور في التاريخ البورغواطي استمرت قرابة خمسين عاما خضع إقليم تامسنا خلالها لولاية عيسى بن إدريس الذي حكمها باسم أخيه محمد في فاس(١٤). ثم آل نفس الإقليم إلى إدارة عمر بن إدريس حين دب الشقاق بين الأخوين عيسى ومحمد وتدخل عمر في النزاع لصالح أخيه محمد ونجح في هزيمة عيسى فأسند إليه محمد حكم تامسنا مكافأة له على حسن صنيعه(١٥).

إلا أن البورغواطيين استردوا دولتهم منتهزين ضعف الدولة الإدريسية بعد محمد بن إدريس. فتمكن أبو عفير البورغواطي من هزيمة الأدارسة سنة ٢٧١هـ وأعاد إحياء الدولة البورغواطية التي حكمها آل بيته حتى سقطت في عصر الموحدين(١٦).

وإذ اتخذ موقف الأدارسة الأوائل في علاقاتهم مع بورغواطه طابع الهجوم ولاذت بورغواطة بالدفاع؛ فلم يلبث الحال أن تغير وأصبحت دولة الأدارسة المجزأة هدفا لأطماع البورغواطيين. ولا أدل على ذلك من أن أبي عفير نجح في

---

(١٣) إبراهيم العبيدي : البورغواطيون في المغرب : ص٤٤، مراكش ١٩٨٣.
(١٤) ابن الخطيب : ٣ : ٢٠٥.
(١٥) ابن خلدون : ٤ : ٢٨.
(١٦) محمود اسماعيل : مغربيات : ١٥.

توسيع نفوذه على حساب الأدارسة وتمكن من توحيد المصامدة وإخضاعهم لسلطانه[١٧]. فكثير من القبائل التي خضعت للأدارسة إبان قوتهم تحول ولاؤها إلى بورغواطه بعد انهيار دولتهم. من هذه القبائل جراوة وزواغة ومطغرة[١٨] فضلا عن بعض بطون زناته وغيرها[١٩].

وبالمثل كان الحافز الاقتصادي من وراء التوسع البورغواطي على حساب الأدارسة؛ إذ نجح أبو عفير في الاستيلاء على بعض المواضع الغنية بمعدن الفضة مثل بهت التي شهدت معركة ضارية بين البورغواطيين والأدارسة[٢٠]. وبديهي أن تعود القبائل في هذه المواضع إلى المذهب الخارجي الصفري الذي أرغمت على التخلي عنه إبان حقبة السيطرة الإدريسية[٢١].

وعلى إثر الحملات الفاطمية على المغرب الأقصى وانسحاب الأدارسة إلى الشمال حيث تقوقعوا في حجر النسر؛ عول البورغواطيين على انتهاز الفرصة؛ فمدوا نفوذهم من بهت إلى تادلا وجبال فازاز بالإضافة إلى سهول تامسنا. كما تحرشوا بمنطقة سبو منتهزين انسحاب الأدارسة منها[٢٢]. وحسبنا دليلا على ذلك ذكر أسماء القبائل التي خضعت لبورغواطة آنذاك وهي «بورغواطة وجرواة وزغاوة وزواغة والبرانس ومطغرة وبنو يوزع وبنو دمر ومطماطة وبنو واكسست وبنو تاسليت» وكلها عادت إلى اعتناق المذهب الصفري. أما القبائل التي والت

---

(١٧) ابن حوقل : ٨٣، Gautier: Op. Cit. P. 14.

(١٨) ابن خلدون : ٦ : ٤٢٨.

(١٩) البكري : ١٤١.

(٢٠) عبدالكريم بيصمين : ٦١.

(٢١) محمود اسماعيل : مغربيات : ٢٩.

(٢٢) البكري : ١٤٠، ١٤١.

بورغواطة ولم تدخل في مذهبها فهي «زناتة الجبال وبنو تليت وبنو وانسيت وبنو تانيت»[٢٣].

على أن العداء السياسي بين الأدارسة وبورغواطة لم يحل دون استمرار العلاقات التجارية بين فاس وشاله. وفي ذلك يقول ابن حوقل[٢٤] «وكان أهل فاس والبصرة يغزونهم في بعض الأوقات ويسالمونهم ويجلبون إليهم التجارات على ما يرويه ولاتهم». ونعتقد أن اليهود لعبوا دورا أساسيا في إحكام الوشائج الاقتصادية بين الأدارسة وجيرانهم الخوارج وخاصة البورغواطيين. وحق لجوتييه[٢٥] الحكم بأن يهود المغرب الأقصى أسهموا في تخفيف حدة الصراعات السياسية والإثنية والطائفية التي شجرت بين الكيانات السياسية آنذاك.

هكذا اتسمت العلاقات الإدريسية ـ البورغواطية بالعداء السافر الذي ترجم إلى صراعات عسكرية دامية كان النصر فيها للأدارسة أولا وللبورغواطين أخيرا.

(ب) العلاقات الإدريسية ـ المدرارية:

اتسمت العلاقات الإدريسية ـ المدرارية بطابع العداء الذي اتخذ صورة تدبير المؤامرات أولا ثم تحول إلى صراع عسكري أسفر عن توسع الأدارسة على حساب بني مدرار. ولا يرجع هذا العداء إلى الاختلاف المذهبي بين الأدارسة الزيدية والمدراريين الصفرية؛ بقدر ما تأصل نتيجة أسباب سياسية واقتصادية واجتماعية.

---

(٢٣) مجهول : الاستبصار : ٢٠٠.
(٢٤) صورة الأرض : ٨٣.
(٢٥) Les Siecles obscurs, P. P.9-14.

فسياسيا؛ صادق المدراريون أعداء الأدارسة من بورغواطة وبني رستم وبني أمية بالأندلس. كما أن قيام دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى تم على حساب الخوارج الصفرية(٢٦). وبرغم جهود الأدارسة في محو المذهب الصفري والقضاء على نفوذ القبائل التي اعتنقته كمديونة ومكناسة ومطغرة؛ ظلت جماعات من الصفرية تقيم بدولة الأدارسة وإن كان ولاؤها السياسي لبني مدرار. وحسبنا أنها كانت تدفع زكاة أموالها لشيوخ الصفرية في سجلماسة.

فإذا أضيف إلى ذلك أطماع الأدارسة في ذهب سجلماسة وفضة درعة؛ أدركنا الحافز الرئيسي على الصراع الإدريسي ـ المدراري. ذلك الصراع الذي أججه وجود قبائل من مغراوة وبني يفرن ومكناسة كانت تضرب في كل من الدولتين ضاربة عرض الحائط بالحدود السياسية المائعة.

وقد نجح الأدارسة في تجنيد بعضها ضد بني مدرار سواء في إثارة المشكلات داخل دولتهم أو إغراء بني جلدتها على الهجرة والإقامة بالدولة الإدريسية. لذلك تسقط دعاوى بعض الدارسين(٢٧) الذين وسموا العلاقات الإدريسية ـ المدرارية «بطابع المسالمة وحسن الجوار». صحيح أن الصراع العسكري لم يسفر عن إسقاط أية من الدولتين للأخرى؛ لكنه تمخض عن اقتطاع أقاليم مدرارية جرى ضمها للدولة الإدريسية.

ويبدو أن الطبيعة الجغرافية حالت دون قضاء الأدارسة الأقوياء على جيرانهم الضعفاء. إذ اعتصم المدراريون بواحتهم القصية في أقصى الصحراء واحتموا بسلاسل الجبال الفاصلة بينهم وبين الأدارسة(٢٨). ومع ذلك وجدت

---

(٢٦) محمود إسماعيل: الخوارج: ٤٢ وما بعدها.

(٢٧) انظر: حسن عبد العواد: دولة الأدارسة: ٢٥٣، رسالة ماجستير مخطوطة.

(٢٨) محمود إسماعيل: الخوارج: ١٣٠.

مناطق مدرارية دون حماية طبيعية شهدت صراعا مريرا أسفر عن اقتطاع الأدارسة أقاليم ومدنا وحصونا مدرارية هامة.

وإذ قنع الأدارسة بهذه المكاسب، لم يجدوا غضاضة في استمرار التبادل التجاري بين فاس وسجلماسة؛ حيث كانت القوافل تروح جيئة وذهابا بين الدولتين في أمان وسلام[٢٩].

وإذا كان مؤرخا مثل جورج مارسيه[٣٠] يرى أن سياسة الأدارسة استهدفت «استئصال شأفة صفرية سجلماسة»؛ فنحن نخالفه الرأي بناء على أن المشروع الإدريسي السياسي التوسعي استهدف إفريقية ومنها إلى مصر في المحل الأول.

وبالمثل ما كان من الممكن لدولة المدراريين في أقصى الصحراء أن تسقط الأدارسة الأقوياء. هذا فضلا عن أن جل نشاطهم انصرف بالدرجة الأولى إلى التجارة عبر الصحراء. وعلى ذلك يمكن القول أن الصراع الإدريسي ـ المدراري تمحور حول سياسة إدريسية هجومية توسعية قوبلت من جانب بني مدرار بالصمت التام حينا وتدبير المكائد ضدهم حينا آخر.

في ضوء هذه الرؤية يمكن استعراض أطوار العلاقات العدائية بين الطرفين.

دشن إدريس الأول علاقته بالمدراريين بإنفاذ حملة عسكرية للاستيلاء على تلمسان. ونلاحظ أن معظم رجالها كانوا من زناتة وبعض بطون مكناسة التي

---

(٢٩) ابن حوقل: ٦٥، إبن أبي زرع: ٥٣.

(٣٠) La Berberie Musulmane. p. 124.

تخلت عن مذهبها الصفرى وخضعت للنفوذ الإدريسي[٣١]. ولا يخلو ذلك من دلالة على دهاء إدريس؛ إذ استهدف قيام هذه القبائل بإغراء بني جلدتها في تلمسان وما حولها للأنضمام إلى الدولة الإدريسية. وهذا يفسر لماذا لم يجد إدريس صعوبة في دخول المدينة دون قتال يذكر.

ولما كانت تلمسان وأحوازها مؤئلا للخوارج الصفرية مذ أسس أبو قرة إمارة خارجية صفرية بها؛ فإن نجاح إدريس الأول في الاستيلاء عليها حرم المدراريين من ظهير بشري هائل، فضلا عن مدينة ذات شهرة اقتصادية فائقة، بالإضافة إلى تشكيل إدريس خطرا محدقا على التخوم الشمالية للدولة المدرارية.

ومع ذلك؛ لم يعدم المدراريون ولاء بعض سكان المدينة ممن رضخوا لحكم إدريس الأول قسرا. ومن ثم اهتبلوا الفرصة فحرضوهم على الانتزاء بعد أن غادر إدريس تلمسان. وهذا يفسر لماذا جرد إدريس الثاني حملة أخرى تمكنت من استردادها والإثخان في الصفرية من سكانها سنة ١٩٧هـ. ولعل في بقاء إدريس الثاني بتلمسان قرابة ثلاثة أعوام ما يفصح عن رغبته «في محو آثار الصفرية بها»[٣٢].

أما لماذا لم يهب المدراريون لنجدة صنائعهم؛ فيرجع إلى استحالة إنفاذ جيوش من سجلماسة إلى تلمسان إلا عبر أراضي الدولة الإدريسية. إذ أن الطريق من سجلماسة إلى تلمسان يمر بدرعة وأغمات وتادلا وفاس[٣٣] وكلها مدن تخضع للأدارسة منذ عهد إدريس الأول.

---

(٣١) ابن خلدون: ٤ : ١٢.
(٣٢) نفسه: ١٣.
(٣٣) محمود إسماعيل: الخوارج: ١٣٧.

وأصل الأدارسة سياستهم في اقتطاع أطراف الدولة المدرارية؛ خاصة ما تمتع منها بأهمية اقتصادية أو استراتيجية. وساعد على ذلك ما جرى من سياسة اللامركزية التي طبقها محمد بن إدريس حين أسند حكم الولايات لإخوته. إذ تبارى هؤلاء في توسيع مجال نفوذهم على حساب بني مدرار. وقد انفرد اليعقوبي[٣٤] بذكر معلومات ضافية وهامة في هذا الصدد؛ إذ عاين عن كثب ماجريات الصراع الإدريسي المدراري في تلك الأصقاع. وأخبرنا أن الأمير عبدالله بن إدريس ـ الذي استقل بأغمات ونفيس والسوس الأقصى ـ تمكن من اقتطاع بعض الحصون الهامة التابعة لبني مدرار. وأن أخاه يحيى بن إدريس نجح في اقتطاع بلدة تامدلت ـ قرب درعة ـ وهدد مناجم الفضة في درعة نفسها[٣٥]. لكن انشغاله بالصراع مع إخوته حال دون الاستيلاء عليها.

وتمثل رد الفعل المدراري في تحريض الصفرية في دولة الأدارسة ضد عمر بن إدريس أمير فاس؛ مستهدفين كذلك تهديد مناجم الفضة بفازاز وأوزفور داخل دولة بني إدريس[٣٦]. لذلك كان المدراريون من وراء انتزاء عبد الرزاق الصفري الذي تزعم جيشا من مكناسة ومديونة وغياثة توجه به إلى فاس، ونجح في الاستيلاء على عدوة الأندلسيين. لكن مقاومة سكان عدوة القرويين واستنجادهم بيحيى بن القاسم بن إدريس حال دون إتمام فتح الصفرية فاس. وانتهت الثورة بالفشل ومقتل زعيمها عام ٢٩٣هـ.

وما يعنينا من أمر هذه الثورة هو قيامها بتحريض من بني مدرار. وهي حقيقة أكدها جورج مارسيه[٣٧] حين لاحظ انطلاقها من مناطق التخوم المجاورة

---

(٣٤) البلدان: ٣٥٩: ليدن ١٨٩٣.

(٣٥) نفس المصدر والصفحة.

(٣٦) عبدالكريم بيصعين: ٦١.

(٣٧) La Berberie Musulmane, p. 126.

لدولة المدراريين تم امتدادها شمالا إلى فاس.

ويبدو أن النجاح النسبي لهذه الثورة شجع المدراريين على التفكير في غزو دولة الأدارسة؛ خصوصا وأن اليسع بن مدرار أمير سجلماسة نجح في توطيد أركان دولته بعد قضائه على الفتنة الداخلية. لذلك أعد حملة(٣٨) لهذا الغرض؛ لم يقدر لها مبارحة سجلماسة نظرا لمباغته الخطر الفاطمي الذي أسقط الدولة المدرارية نفسها سنة ٢٩٧هـ.

هكذا اتسمت العلاقات الإدريسية ـ المدرارية بطابع العداء الذي ترجم إلى صراع عسكري كانت نتائجه في الغالب الأعم لصالح الأدارسة.

(جـ) العلاقات الإدريسية ـ الرستمية:

تمدنا المصادر بمادة ضافية عن هذا الموضوع أكثر من تلك التي تتعلق بعلاقات الأدارسة مع بورغواطة وبني مدرار. وهذا راجع إلى نجاة الكثير من المخطوطات الإباضية من عبث الغزو الفاطمي لتاهرت سنة ٢٩٧هـ.

قامت دولة بني رستم بالمغرب الأوسط سنة ١٦٢هـ. وبرغم اتساعها جغرافيا لتشمل المغربين الأدنى والأوسط إلا أن نفوذها في غالب الأحيان لم يتجاوز تاهرت وأحوازها فضلا عن تبعية جبل نفوسة تبعية واهية. وهذا يعني أن معظم أراضي الدولة الرستمية كانت بوادي ارتبطت بتاهرت أو خرجت عليها حسب قوة الأئمة الرستميين أو ضعفهم.

وما يعنينا أن التخوم الشمالية الغربية لدولة بني رستم كانت مصاقبة لدولة الأدارسة. وإذا كان عبد الرحمن بن رستم قد وطد نفوذه داخل هذا الإقليم عن

(٣٨) ابن الخطيب: ٣: ١٤٥.

طريق مصاهرة سكانه من بني يفرن الزناتين؛[39] فقد تعرض هذاالنفوذ للانهيار في عهود خلفائه ليستبدل بنفوذ الأدارسة. وغدى الإقليم مثار نزاع بين الطرفين إلى أن تأكد ضمه للأدارسة في عهد إدريس الثاني.

ونستطيع أن نؤكد طابع العداء بين الأدارسة والرستميين استنادا إلى هذا النزاع. ومن ثم لا سبيل لتصديق القائلين[40] بأن العلاقة بين تاهرت وفاس قامت على أساس «المسالمة والتعايش وحسن الجوار».

يضاف إلى ذلك مشكلات أخرى أججت الصراع بين الطرفين؛ منها الاختلاف المذهبي بين العلويين الزيدية والخوارج الإباضية حيث تدثر الصراع بين الطرفين بغطاء المذهبية التي عكست صراعا أعمق إقتصاديا وسياسيا واجتماعيا. إذ عاشت طوائف إباضية داخل دولة الأدارسة كما عاشت طوائف زيدية واعتزالية داخل الدولة الرستمية عولت على دفع زكاة أموالها لشيوخ طوائفها في الدولة الأخرى. كما قامت بدور سياسي مناهض ضد حكام الدولة التي عاشت في كنفها لصالح الدولة الأخرى. وود كل منها لو هاجر إلى الدولة الأخرى للعيش في كنف أئمتها الذين كانوا على مذهبها[41].

من هذه المشكلات أيضا أن أقليات عنصرية وقبلية عاشت في كل من الدولتين وكان ولاؤها متذبذبا، فتارة توالي الرستميين وأخرى تشايع الأدارسة. وفي الحالين معا شكلت حجر عثرة أمام بسط نفوذ «المخزن» على سائر عناصر السكان داخل حدود الدولة. فمعلوم أن عناصر فارسية عاشت في فاس[42] منذ

---

(٣٩) أبو زكريا: السيرة وأخبار الأئمة، ورقة ١٤، مخطوط بدار الكتب المصرية.

(٤٠) حسن عبد العواد: المرجع السابق، ص ٢٤٥.

(٤١) محمود إسماعيل: الخوارج: ١٦٠، ١٦١.

(٤٢) ذكر ابن أبي زرع: أن هذه العناصر الفارسية أسهمت في بناء مدينة فاس التي عرفت لذلك

تأسيسها، كما وفدت عناصر أخرى فارسية من إفريقية الأغلبية على إثر الصراع الشعوبي بها(٤٣). وقد شكلت هذه العناصر «طابورا خامسا» لبني رستم الفرس. كما ضربت قبائل من بربر هوارة وزناتة في دولة بني إدريس كانت على المذهب الإباضي ثم أرغمت على التخلي عنه. لكنها لم تفتأ تتصل بأئمة تاهرت الإباضية لتحريرهم من سطوة الأدارسة.

وبالمثل وجد في دولة بني رستم بطون من بعض قبائل البربر التي ضربت قبائلها الأصلية في الدولة الإدريسية، وكانت هذه البطون تسعى للانضمام لقبائلها الأصلية في الدولة الإدريسية(٤٤). ولم تأل جهدا في إثارة المتاعب ضد بني رستم لصالح الأدارسة.

كما أن قبائل البتر من البدو الرعاة لم تجد حرجا في اقتحام الحدود «المائعة» بين الدولتين، الأمر الذي أثار النزاع بين الأدارسة والرستميين من أجل إقرار سلطانهم عليها.

فإذا أضيف إلى ذلك كله صلات الرستميين الودية بأموي الأندلس أعداء الأدارسة؛ أدركنا أن الصراع بين الطرفين كان قدرا محتوما.

والملاحظ أن كفة الأدارسة كانت أرجح في هذا الصراع رغم اتساع دولة بني رستم. ويرجع ذلك إلى أن تاريخ الرستميين كان سلسلة متصلة من الانشقاقات المذهبية والحروب الأهلية القبلية والعنصرية، فضلا عن الصراع حول

باسم «مدينة الفرس» ثم حرفت إلى «فاس».
راجع؛ القرطاس: ص٤٥.

(٤٣) السنوسي: الدرر السنية: ٦٢.

(٤٤) أبو زكريا: ٣٦.

الإمامة بين أفراد الأسرة الحاكمة[٤٥]. وهذا يفسر لماذا أمسك الأدارسة دائما بزمام المبادرة، ولماذا اتهم المؤرخون[٤٦] بني رستم بالموادعة والاستكانة والخذلان.

في ضوء هذه الاعتبارات يمكن رصد أطوار الصراع الإدريسي ـ الرستمي الذي انتهى لصالح الأدارسة.

بدأ العداء بين الطرفين على إثر قيام دولة الأدارسة سنة ١٧٢هـ. إذ أرغم الإباضية من قبائل زناتة وهوارة وزواغة ولماية ونفزة على مبايعة إدريس الأول قسرا[٤٧]. كما أن إدريس أثخن في إباضية أسافل شلف حين توجه إلى تلمسان سنة ١٧٣هـ.[٤٨] بل إن استيلاءه على تلمسان ذات الشهرة التجارية والاستراتيجية والكثافة البشرية تم على حساب نفوذ الرستميين والمدراريين[٤٩].

وتمثل رد الفعل الرستمي في تجنيد الإمام عبدالوهاب بن عبدالرحمن حملة لاسترداد هذا النفوذ المفقود؛ لكنه عاد أدراجه بعد أن خشي مغبة اقتحام تلمسان. ولم يكن بوسعه إلا إعمال الحيلة في الكيد لخصومه. لذلك رحب بمقدم سليمان بن عبدالله ـ الذي شجر نزاع بينه وبين المولى راشد عقب وفاة إدريس ـ بغية إحداث صدع في دولة الأدارسة[٥٠]. كما أوعز إلى إباضية تلمسان بالانتزاء؛ لكنهم لم ينعموا طويلا بالانفصال عن الأدارسة. إذ جرد عليهم إدريس الثاني

---

(٤٥) محمود إسماعيل: الخوارج: ١٥٤ وما بعدها.

(٤٦) انظر: Gautier: Op. Cit. p. 295.

(٤٧) ابن خلدون: ٤ : ١٢، Gautier: Op. Cit. p. 274.

(٤٨) ابن أبي زرع: ٢٣.

(٤٩) اليعقوبي: ٨٠، البكري: ٧٦.

(٥٠) البكري: ٧٧، ابن خلدون: ٤ : ١٧.

حملة أثخنت فيهم قتلا، وأرغم من بقي منهم على قيد الحياة على التخلي عن المذهب الإباضي[٥١].

وعبثا حاول هؤلاء طلب النجدة من الرستميين؛ لذلك اضطروا للاعتراف بطاعة الأدارسة، بل حاولوا إغراء بني رستم بأن يحذوا حذوهم.

ونظرا لانشغال الإمام عبدالوهاب الرستمي بمواجهة خطر الانشقاقات المذهبية في تاهرت وحركات الانفصال في جبل نفوسة[٥٢]؛ لم يتمكن من تصحيح الأوضاع في تخوم دولته. واكتفى بإنفاذ جند من نفوسة لشن إغارات متفرقة على تلمسان.

وانتقم إدريس الثاني من غريمه عبدالوهاب بتحريض طوائف المعتزلة والزيدية للثورة عليه. وبالفعل تجمع ثلاثون ألف معتزلي من هوارة وزناتة حول تاهرت فضلا عن معتزلة أيزرج[٥٣] وغيرها من الجيوب الاعتزالية التي عاشت شبه مستقلة في المغرب الأوسط[٥٤]. هذا بالإضافة إلى جماعات من العلويين الزيدية. وفي ذلك يقول أبو زكريا «تكاتفت كلمتهم واجتمعوا من كل نقب وجاءوا من كل أوب وأظهروا مخالفة الإمام».

دارت معارك كلامية وعسكرية كان الظفر فيها للثوار. ولم يستطع عبدالوهاب الرستمي فك الحصار حول تاهرت إلا بعد وصول إمدادات من جبل

---

(٥١) Mercier: Histoire de l'Afnique septentrionale, Vol. I. Paris, 1888, p. 89.

(٥٢) الشماخي: السير: ١٩٨، القاهرة ؟

(٥٣) اليعقوبي: ٨٠.

(٥٤) أطلق أحد الدارسين على تلك الجماعات مصطلح «إقطاعات الأسياد». انظر: محمد الطالبي: ٣٨٤، ٣٨٥.

(٥٥) السيرة وأخبار الأئمة: ٢٩.

نفوسة[٥٦]. وبرغم هزيمة الثوار وهرب من هرب منهم إلى دولة الأدارسة؛ مافتئوا يعدون العدة لجولة أخرى. وقد لاحت الفرصة في أواخر سني الدولة الرستمية حيث تكاتفوا مع الطوائف الأخرى «لتبييت خبر الإباضية»[٥٧].

وفي كل الأحوال كان الأدارسة ضالعين في إثارة هذه الجماعات ضد بني رستم. كذلك لا نشك في تحريض الأدارسة بربر هوارة الضاربين في الدولة الرستمية ضد أئمتها؛ خصوصا وأن مواطنهم الأصلية كانت في دولة الأدارسة[٥٨]. مصداق ذلك أنه بعد أن محق الرستميون تمردهم هربوا إلى جبل ينجان بالدولة الإدريسية وطفقوا يعدون العدة للثأر. حتى إذا عم الاضطراب تاهرت من جراء صراع العصبيات، نجحوا في اقتحامها سنة ٢٦٠هـ وتولى زعيمهم محمد بن مسالة السلطة ستة أعوام؛ إلى أن طردوا على يد الإمام الرستمي أبي اليقظان محمد بعد استعانته بقبائل البربر الأخرى وخاصة نفوسة[٥٩].

ما كان بوسع الرستميين الأواخر الرد على تلك المؤامرات الإدريسية رغم خطورتها، وهو أمر ينفي ما ذهب إليه جوتييه[٦٠] بأن الرستميين دأبوا في الرد على مبادرات بني إدريس العدائية. وبالمثل لا يمكن تصديق مقولته بأن إدريس الثاني أسس مدينة فاس خصيصا حتى يتحاشى مؤامرات بني رستم. إذ نعلم أن

---

(٥٦) محمود إسماعيل: الخوارج: ١٦١.

(٥٧) راجع: Motylinski: chronique d'Ibn Saghir sur les Imams Rostimides de Tahart, Actes du 14 Congres internationales des Orientalistes, Alger, 1905. Vol. 3. Part 2, p. 51.

(٥٨) محمود إسماعيل: الخوارج: ١٩٧.

(٥٩) نفسه: ١٩٩.

(٦٠) Les Siecles obscur. p. 290.

إدريس الأول هو الذي أسس المدينة، وأن إدريس الثاني زاد في عمرانها وانتقل إليها ليتحرر من هيمنة أوربة.

وبرغم ما آلت إليه دولة الأدارسة من ضعف وانهيار في العقد الثالث من القرن الثالث الهجري؛ لم يتمكن الرستميون من استرداد أراضيهم التي اقتطعها الأدارسة في أحواز تلمسان. وهذا ينفي ما ذهب إليه فورنل[٦١] من نجاح الرستميين في استرداد تلمسان ذاتها. إذ نعلم أن تلمسان وما حولها ظلت في حوزة آل سليمان، وشكلت «إمارة حاجزة» بين بني رستم وبني إدريس. وهذا يفسر بالمثل لماذا لم يقدم الأدارسة بدورهم على غزو تاهرت رغم تردي أحوالها حول ذلك التاريخ[٦٢]. إن ضعف الدولتين معا حال دون إقدام إحداها على غزو الأخرى.

وقد انتهز آل سليمان تلك الفرصة لتوسيع نفوذهم على حساب بني رستم؛ فنجحوا في شن إغارات على قلاعهم وحصونهم وموانيهم على البحر المتوسط أسفرت عن استيلائهم على بعض هذه المدن مثل مدينة الخضرا، وسوق إبراهيم وغيرها[٦٣]؛ بعد أن نكلوا بسكانها من الإباضية. وبرغم احتفاظ بني رستم ببعض المدن الساحلية الأخرى - كمرسى الدجاج ومرسى فروخ - إلا أن أخطار السليمانيين ما لبث أن هددت النشاط التجاري بينها وبين الأندلس[٦٤].

---

(٦١) Les Berbers, Vol. 2. p. 13.

(٦٢) محمود إسماعيل: الخوارج: ١٧٠ وما بعدها.

(٦٣) اليعقوبي: ٣٥٢، ٣٥٣.

(٦٤) أخطأ فنذر هيدن حين ذهب إلى أن آل سليمان استولوا على كافة الموانىء والمدن الرستمية على ساحل البحر المتوسط؛ حتى لاصقت حدود إمارتهم إفريقية الأغلبية. أنظر: La Berberie Orientale. p. 247.

ونجم عن استكانة الرستميين إزاء آل سليمان تخلي الكثيرون من البربر الإباضية عن مذهبهم واعتناقهم المذهب الزيدي(٦٥). ولقد لعب هؤلاء دورا بارزا في تدبير المكائد ضد الرستميين في تاهرت لصالح آل سليمان والأدارسة. وليس أدل على تعاظم نفوذهم من إرغامهم أئمة الرستميين الأواخر على الخطبة باسم علي بن أبي طالب في مساجد تاهرت(٦٦). كما أن دعوتهم «للعدل والتوحيد» أعزت عوام المدينة بالانضمام إليهم. ووصل نفوذ هؤلاء العوام إلى حد التحكم في تنصيب الأئمة الرستميين وعزلهم(٦٧).

مهدت هذه الظروف لإقدام بعض أمراء الأدارسة - مثل أبي العيش عيسى بن إدريس حاكم جراوة وأحمد بن القاسم بن إدريس حاكم كرت(٦٨) - على الاتصال بزعماء عوام تاهرت لتدبير ثورة ضد الإمام الرستمي أبي حاتم يوسف. ولما فشلت الثورة هرب زعماؤها لائذين بآل سليمان والأدارسة(٦٩).

على أن العداء السياسي بين الأدارسة وبني رستم لم يحل دون استمرار العلاقات التجارية بينهما(٧٠). ويخيل إلينا أن العلاقات الاقتصادية بين الأدارسة وسائر دول الخوارج في المغرب خففت إلى حد كبير من غلواء الصراع السياسي.

---

(٦٥) محمد الطالبي: ٦٢٥.

(٦٦) ابن الصغير: ٤٢.

(٦٧) محمود إسماعيل: الخوارج: ١٧٧.

(٦٨) شاركت بعض الزعامات العلوية غير الإدريسية هذين الأميرين من بني إدريس في التآمر مع عوام تاهرت ضد أئمتها من بني رستم. وقد أورد اليعقوبي أماكن هذه التجمعات العلوية، فذكر أنها تمركزت في هاز وزوارة وسهل متيجة ومليانة والخضراء وسوق إبراهيم وغمالتة وصبرة وجراية.
انظر: البلدان: ٣٥٣.

(٦٩) محمود إسماعيل: الخوارج: ١٩٩.
وكان الشاعر بكر بن حماد الزناتي - أخ زعيم عوام تاهرت محمد بن حماد - ضمن الذين اشتركوا في تدبير المؤامرة.

(٧٠) ابن حوقل: ٢٩٥، ابن خلدون: ٦: ٤٦١.

وفي ضوء ذلك يمكن تفسير عدم حدوث تغييرات ذات بال في خريطة المغرب السياسية خلال القرن الثالث الهجري. ويبدو أيضا أن صيغة «التوازن» التي حكمت العلاقات بين سائر دول الغرب الإسلامي آنذاك كانت نتيجة حرص كافة القوى على الإفادة من النشاط الاقتصادي المزدهر. وقد ظلت تلك الصيغة قائمة حتى ظهور الفاطميين الذين دشنوا بداية عصر جديد في تاريخ الغرب الإسلامي.

صفوة القول ـ أن سياسة الأدارسة إزاء دول الخوارج في المغرب اتسمت بطابع العداء الذي ترجم إلى صراعات عسكرية مريرة؛ لكنها لم تسفر عن الإطاحة بأي من هذه القوى؛ نظرا لفعالية الحافز الاقتصادي في صياغة تاريخ العلاقات السياسية آنذاك.

الفصل الثالث

سياسة الأدارسة إزاء أمويي الأندلس والفاطميين

ننوه في مستهل هذا الفصل بأننا سنتتبع العلاقات الإدريسية ـ الأندلسية إبان عصر الإمارة الذي يبدأ بإحياء عبدالرحمن بن معاوية ـ المعروف بالداخل ـ الحكم الأموي في الأندلس عام ١٣٨هـ وينتهي بإعلان عبدالرحمن الناصر الخلافة عام ٣١٦هـ.

أما عن العلاقات الإدريسية ـ الأندلسية إبان عصر الخلافة الأموية؛ فسوف نتتبعها في المبحث الأخير من خلال تبيان موقف الأدارسة من الصراع الفاطمي ـ الأندلسي بالمغرب الأقصى؛ حيث تتداخل الأحداث وتختلط وتتغير المواقف بتنوع معطيات وماجريات هذا الصراع.

هذا بالإضافة إلى أن الدولة الإدريسية قد تمزقت وتشرذمت وتباينت مواقف أمراء نواحيها إزاء بعضهم البعض، وبالمثل إزاء قطبي الصراع في المهدية وقرطبة؛ بحيث يستحيل تحديد موقف واحد وثابت للأدارسة إزاء الخصمين معا فضلاً عن القوى المحلية التي دارت في فلكها.

وننوه أيضا بأننا سنقف على انهيار وتداعي ثم سقوط الأدارسة من خلال عرضنا في الفصل التالي؛ بحيث لا تدعو الحاجة إلى إفراد مبحث مستقل في هذا لصدد.

أ ـ علاقات الأدارسة بأموي الأندلس في عصر الإمارة:

نعلم أن بني العباس أسقطوا الخلافة الأموية عام ١٣٢هـ. ونعلم أيضاً أن أحد أفراد البيت الأموي وهو عبدالرحمن الداخل استطاع النجاة من المذابح العباسية في الشرق وهرب إلى المغرب. ثم انتهز فرصة اضطراب الأندلس من جراء «الحرب لأهلية» وتمكن من اعتلاء الحكم في قرطبة عام ٣١٨هـ؛ ليستهل عصراً اصطلح المؤرخين على تسميته بعصر الإمارة. ذلك أن عبدالرحمن وخلفاءه تلقبوا بلقب «الأمير» ولم يجرؤا على اتخاذ لقب الخلافة إلا في عهد عبدالرحمن الثالث المعروف بالناصر.

وقد اتسمت علاقات الأدارسة بأمراء قرطبة الأمويين بالطابع العدائي. ويذهب بروفنسال[1] إلى أن هذا العداء موروث عن الصراع المعروف بين علي ومعاوية، فضلا عن العداء المتأصل بين الأمويين والعلويين؛ نظراً لما حل بالشيعة من محن على أيدي خلفاء بني أمية. لكننا نرى أن العلاقات الدولية لا تصاغ على أساس الاختلاف المذهبي والثأرات القديمة. وحسبنا أن زعماء الزيدية في الشرق لم يمانعوا في انضمام أتباع الأمويين إليهم حين ثاروا ضد بني العباس[2].

ويمكن الوقوف على أسباب العداءين أئمة فاس وأمراء قرطبة؛ إذا ما أدركنا صحة قاعدتين هامتين حكمتا العلاقات بين الطرفين وهما:

أولا: استناد العلاقات الدولية في الغرب الإسلامي آنذاك إلى قاعدة «توازن القوى» والاعتراف بسياسة «الأمر الواقع». فلم يحدث قط أن حاولت أو استطاعت أي من هذه القوى أن تسقط الأخرى. وهذا راجع إلى عقد ائتلافات

---

(١) انظر: Histoire de l'Espagne Musulmane. Vol.I. Alger. 1944. p. 173.

(٢) انظر: الفصل الأول من الباب الأول.

وتحالفات سياسية حافظت على صيغة «التوازن» تلك. شهد الغرب الإسلامي آنذاك محورين أسايين؛ المحور العباسي ـ الأغلبي وهو معاد لكافة دول الغرب الإسلامي التي كانت «إمارات استيلاء» قامت رغم أنف العباسيين. وتلخصت غاية هذا المحور في الحؤول دون تسرب نفوذ أي من هذه الإمارات نحو الشرق.

وضم المحور الثاني أمويو الأندلس ودول الخوارج الثلاث في المغرب فضلا عن إمارة الحميريين بنكور. وقد استهدف بالمثل الحيلولة دون تسرب العباسيين والأغالبة نحو المغرب. وهنا يصدق قول جوتييه[٣] أن «صيغة التوازن حكمت منظومة الأحداث في الغرب الإسلامي حتى اختلت بعد ظهور الفواطم».

أما الأدارسة؛ فلم يندرجوا في سلك أي من هذين المحورين واختطوا سياسة مستقلة. ونعتقد أن هذا الموقف راجع إلى مخططهم التوسعي صوب الشرق؛ الأمر الذي أدى إلى اصطدامهم بكافة القوى المجاورة فضلاً عن العباسيين. وبرغم هذا النهج الإدريسي الذي استجلب عليم عداوة كافة دول الغرب الإسلامي؛ ظلت صيغة «التوازن» قائمة. إذا أثبتت الأحداث عجزهم عن تنفيذ مخططهم التوسعي الطموح. كما كفلت هذه الصيغة بقاء دولة الأدارسة واستمرارها بطريق غير مباشر. إذ لم يكن بوسع الأغالبة ولا العباسيين القضاء عليها إلا على أنقاض دول الخوارج المجاورة والمعادية للثالوث العباسي الأغلبي والإدريسي. وبالمثل لم يتطلع أمويو الأندلس للقضاء على دولة الأدارسة ـ برغم العداء ـ لأنها شكلت «دولة حاجزة» بينهم وبين الأغالبة أفصال بني العباس ومنفذي سياساتهم في الغرب الإسلامي. ولم يكن بوسع الأدارسة كذلك غزو الأندلس نظراً لأن إمارة الحميريين بنكور ـ الموالية لقرطبة ـ شكلت بالمثل إمارة

---

(٣) Les siecled obscurs. p. 413.

حاجزة بين أمراء فاس وأمراء قرطبة. وهذا يفسر أخيراً لماذا ظلت خريطة الغرب الإسلامي السياسية دون تعديل أو تغيير يذكر. ولماذا ظلت «الأوضاع الراهنة» ـ «Status-quo» ـ تفرض وجودها على سائر القوى برغم سياسة تكوين المحاور السياسية.

ثانياً: مما زاد في إقرار صيغة التوازن وبقاء سياسة الاعتراف بالأمر الواقع؛ حرص كافة القوى على الإفادة من النشاط التجاري المزدهر الذي شهده العالم الإسلامي بأسره في ذلك الحين. ومن هنا تبرز أهمية الأوضاع الاقتصادية في صياغة العلاقات الدولية. فعلوم أن الغرب الإسلامي ـ على نحو خاص ـ شهد نهضة زراعية ورعوية وصناعية وتجارية بعد أن استقل عن الخلافة الشرقية. وكان من صالح كافة قواه الإفادة من هذا الرخاء عن طريق التبادل التجاري؛ وذلك بتأمين الطريق التجاري بين الشرق والغرب، وبين الشمال والجنوب. وقد كشف موريس[٤] لومبار عن أهمية ذهب السودان ورقيقه بالنسبة لدول الغرب الإسلامي خصوصاً والعالم الإسلامي بوجه عام بما يغني عن البيان. ونرى أن ما شجر من صراعات في الغرب الإسلامي إنما كانت من جراء التنافس بين دوله حول الطرق والمنافذ والمدن والمواني ذات الصلة بتجارة الشرق ـ الغرب والشمال ـ الجنوب. ونعتقد أن هذه الصراعات لم تصل إلى حد القطيعة بحيث خففت المصالح الاقتصادية المشتركة من غلواء المذهبية والإثنية والتناحر السياسي والعسكري.

في ضوء هذين العاملين يمكن تحديد أسباب العداء الإدريسي ـ الأموي والوقوف على مظاهره ووسائله ومعرفة أهدافه وغاياته.

---

(٤) الذهب الإسلامى منذ القرن الثامن حتى القرن الحادي عشر الميلادي: ٦٤ وما بعدها.

أما عن الأسباب؛ فترجع ـ بالدرجة الأولى ـ إلى كون دولة الأدارسة تمثل أخطر القوى المغربية على الأندلس خصوصاً بعد أن توسعت على حساب دول الخوارج وتحكمت في مقدرات اقتصادية وطاقات بشرية متعاظمة. وهذا يفسر لماذا وطدت قرطبة صلاتها بالدول المجاورة للأدارسة. ويفسر أيضا حكم أحد الباحثين(٥) بأن «أموي الأندلسي عملوا على إفساد أي مخطط شيعي بالمغرب الأقصى»، وحكم آخر(٦) بأنهم «أولوا أمور العدوة اهتماماً كبيراً رغم مشاكلهم الداخلية». ونرى أن هذا الاهتمام لم يقتصر فحسب على الجوانب السياسية، بل انسحب إلى النواحي الاقتصادية؛ إذ حرص أمويو الأندلس على أن تظل أسواق المغرب الأقصى والأوسط مفتوحة أمام بضائعهم فضلاً عن الفوز بنصيب من تجارة السودان.

لم يكن الأدارسة ـ بالمثل ـ بمنأى عن اليد الطولي لحكام قرطبة؛ لذلك عملوا لهم ألف حساب خاصة بعد سيطرة أساطيلهم على القطاع الغربي من البحر المتوسط فضلا عن شواطىء المحيط الأطلسي.

يضاف إلى ذلك وجود قبائل من البربر بالأندلس كانت أصولها تضرب في دولة الأدارسة، كذا وجود عناصر أندلسية تعيش في كنف الدولة الإدريسية، وظفها الطرفان في الكيد والدس ضد بعضهما البعض؛ الأمر الذي زاد في العداء بينهما.

أما عن مظاهر العداء، فلم يكن بينها المواجهة العسكرية بطبيعة الحال؛ حتى تخيل بروفنسال(٧) أن العلاقات بين فاس وقرطبة كانت ودية. إنما اقتصرت

---

(٥) السيد عبدالعزيز سالم: المغرب الكبير: ٢: ٥٦٩، الاسكندرية ١٩٦٦.

(٦) محمد الطالبي: ٤١٣.

(٧) Histoire de l'Espagne Musulmane, Vol.1, p. 247.

هذه المظاهر على حيك المؤامرات والمكائد والتجسس وتشجيع المتزين؛ وهو ما سيظهر بوضوح من خلال العرض.

لعل أول إشارة في المصادر عن علاقات فاس بقرطبة ما ذكره ابن الخطيب[٨] وابن عذارى[٩] عن تشجيع الأدارسة الثوار على أمراء قرطبة؛ إذ ذهبا إلى أن عبدالله البلانسي وأخاه سليمان تواطآ مع إدريس الأول للثورة على أخيهما الحكم بن هشام الذي انفرد بالسلطة في قرطبة. لذلك أقاما ردحا في دولة الأدارسة يعدان العدة حتى أمدهما إدريس الأول بجند من العدوة فغادراها إلى الأندلس؛ الأول في عام ١٨٠هـ والثاني في عام ١٨٢هـ. ويخطىء بعض الدارسين[١٠] الذي ذهبوا إلى أن إبراهيم بن الأغلب أمير إفريقية هو الذي ساعدهما للإطاحة بابن أخيهما. وليس أدل على هذا الخطأ من أن إبراهيم لم يكن قد تولى بعد إمرة افريقية؛ إذ الثابت أن ولايته تمت عام ١٨٤هـ.

وإذا كنا لانشك في أن إدريس الأول هو الذي ساعد الثائرين؛ فمن المحقق خطأ الزعم[١١] بأن الحكم بن هشام أوفد سفارة إلى فاس لتهنئة إدريس الثاني عقب تقلده الحكم. والأكثر غرابة القول بأن هذه السفارة أزمعت عقد تحالف مع إدريس الثاني ضد العباسيين والأغالبة. والأقرب للمنطق أن يتخوف الحكم بن هشام من خطر إدريس الثاني بعد تقاطر وفود من إفريقيه والأندلس من العرب والبربر لمبايعته والعيش في كنف دولته[١٢]. يفسر ذلك ما أقدم عليه

---

(٨) اعمال الأعلام: ٣ : ١١.

(٩) البيان المغرب: ٢ : ٩٤.

(١٠) انظر عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٢٣١، القاهرة ١٩٦٩،

Conde: History of the domenion of the Arabs in Spain, Vol.1, London, p. 247.

(١١) Scott: History of the Moorish empire in Europe. Vol.1, London, 1904, p. 456.

(١٢) محمد عبدالله عنان: ٢٤١.

من استدعاء جيشه الذي كان يقاتل الفرنجة في الثغر الأعلى نتيجة استفحال خطر إدريس بأرض العدوة[١٣].

وليس أدل على طابع العداء بين العاهلين من ترحيب إدريس الثاني بالثائرين على الحكم من أهل الربض وتخصيص عدوة الأندلسيين بفاس لسكناهم. وقد استهدف إدريس من ذلك عدة غايات؛ الأولى: الإفادة من خبرة هؤلاء المهاجرين في أمور العمران بدولته خاصة وأن معظمهم كانوا من الحرفيين والصناع المهرة[١٤]. والثانية؛ الاستعانة بهم لموازنة نفوذ البربر في دولته والتحرر من نفوذ قبيلة أوربة على نحو خاص. والثالثة: توظيفهم في تدبير وتنفيذ المكائد ضد خصمه جريا على سياسة الأدارسة الشائعة في هذا الصدد[١٥]. ولذات الدوافع لم يتقاعس إدريس الثاني وخلفاؤه عن الترحيب بمزيد من الهجرات الأندلسية ـ نتيجة القحط ـ وإسكانهم فاس وأصيلا والبصرة[١٦].

وقد تجلت سياسة الأدارسة في الكيد لأموي الأندلس حينما ناصروا الثائر عمر بن حفصون. إذ نعلم أنه اتصل بادىء الأمر بالأغالبة لمساعدته على أن تكون ثورته على أمراء قرطبة باسم العباسيين. فلما تقاعسوا عن نصرته[١٧] لجأ إلى الأمير الإدريسي إبراهيم بن القاسم صاحب البصرة وطلب منه المؤازرة على أن يقيم الخطبة باسمه[١٨]. يؤكد ذلك ما ذكره ابن عذارى[١٩] من أن

---

(١٣) نفسه: ٢٤٢.
(١٤) عبدالكريم بيصعين: ٩٠.
(١٥) مجهول: نبذ تاريخية من أخبار البربر في القرون الوسطى، ص٤٢٣، الرباط ١٩٣٩.
(١٦) ابن حيان: المتقبس من أخبار أهل الأندلس، تحقيق د. محمود مكي، بيروت ١٩٧٣، ص ٢٦٦، البكري: ١٠٩، ١١٠.
(١٧) راجع: محمود إسماعيل: الأغالبة: ١٢٩، ١٣٠.
(١٨) محمد الطالبي: ٤١٤.
(١٩) البيان المغرب: ٢: ٢٣٣.

«مراسلات ومكاتبات جرت بينهما في هذا النفاق». وفي ذلك يقول أحد الدارسين[٢٠] «تفاقم خطر عمر بن حفصون لأن الأدارسة أيدوه ماديا ومعنويا؛ خاصة وأن أطماع هذا الفرع من البيت الإدريسي كانت طموحة لزعامة المغرب الأقصى في ظل المذهب الشيعي الزيدي». ونجد مصداق ذلك في أشعار عبرت عن إحياء المشروع الإدريسي في تأسيس دولة زيدية بالمشرق[٢١].

أما عن موقف أمراء قرطبة إزاء هذا التآمر؛ فيمكن الوقوف عليه من خلال إحكامهم وشائج علاقات وطيدة مع الدول المجاورة للأدارسة بهدف تطويقها والحؤول دون تطلعها لتهديد الأندلس من ناحية، وتهديد مصالحهم الاقتصادية بعدم الاتجار مع أمير البصرة من ناحية أخرى.

ويكشف نص هام لابن حيان عن حقائق جد هامة في هذا الصدد من المفيد إثباته. يقول ابن حيان[٢٢]: «قال عيسى بن أحمد الرازي صاحب التاريخ: كان الأمير محمد بن عبد الرحمن شديد التهمم بخبر الساحل والعدوة، مراعيا لما هنالك من أخبار أعدائه، محتولا عنهم لكثير ممن يتصرف عليهم من ملوك البرابر الملقين إليه بالولاية؛ كبني مدرار ملوك سجلماسة ومحمد بن أفلح بن رستم أمير تاهرت وغيرهم».

---

(٢٠) عبد الكريم بيصعين: ١٩٤.

(٢١) عبر أحد الشعراء عن هذه الطموحات في أشعار تهجو القاسم بن إدريس؛ جاء بها:

قل للزنيم زنيم طنجة عش بها ... لا يحسدنك في بلادك حاسد
منتك نفسك أن تكون خليفة ... هيهات هذا من حديثك بارد

انظر البكري: ١٢٢.

وتظهر هذه الطموحات في أشعار للقاسم بن إدريس؛ حيث يقول:

سأترك للراغب الغرب نهبا ... وإن كنت في الغرب قيدا وندبا
وأسموا إلى الشرق في همة ... يعذبها رتبا من أحبا

(٢٢) المقتبس، تحقيق مكي، ص ٢٦٥.

وفي موضع آخر يقول[٢٣]: «كان لخلافة الأمير محمد بن عبدالرحمن نضارة ولأيامه زهوة. ولسلطانه جلالة سرت أخبارها إلى المشرق.. اعتقد له من أجله كثير من الملوك بالعدوة الولاية وألقوا إليه بالمودة... وكان أكفلهم بما لديه من أملاك أهل العدوة بنو مدرار ملوك سجلماسة وبنو أفلح بن عبد الوهاب الرستمي أمراء تاهرت وغيرهم».

وفي موضع ثالث يقول[٢٤] ابن حيان: «كان الأمير محمد كثير المواصلة لملوك العدوة، حريصا على استئلافهم، مواليا لمراسلتهم، مواظبا لمتاحفتهم.. يقول لوزرائه كثيرا وخدمته: استدعو مؤالفتهم بلطيف المخاطبة... ويأمر صاحب العمل دأبا أن يزيدهم في قيم ما يهديه كبارهم ويحمله تجارهم من بلادهم، غبطا لهم بمعاملته».

يفهم من النصين الأول والثاني الهدف السياسي عن عقد أمير قرطبة أواصر الوداد مع أمراء سجلماسة وتاهرت فضلا عن بورغواطة ونكور؛ حيث أردف النص بكلمة «وغيرهم».

وإذا كان الهدف السياسي من وراء تكتيل القوى الموالية لقرطبة موجها إلى العباسيين والأغالبة؛ فالأحرى أن ينسحب كذلك على الأدارسة. ذلك أن النص يذكر صراحة عبارة «أعداء الأمير محمد في العدوة»[٢٥]؛ خصوصا وأن مفهوم «العدوة» كان يعني المغرب الأقصى كما هو معرف لدى المتخصصين. ويفهم من النصين الأولين أيضا أسلوب التجسس الذي عولت عليه كافة القوى آنذاك؛ خاصة وأن النشاط التجاري يتيح لعيون دول الخوارج الوقوف على أخبار جيرانهم

---

(٢٣) نفسه: ٢٧٥.

(٢٤) نفسه: ١٢٥.

(٢٥) نفسه: ٢٦٥.

الأدارسة. وهو أمر استخلصه ابن حيان نفسه حين ذكر أن الأمير محمد لم يتقاعس عن إنفاذ عيونه وجواسيسه ضد أعدائه مموهين بالاشتغال في التجارة(٢٦).

أما النص الثالث؛ فيكشف في وضوح عن مصالح أموي الأدلس في تجارة المغرب؛ وبالذات ما تعلق منها بالسلع السودانية(٢٧). وهذا يفسر لماذا أوصى الأمير محمد وزراءه وعماله بحسن معاملة تجار العدوة.

وليس أدل على اهتمام أموي الأندلس بالتجارة المغربية والسودانية من الصلات الطيبة بين تجار الأندلس وتجار الأدارسة أنفسهم. إذ دأب الطرفان على التعامل في أسواق أصيلا رغم العداء السياسي بين فاس وقرطبة. وفي ذلك ذكر البكري(٢٨) أن هؤلاء التجار من الدولتين هم الذين اشتركوا في تأسيس أصيلا التي كانت في البدء رباطا تحول إلى سوق ثم أصبحت مدينة تجارية هامة بعد أن أسهم في بنائها وعمرانها تجار من دولة الأدارسة بالتعاون مع تجار من الأندلس.

هكذا كان النشاط التجاري بين فاس وقرطبة مستهدفا في حد ذاته من ناحية وموظفا لأغراض سياسية تتعلق بالتجسس من ناحية أخرى(٢٩). وفي هذا الميدان أبلى «الجواسيس التجار» الأندلسيين بلاءا حسنا(٣٠).

وإذا كانت دول الخوارج قد تبنت المصالح الأندلسية التجارية والسياسية في المغرب؛ فإن إمارة الحميريين بنكور لعبت نفس الدور لصالح قرطبة ضد أمراء

---

(٢٦) نفسه: ٢٦٩.
(٢٧) عن مزيد من المعلومات: راجع: محمود إسماعيل: الخوارج: ٢٧١ وما بعدها.
(٢٨) المغرب: ٨٨.
(٢٩) ابن حيان: ٢٧٥.
(٣٠) محمود إسماعيل: مغربيات؛ ١٥٨، ١٥٩.

الأدارسة. ففضلا عن متاخمتها دولة الأدارسة شمالا؛ الأمر الذي جعل منها «خط دفاع أول» ضد أية تحرشات إدريسية بالأندلس؛ كانت على صلات تجارية وثيقة بقرطبة[٣١]. وقد أثبت أحد الدارسين[٣٢] ـ بما يغني عن اللجاج ـ هذا الدور السياسي الذي تبنته إمارة نكور لصالح أموي الأندلس فضلا عن الدور التجاري، حيث كانت موانيها مثل مليلية وتمسامان ونكور تغص بالسفن الأندلسية لنقل الخشب والحديد الذي أفاد منه أمويو الأندلس في بناء أساطيلهم الحربية والتجارية.

هكذا اتسمت العلاقات الإدريسية ـ الأندلسية في عصر الإمارة بطابع العداء الذي اتخذ صورا شتى؛ لكنه لم يصل قط إلى حد امتشاق الحسام.

(ب) موقف الأدارسة من الصراع الفاطمي ـ الأموي بالمغرب الأقصى:

بظهور الخلافة الفاطمية في إفريقية والأموية بالأندلس وتدهور دولة الأدارسة بعد تمزقها وتشرذمها؛ اتخذت العلاقات بين هذه القوى الثلاث مسارا جديدا. فقد شهد المغرب الأقصى صراعا داميا بين أموي الأندلس والفواطم تذبذبت إبانه مواقف الأدارسة إزاءهما حتى قضى عليها في النهاية سنة ٣٧٥هـ.

ومن المفيد الكشف عن أسباب هذا الصراع وتحديد مصالح القوى التي انزلقت إليه، كذا الوقوف على الأساليب والوسائل التي تذرعت بها لتحقيق هذه الأهداف.

---

(٣١) Provencal: Op. Cit. Vol. 1. p. 249.

(٣٢) انظر: عبد الكريم بيصعين: ٣٣، ٦٤.

السياسية والاستراتيجية والاقتصادية جبت الاختلافات المذهبية والتناقضات الإثنية التي كانت مجرد وسائل توسلت بها قوى الصراع لتحقيق أهدافها أحيانا ومظاهر لهذا الصراع أحيانا أخرى. وفي ذلك يقول أحد الباحثين[٣٣]: «جرى هذا الصراع الطويل لتحقيق مصالح حيوية واستراتيجية تكمن في السيطرة على طرق ومدن ومحطات التجارة في المغرب الأقصى». ويقول آخر[٣٤]: «إن السبب الجوهري للصراع الفاطمي الأموي كمن في السيطرة على المسلك التجاري الغربي إلى بلاد السودان». فالفاطميون حرصوا على الوصول إلى هذه الطرق والمدن ذات الأهمية بالنسبة لتجارة الشرق ـ الغرب والشمال ـ الجنوب لجمع الثروات التي تعين على تحقيق أطماعهم في مصر. وهذا يفسر لماذا كانت سياساتهم في المغربين الأوسط والأقصى لا تهتم بالتوسع بهدف الاستقرار قدر إنفاذ الحملات بين الفينة والأخرى لضمان موارد التجارة الدولية وفرض المغارم والجبايات على السكان. وقد اعتمدوا في ذلك على قبائل كتامة وصنهاجة العدو التقليدي لقبائل زناتة الصديق التقليدي لأموي الأندلس.

وأمويو الأندلس تدخلوا في شؤون المغرب الأقصى لا خوفا من غزو فاطمي وشيك لبلادهم بقدر الحيلولة دون هيمنتهم على موارد التجارة السودانية[٣٥]. وكانت عدتهم في هذا الصراع قبائل زناتة خاصة تلك التي هاجرت من مواطنها في المغرب الأوسط لتستقر بالمغرب الأقصى تحت ضغط الفاطميين وحلفائهم من

---

(٣٣) نفسه: ص٣٨١، ٣٨٢.

(٣٤) انظر: الحبيب الجنحاني: دراسات مغربية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي، ص ٧٣، بيروت ١٩٨٠.

(٣٥) محمود إسماعيل: سوسيولوجيا الفكر الإسلامي: ٢: ٢٣١ وما بعدها، الدار البيضاء ١٩٨٠.

صنهاجه(٣٦). كما اعتمدوا على العناصر الأندلسية التي استوطنت المغرب الأقصى منذ عصر الإمارة. وعلى ذلك يمكن القول بأن الصراع بين صنهاجة وزناتة لم يكن إثنيا بقدر ما استهدف مراقبة مسالك تجارة الصحراء(٣٧). وهذا يفسر لماذا حرص القطبان على تكريس الجهود العسكرية في المناطق الاستراتيجية كبلاد الريف وسواحل البحر المتوسط ومنطقة تازا ومدن وموانىء المحيط الأطلسي.

أما الأدارسة؛ فقد تعرضوا للخطرين معا. إذ أن وجودهم غير القار سواء في فاس والبصرة أو في بلاد غمارة وحجر النسر أو سواحل المحيط؛ دخل ضمن ميدان الصراع في المنطقة الحيوية التي تنازع عليها الفاطميون والأمويون. ونظرا لتمزق دولتهم في عهود خلفاء محمد بن إدريس؛ فقد وقفوا موقف المتردد؛ تارة يؤيدون الفاطميين وأخرى يناصرون الأمويين حسب مقتضى الحال. مستهدفين من ذلك مجرد البقاء والاستمرار، واسترداد وحدة دولتهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا. وهنا صدق أحد الباحثين(٣٨) حين قال: «تلخص هدف الأدارسة في الهيمنة على الأرض أو بسط السلطان السياسي».

أما عن الوسائل والأساليب التي تذرعت بها قوى الصراع؛ فكان أهمها تجريد الحملات العسكرية، وقد ارتهن إنفاذ هذه الحملات بمعيار القوة والضعف، فضلا عن مقتضيات ماجريات حركة الصراع في المغرب الأقصى.

كما عمد المتصارعون إلى استرضاء القوى المحلية وكسبها إما بالقوة والغلبة أو بالبذل والعطاء. وقد أفلح هذا الأسلوب في التعامل مع مجتمعات شهدت فراغا سياسيا من ناحية وسادتها السخائم العصبية ومزقتها الإحن المذهبية من ناحية أخرى.

---

(٣٦) Provencal: Op. cit. Vol. 3, Paris, 1950, p. 79.

(٣٧) Al-Laroui: L'Histoire du Maghreb, Paris, 1970, p. 127.

(٣٨) أحمد بدر: تاريخ الأندلس في القرن الرابع الهجري، ص ٨٢، دمشق ١٩٧٤.

كما أن أسلوب التجسس كان أداة هامة وظفت على نطاق واسع لتحقيق أهداف الصراع من لدن القوى الثلاث[٣٩]. فعبدالرحمن الناصر لم يعدم عيوناً وجواسيس من زناتة ومن العناصر الأندلسية المقيمة بالمغرب الأقصى. وفي ذلك يقول ابن سعيد[٤٠]: «وكانت للناصر عيون على ما قرب وبعد، صغر أو كبر». أما الحكم المستنصر فقد أوصى قواد حملاته بقوله: «فليكن منكم دسيس إعلام وتقديم تعريف إلى خاصتهم وعامتهم»[٤١].

وبديهي أن يتفوق الفاطميون في هذا المجال نظراً لطول باعهم في معرفة أفانين النشاط السري. لذلك أنفذوا العيون والجواسيس المتخفين في ثياب العلماء والتجار إلى المغرب الأقصى والأندلس. وحسبنا دور جماعة «إخوان الصفا» في هذا الصدد. ومن مشاهير جواسيس الفواطم العالم أبو اليسر الرياضي وابن حوقل التاجر والرحالة اللذان جمعا معلومات ضافية عن أحوال المغرب الأقصى والأندلس؛ جغرافياً وبشرياً[٤٢].

وبالمثل اتخذ الأدارسة عيوناً وجواسيس للإعلام بأخبار إفريقية والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى والأندلس. خاصة وأنهم لم يعدموا وجود شيعة على مذهبهم في سائر هذه الأنحاء.

وثمة أسلوب آخر تذرع به المتصارعون هو الدعاية الإديولوجية؛ التي كرست لكسب الأعوان والأتباع والأنصار. فلم يأل الفاطميون جهداً في بث الدعوة الإسماعيلية ببلاد المغرب والأندلس. ولم يتوان أمويو الأندلس عن تبرير

---

(٣٩) Provencal: Op. cit. Vol.3, p.p. 502, 3.

(٤٠) المغرب في حلي المغرب، جـ١، ص١٨٥، بيروت ١٩٤٨.

(٤١) ابن حيان: قطعة عبدالرحمن الحجي، ص٧٦، بيروت ١٩٦٥.

(٤٢) احمد بدر: ١١١.

مشروعية خلافتهم حين غلفوها بالمذهب المالكي السني نكاية في الفاطميين الأسماعيلية والأدارسة الزيدية. وحسبنا أن الخليفة المستنصر أمر الفقهاء بحفظ مدونة سحنون[٤٣]، كما أنفذهم إلى بلاد المغرب لكسب نظرائهم في المذهب إلى جانبه[٤٤]. ورغم ضعف الأدارسة وتشرذمهم؛ وجد أمراء منهم حرصوا على إظهار تشيعهم الزيدي والدعوة إلى مذهبهم لكسب الاتباع والأنصار. وحسبنا أنهم أمروا الدعاة للتبشير بظهور إمام عادل تعم دعوته المشرق والمغرب[٤٥].

هكذا وظفت الإيديولوجية المذهبية لخدمة مخططات سياسية. وحق لأحد الدارسين[٤٦] القول بأن «العامل الإديولوجي عامل ثانوي سخر لخدمة السبب الأساسي في الصراع».

فلنحاول عرض أطوار هذا الصراع مسترشدين بهذا الإطار النظري.

وننوه بأن أحداث الموضوع ووقائعه من الكثرة والتداخل والتخليط بمكان. لذلك لن نحفل إلا بتبيان الخطوط الأساسية مع التدليل بالوقائع والأحداث بعد تحقيقها. وننبه أيضاً أننا لن نعرض للقوى المحلية الأخرى التي شملها الصراع إلا بالقدر الذي يساعد على إجلاء موقف الأدارسة إزاء القطبين المتصارعين[٤٧].

يمكن تقسيم الموضوع إلى أطوار ثلاثة؛ يبدأ الطور الأول مع ظهور الفاطميين وينتهي بعام ٣٢٤هـ. وقد توازن إبانه نفوذ الأمويين والفاطميين في

---

(٤٣) نفسه: ١٠٧.
(٤٤) نفسه: ١٢١.
(٤٥) ابن الابار: ١:١٣٢.
(٤٦) انظر: الحبيب الجنحاني: المرجع السابق: ٧٤.
(٤٧) عن دور هذه القوى؛ راجع: سنوسي، يوسف: دور زناتة في تاريخ المغرب من خروج الفاطميين إلى ظهور المرابطين. رسالة دكتوراه بإشراف المؤلف ـ مخطوطة،
عبدالكريم بيصعين: الصراع الفاطمي الأندلسي في المغرب الأقصى. رسالة ماجستير بإشراف المؤلف أيضا، مخطوطة.

المغرب الأقصى، وتذبذب موقف الأدارسة بين الولاء والقطيعة لهؤلاء أو أولئك.

أما الطور الثاني فينتهي حول عام ٣٤٧هـ. وقد تميز بسيادة النفوذ الأموي الأندلسي خاصة في المناطق الشمالية من المغرب الأقصى، ثم هوى هذا النفوذ في أواخر الحقبة ليحل النفوذ الفاطمي محله. وقد انتهز الأدارسة هذا التحول لتوسيع سيادتهم على حساب أموي الأندلس.

أما الطور الثالث؛ فينتهي عام ٣٧٥هـ. وقد شهد تضاؤل النفوذ الفاطمي واستفحال الصراع الأموي الإدريسي، ليتمخض في النهاية عن تعاظم المد الأموي وإسقاط حكم الأدارسة.

تعاظم النفوذ الفاطمي في المغرب الأقصى في بداية الطور الأول من أطوار الصراع. ويرجع ذلك إلى مؤازرة قبائل صنهاجة التي أرغمت القبائل الزناتية على الهجرة إلى المغرب لأقصى لتلعب ـ شأنها شأن القوى المحلية الأخرى ـ دوراً مخرباً لصالح أموي الأندلس وهربا من سياسة التغريم والشطط الجبائي التي اتبعها الفاطميون في إفريقية والمغرب الأوسط[٤٨].

وبرغم رابطة القرابة بين الأدارسة والفاطميين؛ وقف الأدارسة إلى جانب بني أمية لمواجهة حملة مصالة بن حبوس التي أنفذها الفاطميون إلى المغرب الأقصى[٤٩].

توجهت الحملة إلى نكور ـ حليفة قرطبة ـ للحيلولة دون تسرب الأمويين إلى طرق التجارة شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً[٥٠]. وقد نجحت في تحقيق

---

(٤٨) عبدالكريم بيصمين: ٣٣٩.
(٤٩) ابن عذارى: ١ :١٧٥.
(٥٠) أحمد بدر: ٨٥.

أغراضها بعد أن توغلت في الداخل وأحكمت السيطرة على منطقة تازا الإستراتيجية.

وإزاء هذا المد الفاطمي، لم يجد يحيى بن إدريس أمير فاس مناصاً من إعلان الطاعة للفواطم(٥١).

تمثل رد الفعل الأموي في نجاح الخليفة الناصر ـ عن طريق الدبلوماسية ـ في إعادة الأمور بالمغرب الأقصى إلى سابق عهدها خصوصاً بعد انسحاب مصالة.

وفي عام ٣٠٧هـ انفذ الفاطميون حملة مصالة الثانية التي غزت فاس ونجحت في عزل يحيى بن إدريس(٥٢). وكسب الفاطميون بذلك مدينة هامة ذات مكانة تجارية وكثافة بشرية وقيمة روحية.

وبعد انسحاب مصالة؛ تمكن الأمير الإدريسي الحسن الحجام من استرداد فاس(٥٣) ثم استعان بقبائل البربر الناقمة على الفواطم ليمد نفوذه إلى البصرة وأصيلا وزويغة وغيرها(٥٤).

عندئذ أخذ موسى بن أبي العافية ـ حليف قرطبة ـ على عاتقه مهمة تأديب الحسن الحجام؛ نظراً لانشغال الناصر بمشكلات داخلية أندلسية. فاستولى موسى على فاس وتوسع على حساب آل سليمان ـ أبناء عمومة الأدارسة ـ في تلمسان وجراوة(٥٥). فتقلص بذلك نفوذ الأدارسة وتقوقعوا في حجر النسر ببلاد غمارة

---

(٥١) البكري: ١٢٥.

(٥٢) نفسه: ١٢٦.

(٥٣) ابن أبي زرع: ٨١.

(٥٤) Terrasse, H: Histoire de Maroc. Casablanca, 1949, p. 127.

(٥٥) ابن عذارى: ١ : ١٣٤.

حيث كان أميرهم آنذاك هو محمد بن القاسم بن إدريس[٥٦] أما بنو عمر بن إدريس فقد انكمشوا في تيجساس[٥٧]، بينما لاذ آل سليمان بأرشقول[٥٨].

خشي الناصر من تعاظم نفوذ موسى بن أبي العافية على حساب القوى المحلية الموالية له بالمغرب الأقصى. لذلك عقد العزم على الاهتمام بأمور العدوة وأنفذ حملة استولت على مليلية[٥٩] ودعمت نفوذ حلفائه بنكور. كما استمالت محمد بن خزر المغراوي ـ عدو الفاطميين اللدود ـ الذي تمكن بمعاونة الناصر من مد نفوذه من تلمسان إلى تخوم إفريقية بحذاء الساحل[٦٠].

أما عن موقفه من الأدارسة؛ فقد عقد وفاقاً مع آل سليمان وعجز عن استمالة أدارسة الريف لتشبثهم بالولاء للفواطم[٦١]. ولا نجد مبرراً لزعم ابن حيان[٦٢] بأن هذا الولاء كان «نصراً للعصبية وانحرافاً عن بني أمية للأحقاد القديمة». ذلك أن عداء الأدارسة للفواطم كان أكثر حدة من عدائهم لأموي الأندلس. ولم تكن مواقفهم من هؤلاء أو أولئك إلا لخدمة طموحاتهم في استرداد نفوذهم المفقود.

على كل حال ـ بلغ المد الأموي أوجه باستيلاء الناصر على سبتة التي «اشتد بها سلطانه وتعاظم بها شأنه لما ملك البحر بعدوتيه. . وأضحت ركاباً إلى العدوة. . توطدت بها طاعته بأرض المغرب»[٦٣].

---

(٥٦) ابن أبي زرع: ٨٥.
(٥٧) ابن خلدون: ٦: ٤٤٨.
(٥٨) ابن عذارى: ١: ١٩٦.
(٥٩) ابن الخطيب: ٣: ١٧٦.
(٦٠) ابن عذارى: ١: ١٩٤.
(٦١) ابن حيان: قطعة شالميتا، ص٢٦٢.
(٦٢) نفس المصدر والصفحة.
(٦٣) نفسه: ٢٨٩.

ولما كانت سبتة تابعة للأدارسة؛ لذلك حاولوا استردادها. وبالفعل جرد إبراهيم بن محمد وأخوه القاسم جنون حملة لم يقدر لها النجاح[٦٤]. كما حاول آل سليمان استرداد تلسمان وجراوة دون طائل[٦٥]. عندئذ أنفذ الناصر أسطوله لقمع الأدارسة وآل سليمان في آن؛ فلم يجد الخصمان بدأً من الإذعان[٦٦]. وتعلل الأدارسة بأن قبائل البربر هي المسؤولة عن غزو سبتة. ويبدو بالفعل أن قبائل بني يفرن الموالية للأدارسة كانت من وراء غزو المدينة.[٦٧] كما تذرع السليمانيون بأن ولاءهم للناصر جر عليهم نقمة الأدارسة.

ومع ذلك كان إعلان هؤلاء وأولئك الطاعة للناصر من قبيل التمويه؛ إذ ما لبث السليمانيون أن تحصنوا بجزائر ملوية[٦٨]. أما الأدارسة فقد تنصلوا من طاعتهم على إثر انفاذ الفاطميين حملة جديدة بقيادة حميد بن يصل؛ استولت على تلمسان وجراوة وفاس وكفلت للعلويين شيئاً من نفوذ[٦٩].

اهتبل الأدارسة الفرصة فهاجموا أصيلا وحشدوا جبهة قوية ضد الناصر مكنتهم من الاستيلاء عليها.[٧٠] لكن التجار الأندلسيين بالمدينة راسلوا الناصر يطلبون النجدة؛ فأنفذ أسطولاً وضع حداً لنفوذ الأدارسة بأصيلا[٧١].

---

(٦٤) نفسه: ٢٩٠ وما بعدها.
(٦٥) نفسه: ٢١٣.
(٦٦) نفسه: ٣٦٢.
(٦٧) سنوسي يوسف: ٧٠.
(٦٨) ابن عذارى: ١: ٢٠٠.
(٦٩) عبدالكريم بيصمين: ٢٨٢.
(٧٠) ابن عذارى: ١: ٢٤٣.
(٧١) ابن حيان: ٣٤٧.

وبالمثل راسل الأدارسة القاسم بن المهدي الفاطمي، فأنفذ حملة يقودها ميسور الفتي الذي تمكن من اقتحام فاس[72] بعد القضاء على نفوذ ابن أبي العافية وأورث الأدارسة أملاكه[73].

لكن الأدارسة عجزوا عن دخول فاس عقب رحيل ميسور، كما عجزوا عن استرداد اصيلا؛ فعادوا للتقوقع في حجر النسر[74]. ولم يجدوا محيداً عن الكتابة إلى الناصر يؤكدون تنصلهم من التبعية للفواطم ويعلنون له الطاعة مبررين مسلكهم «بالخوف من بطش ميسور ودفعاً لمكروهه»[75].

على كل حال ـ انتهت هذه المرحلة من الصراع في المغرب الأقصى بانزواء الأدارسة في حجر النسر وأحوازها، وإن ظلت بعض قبائل غمارة تدين لهم بالتبعية[76]. وبالمثل انحصر نفوذ آل سليمان في سوق إبراهيم وأحوازها بعد أن بطش بهم الأمويون والفواطم على السواء[77].

استهل الطور الثاني من الصراع عام ٣٢٥هـ بانحسار نفوذ قطبية في المغرب الأقصى نظراً لانشغالها بمشكلات داخلية، الأمر الذي اتاح للقوى المحلية أن تعمل لحسابها وتوسع من دوائر نفوذها. فقد نجح السليمانيون في استرداد جراوة وتلمسان[78]. كما تمكن أدارسة حجر النسر بقيادة القاسم جنون من استعادة أصيلا سنة ٣٢٦هـ، ثم ثنوا بالبصرة وتوسعوا شرقاً صوب ممر تازا[79].

---

(٧٢) ابن أبي زرع: ٨٥.
(٧٣) ابن عذارى: ١: ١٩٨.
(٧٤) ابن أبي زرع: ٨٧.
(٧٥) ابن حيان: ٣٩٠.
(٧٦) ابن عذارى: ١: ٢١٤.
(٧٧) عبدالكريم بيصعين: ٢٩٥.
(٧٨) ابن حيان: ٣٨٦.
(٧٩) ابن عذارى: ١: ٢٣٥.

وقدر للإثنين معا مد نفوذهما إلى مناطق ذات أهمية تجارية واستراتيجية.

ولا محل لتصديق ما قيل من أن هذا النشاط كان يجري لحساب الفواطم. والصواب أنه تم على أنقاض الأمويين وأتباعهم من زناتة[٨٠].

لذلك أنفذ الناصر حملة على المغرب الأقصى سنة ٣٣٣هـ؛ نجحت في الضغط على أدارسة تجيساس من بني عمر بن إدريس؛ فأذعنوا لطاعة الناصر.

على أن أدارسة حجر النسر بزعامة القاسم جنون أعلنوا الحرب على الأمويين وبني عمر في آن ووجهوا جيوشهم صوب سبتة وطنجة وتيجساس[٨١].

وعلى إثر وفاة القاسم جنون حل ابنه أحمد أبي العيش محله؛ فواصل سياسة أبيه في التوسع وتمكن من إخضاع فاس[٨٢]. وضيق الخناق حول سبتة بأن شيد مدينة تيطاون[٨٣].

إزاء تعاظم الخطر الإدريسي؛ جرد الناصر حملة على المغرب الأقصى سنة ٣٣٥هـ؛ قدر لها تخريب تيطاون ومحاصرة أحمد أبي العيش حتى استسلم. وحمل قسرا إلى الأندلس لوضع حد لمناوراته[٨٤]. وجرى تنصيب أخيه الحسن بن القاسم مكانه فاعترف بالطاعة للأمويين. وظل الود طابعا للعلاقة بين الطرفين

---

(٨٠) عبد الكريم بيصعين: ٣٠٨.

(٨١) ابن عذارى: ١: ٢١١.

(٨٢) ابن أبي زرع: ٨٨.

(٨٣) البكري: ١١٩.

(٨٤) عبدالكريم بيصعين: ٣١٧.

لا محل لتصديق ما ذهب إليه البكري من أن أحمد أبي العيش توجه إلى الأندلس طواعية واختيارا رغبة منه في المثاغرة ضد النصارى.

انظر: المغرب: ١٣١.

حتى أعد المعز لدين الله الفاطمي حملة كبرى من كتامة وصنهاجة[٨٥]؛ أسند قيادتها إلى جوهر الصقلي وأنفذها إلى المغرب الأقصى؛ فوصلت فاس سنة ٣٤٧هـ. ونجح جوهر في الاستيلاء على ديار آل سليمان وأحكم السيطرة على الطرق التجارية بين الشمال والجنوب[٨٦].

أما الأدارسة؛ فقد لاذ أميرهم الحسن بن القاسم بالأندلس[٨٧]، وكان بوسع جوهر إسقاط أدارسة الشمال؛ لكنه عزف عن ذلك نظر البعد ديارهم عن طرق التجارة نحو السودان[٨٨].

هكذا انصرم الطور الثاني من أطوار الصراع بعد أن توطد النفوذ الفاطمي على حساب الأدارسة والأمويين. وحسبنا أن النفوذ الأموي اقتصر آنذاك على مدينة سبتة.

بدأ الطور الأخير في تاريخ الصراع بحقبة من الهدوء النسبي؛ نظرا لانشغال الفاطميين بالإعداد للعودة إلى مصر، وانشغال أموي الأندلس بمواجهة الأخطار الداخلية والخارجية التي واكبت وفاة الناصر وأيلولة الخلافة إلى الحكم المستنصر. وهذا يفسر لماذا عول الأخير على الدبلوماسية وتقديم الأموال والألطاف للقوى الموالية له في المغرب. فوثق علاقته ببورغواطة؛ ليكفل للأندلس نصيبا من تجارة السودان عبر طريق تاروادنت[٨٩]. كما أسقط الضرائب على أهل سبتة كسبا

---

(٨٥) ابن أبي زرع: ١٠٠.
من مظاهر هذا الود إيفاد الناصر أحد أطبائه لعلاج أحد أمراء الأدارسة، انظر: ابن حيان: ٤٦١.

(٨٦) عبدالكريم بيصعين: ٣٣٩.

(٨٧) ابن عذارى: ١: ١٩٨.

(٨٨) عبدالكريم بيصعين: ٣٤٢.

(٨٩) نفسه: ٣٥٣.

لرضاهم[٩٠].

أما الأدارسة فقد أنفذوا رسلهم إلى قرطبة سنة٣٥٩هـ، بعد أن تهددهم الخطر الفاطمي؛ يعلنون الطاعة للحكم المستنصر[٩١]. لكنهم ما لبثوا أن استغلوا تقاعسه عن التدخل العسكري في المغرب الأقصى؛ وأخذوا يعملون لحسابهم؛ خاصة بعد أن وافتهم أخبار قدوم حملة فاطمية. وفي ذلك يقول مؤرخ مجهول[٩٢] أن «الحسن بن القاسم طمع في الوثوب بأصحاب الخليفة الحكم».

وبالفعل استغل الحسن هذه الظروف؛ فبسط نفوذه على كافة الأقاليم الشمالية الغربية من المغرب الأقصى[٩٣]. إذ استعاد أصيلا وفتح طنجة وحاصر سبتة سنة ٣٦٠هـ بعد أن أزرته قبائل من بربر غمارة وصنهاجة. وتسنى له بذلك الهيمنة على مصائر الأمور في المناطق الشمالية الغربية من المغرب الأقصى[٩٤].

وقد ذكر ابن حيان[٩٥] ـ كعادته ـ أن العاهل الإدريسي فتح هذه البلاد باسم الخليفة المعز. لكن المؤكد أنه كان يعمل لحسابه منتهزا تقاعس الحكم المستنصر عن التدخل العسكري وعزوف المعز عن أمور المغرب الأقصى ـ والأوسط أيضا ـ[٩٦] نظرا لانشغاله بالانتقال إلى مصر. ونحن نؤكد على هذه السياسة الإدريسية المستقلة ونرى أن ولاء الأدارسة لأي من الطرفين الأموي أو الفاطمي لم يكن إلا نتيجة الضغوط التي مارساها على الأدارسة[٩٧].

---

(٩٠) ابن عذارى: ١: ٢٧٧.
(٩١) نفسه: ٢٤٠.
(٩٢) صاحب كتاب مفاخر البربر، ص ٨، الرباط ١٩٣٤.
(٩٣) Provencal: Op. cit. Vol.3, p. 185.
(٩٤) أحمد بدر: ٩٢.
(٩٥) ابن حيان: قطعة الحجي: ٧٩: بيروت ١٩٦٥.
(٩٦) عبدالكريم بيصمين: ٣٦٥.
(٩٧) محمد عبدالله عنان: ٤٩٢.

على كل حال ـ لم يدم هذا الوضع طويلا؛ فقد تخلص الحكم المستنصر من مشكلاته الداخلية والخارجية وأزمع التدخل في المغرب الأقصى. فبادر بتجريد حملة كبرى دعمها بأسطول ضخم[٩٨]. ونجحت جيوشه في استرداد تيطاون وطنجة وأصيلا، لكنها هزمت في معركة مهران وقتل قائدها. ونجح الحسن بن القاسم في لم شمل بربر المنطقة لدعم نفوذه فيها[٩٩].

لذلك لجأ الحكم المستنصر إلى الأساليب الدبلوماسية من جديد. فأرسل الهدايا إلى رؤساء القبائل، وشن حملة دعائية تتهم الحسن بن القاسم بالإلحاد[١٠٠].

وعملت هذه الوسائل عملها؛ فانفض البربر عن الحسن بن القاسم، كما تخلى عنه بعض أفراد البيت الإدريسي؛ فلم يجد بدا من طلب الموادعة. وأنفذ رسله إلى قرطبة في هذا الشأن؛ لكن الحكم المستنصر أصر على «نفيه من أرضه وإخراجه عن جميع ذلك البلد»[١٠١].

وبالفعل حاصرته الجيوش الأموية وطاردته حتى تم القبض عليه ونفيه إلى الأندلس[١٠٢]. أما اتباعه فقد عفا الحكم عنهم شريطة «موالاة من والاه ومعاداة من عاداه والسير مع السنة والجماعة وفق أحكام المذهب المالكي»[١٠٣].

هكذا تمكنت الحملة الأندلسية من استئصال شأفة الأدارسة ببلاد الريف[١٠٤]، وتحويل أتباعهم من المذهب الزيدي إلى المذهب المالكي.

---

(٩٨) ابن حيان: ٨٩، ٩٠.
(٩٩) نفسه: ٩٩.
(١٠٠) نفسه: ١٥٠.
(١٠١) نفس المصدر والصفحة.
(١٠٢) نفسه: ٢٠١.
(١٠٣) نفسه: ٨١ ـ ٨٩.
(١٠٤) محمد عبدالله عنان: ٤٩٧.

على أن الحسن بن القاسم تمكن من الهرب ونزل إفريقية لائذا ببلاط بني زيري. ومنها توجه إلى مصر[١٠٥]. وهناك اتصل بالخليفة الفاطمي العزيز بالله ليعينه على استعادة رياسته. وبالفعل أمر الخليفة بلكين بن زيري بقيادة حملة إلى المغرب الأقصى على أن يصطحب معه الحسن بن القاسم ليعمل «على تعكير الجو وإقامة العراقيل أمام بسط السيادة الأموية»[١٠٦].

وأنفذت الحملة بالفعل وتمكن الحسن بن القاسم من كسب قبائل البربر إلى جانبه[١٠٧]؛ وخاصة بني يفرن الزناتيين[١٠٨]. لكن وفاة بلكين المفاجئة وتراجع حملته إلى افريقية فتح أبواب المغرب الأقصى على مصراعيها للمد الأموي من جديد.

ذلك أن المنصور بن أبي عامر أنفذ حملة إلى المغرب الأقصى تعاونت مع زيري بن عطيه المغراوي؛ قدر لها أن تجبر الحسن بن القاسم على الاستسلام[١٠٩]. وتم القضاء على حركته سنة ٣٧٤هـ[١١٠].

وبالقضاء على هذه الحركة سقطت دولة الأدارسة. واختفى أفراد البيت الإدريسي في أغمار القبائل[١١١]. وقامت دولة بني زيري المغراوية على أنقاضها متخذة من فاس الأدارسة حاضرة لها[١١٢].

---

(١٠٥) قيل أن الحكم المستنصر هو الذي أمر بطرده هو وأصحابه من الأندلس؛ لتوفير ما ينفق عليهم من نفقات باهظة.
نفس المرجع: ٤٩٩.
(١٠٦) أحمد بدر: ١٠٠.
(١٠٧) ابن أبي زرع: ٩٣.
(١٠٨) أحمد بدر: ١٠٠، سنوسي يوسف: ٧٤
(١٠٩) أحمد بدر: ١٠٠.
(١١٠) ابن أبي زرع: ٩٤.
(١١١) سنوسي يوسف: ٧٥.
(١١٢) نفسه: ٧٧ وما بعدها.

وفي ذلك يقول ابن أبي زرع[١١٣]: «كابد الأدارسة مملكتين عظيمتين ودولتين كبيرتين؛ دولة العبيديين بمصر وإفريقية ودولة بني أمية بالأندلس. وكانوا ينازعون الخلفاء إلى درك الخلافة ويقعدهم ضعف سلطانهم وقلة مالهم».

على أن بعض أفراد البيت الإدريسي تمكنوا فيما بعد من الأخذ بثأر آبائهم حين أسهموا في إسقاط الخلافة الأموية بالأندلس وأقاموا دولة بني حمود. وفي ذلك يقول ابن الخطيب[١١٤]: «ركدت ريح العلوية بالمغرب. وكان من بقي منهم بقرطبة في ديوان السلطان جارين مجرى المغاربة إلى أن كانت الفتنة التي أدت إلى انقراض دولة بني أمية وتصير الأمر إلى هؤلاء الأدارسة».

---

(١١٣) القرطاس: ٩٥.
(١١٤) أعمال الأعلام: ٣: ٢٢٤.

خاتمة

طرحنا في مقدمة الكتاب وتقديمات الأبواب «إشكاليات الموضوع». وأوضحنا ما تعلق منها «بالإطار المرجعي» وما اختص بمناهج المعالجة، وما ارتبط بالموضوع ذاته من حيث الأحداث والوقائع ومن حيث التفسير والتأويل.

كما تعهدنا بتقديم «الجديد» عن طريق حلحلة تلك الإشكاليات؛ وهو ما أعلناه في عنوان الكتاب.

والسؤال هو: هل نجح الباحث من خلال عرضه أن يفي بالوعد ويقدم الجديد؟

بديهي أن نترك الإجابة للمتخصصين؛ فهم وحدهم مناط الحكم فيما إذا كان هذا الجديد حقيقة أم ادعاء. لكن واجب المؤلف إزاء القراء من غير المتخصصين فضلا عن الضرورة المنهجية التي تلزمه باختتام دراسته بما يفيد مدى ما أسفرت عنه؛ يجعل من المشروع عرض الإسهامات التي أنجزتها الدراسة ولو عن طريق التنويه والإشارة.

لذلك؛ يمكن أن ننوه بما يأتي:

أولا: بخصوص الإطار المرجعي؛ كان الباحث حسن الطالع حين وقف على مادة جديدة أمكن الإفادة منها في إجلاء تاريخ كان قبل مضببا. ويشهد العرض والببليوجرافيا على درجة هذه الإفادة من الوثائق والنصوص الجديدة

والمسكوكات التي جرى استخلاص حقائق جديدة منها لم تكن معروفة سلفا؛ الأمر الذي ساعد على «ملأ فجوات» و«سد ثغرات» في تاريخ الأدارسة. هذا فضلا عن حسم الكثير من القضايا الخلافية وتصحيح المزيد من الآراء المشتطة؛ حسما لا يترك المجال لشبهة.

ويشهد العرض أيضا على أن الباحث لم يقف من هذه المادة الجديدة موقف «الانبهار» بل تناولها، «بالجرح والتعديل» قصد التحقق من صدقها. وسلك في هذا الصدد منهج المقارنة؛ حيث وازن بينها وبين الإشارات التي تناظرها في المصادر المعروفة. وراجع القديم والجديد بالعودة إلى السياق العام لتاريخ الدولة المؤرخ لها؛ تأسيسا على قاعدة خلدونية صحيحة هي الاحتكام إلى «طبائع العمران» و«قياس الغائب على الشاهد». واتضح بالفعل أن بعض هذه النصوص الجديدة انطوت على مبالغات وأخطاء بله «مفارقات» في بعض الأحيان. كما هو الحال - على سبيل المثال - بالنسبة لنصوص ابن حيان التي تنضح بالتحامل على الأدارسة وتنحاز لخصومهم أموي الأندلس.

ثانيا : فيما يتعلق بالمنهج؛ أثبت المؤلف في مقدمة الكتاب واستهلالات الفصول والأبواب عقم المناهج التقليدية سواء في مجال التحقيق أو في نطاق التفسير والتأويل. وفتح الباب على مصراعيه لسائر المناهج الحديثة - خاصة وأن ثورة منهجية في العلوم الإنسانية أنجزت في السنوات الأخيرة - حيث وظفها بالقدر الذي يوافق قدراتها وفي المواضع المناسبة لإمكاناتها. وعلى سبيل المثال وظف البنيوية والسيمولوجية في قراءة النصوص للإفصاح عن محتواها والوقوف على دلالات اصطلاحاتها بل ألفاظها. بذلك تسنى له الوقوف على «كنز» من المعلومات طالما حجبت أمام القراءات الكلاسيكية؛ أفاد منها خصيصا في مجال تحقيق الأحداث والوقائع والأسماء والألقاب والتواريخ وما شابه.

أما في مجال التفسير؛ فقد عقد المؤلف «وفاقا» بين «الآراء» الخلدونية والنظرية المادية في المعرفة؛ دون اعتساف أو تجن على ما اصطلح على تسميته «بالأصالة والمعاصرة».

وقد يرى البعض أن الباحث اهتم بالتاريخ السياسي في المحل الأول؛ ومن ثم أهمل التاريخ الحضاري فلم يفرد له مباحث مستقلة في الكتاب. وفي هذا الصدد ننبه إلا أن منهجنا لا يرى فصلا بين ما هو سياسي وما هو حضاري؛ تأسيسا على «السيرورة» و«الصيرورة» التاريخية التي تتسم بالشمول والتوحد، والتكامل. لا بالتجزىء والتقسيم العشوائي المتعسف. كما ينوه المؤلف بجدة منهجه في هذا الصدد. ولا حاجة بنا لدفاع نظري عنه بعد أن أثبت التطبيق العملي صحته. وحسبنا أنه يفضل هذا المنهج تحول تاريخ الأدارسة من كونه أحداثا ووقائع لا رابطة بينها إلى مجموعة من «الأفكار» الواضحة المستقاة من استقراء الأحداث والوقائع التي تعامل معها الباحث باعتبارها «مادة أولية».

وقد يقف القارىء المتخصص أيضا على «جديد منهجي» فيما استنه الباحث من توسيع دائرة موضوع بحثه. إذ وضع الأدارسة في مركز دائرة صغرى هي المغرب الأقصى الذي لا يمكن فهم تاريخه إلا بعد إحاطته بدائرة أرحب هي المغرب الكبير ـ أو بلاد المغارب كما يحلو للمؤرخين المغاربة المحدثين الاصطلاح ـ الذي طوقه الباحث بدائرة أكثر اتساعا هي «دار الإسلام». بل اضطر الباحث أحيانا إلى إحاطة كل هذه الدوائر بدائرة التاريخ العالمي. والباحث إذ ينهج هذا النهج؛ على قناعة تامة بثراء المعرفة المترتبة على رؤية الخاص في إطار العام.

ثالثا: بخصوص الموضوع ـ وهو تاريخ الأدارسة ـ يحسب الباحث أنه قدم «حلولا» ناجعة لمعظم «إشكالياته». وحتى لا يتوهم القارىء ظلال «نرجسية» في هذا الحكم؛ يبادر المؤلف فينبه إلى أن الفضل في ذلك يعود إلى «المادة الجديدة»

التي توافرت له و«المنهجية الجديدة» التي توسل بها في دراسة الموضوع.

ولا يتسع المجال إلا للإشارة العابرة إلى بعض النتائج التي انتهى إليها الباحث. ففي الباب الأول جرى إثبات وجود دعوة زيدية في الشرق ـ لأول مرة ـ بدأت مستقلة، ثم انخرطت في الدعوة العباسية، ثم انفصلت عنها لتندمج أخيرا في دعوة المعتزلة.

ومن خلال عرض الموضوع؛ اتضح أن دولة الأدارسة مدينة في تأسيسها إلى هذه الدعوة. على عكس ما ذهب إليه معظم الدارسين من أنها قامت كحدث عفوي مجاني دون سابق إعداد أو تنظيم.

كما أثبت العرض أن قبيلة أوربة المعتزلية شكلت العصبية التي قامت بأمر الدعوة في المغرب الأقصى وتوجتها بتأسيس دولة برهن قيامها على صحة النظرية الخلدونية في قيام الدول «عظيمة الملك عريضة الاستيلا».

وفي الباب الثاني؛ أثبتت الدراسة ـ لأول مرة ـ كذلك صدق الرؤية الخلدونية ـ «العضوية» في تطور الدول من الطفولة إلى المراهقة والفتوة ثم الشيخوخة. ومن ثم انفرد عرض سياسة الأدارسة الداخلية بتحاشي المنهجيات «الكرونولوجية» و«التيولوجية» و«الإثنية»؛ ليحل محلها بناء متسق ذو معالم واضحة مرتبطة بمعطيات الواقع «السوسيو ـ سياسي»؛ حيث ترتبط الأسباب بالمسببات وردود الأفعال بأفعالها. إذ أوضح العرض سياسة «المخزن» ورتب عليها مواقف المعارضة التي أثبت أنها لم تكن مجرد حركات عفوية تعبر عن سخائم عصبية أو نزعات مذهبية أو مغامرات فردية؛ بقدر ما كانت تعبيرا عن معطيات «سوسيو ـ اقتصادية». كما أثبت العرض تأكيد الطبيعة الخاصة والمتميزة لمفهوم «الدولة المغربية القرو ـ وسطوية»؛ حيث لعبت الجغرافيا الطبيعية والبشرية دورا موجها لحركة التاريخ.

على أن الإشارة إلى السمة الخاصة «للدولة المغربية» لا تتعارض مع اعتقادنا في القوانين العامة المحركة للتاريخ. ففي إطارها أمكن تفسير تاريخ الأدارسة في إطار هذه القوانين نفسها. إذ تفهم هذه الخصوصية ضمن «مجتمعات ما قبل الرأسمالية».

لذلك، كان الإطار النظري الذي انتهى عرض الموضوع إلى صياغته هو «الصراع بين البورجوازية والإقطاع».

وفي الباب الثالث، تناول المؤلف موضوع العلاقات الإدريسية الخارجية. ويزعم الباحث سيطرته على الموضوع بالوقوف على قاعدتين هامتين تحكمان مساره. الأولى: قاعدة «التوازن» بين القوى، بحيث لم تتغير خريطة الغرب الإسلامي تغيرا ذا بال. إذ حافظت كافة القوى ذات العلاقات مع الأدارسة على معطيات «سياسة الأمر الواقع» «Status-quo»: برغم مشروعاتها السياسية التوسعية الكبرى التي أفضت إلى حيك المؤامرات والاغتيالات وتدبير المكائد والصراع العسكري في بعض الأحيان.

والثانية، هي قاعدة «المصالح الاقتصادية المشتركة» التي دعمت قاعدة «توازن القوى» - إن لم تكن من أهم أسبابها - والتي جعلت صيغة «التعايش» تجب الاختلافات الإثنية والخلافات المذهبية والطموحات السياسية.

وإذا كان مؤرخا مثل «جوتييه» قد أشار إلى القاعدة الأولى، وآخر مثل موريس لومبار قد فطن إلى أهمية القاعدة الثانية، فإننا نجزم بأن أيا منهما لم يطبق ما توصل إليه نظريا.

ولا يجد المؤلف حرجا في الإعلان عن اغتباطه بما أنجز في هذا الموضوع الذي عالجه غيره من المؤرخين في ورقات تعد على أصابع اليد الواحدة.

أما عن إسهامات هذه العمل في مجال التحقيق؛ فحسبه أن كل صفحاته لا تخلو من جديد في تحقيق التواريخ والأسماء والمواضع والأماكن كذا في الكشف عن أخطاء القدامى والمحدثين.

وفي مجال التفسير؛ لا يتقاعس المؤلف عن الإشارة إلى ما تضمنته مقدمات الفصول والأبواب من آراء نظرية جرت برهنتها خلال العرض لتتحول إلى أحكام ومقولات وتعقيبات اختتم بها كل باب وكل فصل.

وهذا يرجع إلى قناعة المؤلف بقراءته الجديدة لمقدمة ابن خلدون وربط نتائجها بانجازات النظرية المادية في المعرفة دون تعصب أو اعتساف.

لقد دلل هذا العمل - بامتياز - عما سبق أن بشر به وتبناه وأثبته المؤلف في كتابات سابقة - ذات طابع نظري سجالي - في مجال المنهج والرؤية.

أخيرا - يعتذر الباحث عن الاسترسال في تبيان «الجديد» الذي توصل إليه، وعزاؤه أنه كتب هذه الخاتمة لا باعتباره مؤلف الكتاب؛ بقدر كونه قارئا متخصصا له.

والله ولي التوفيق

المصادر

١ ــ ابن الآبار: الحلة السيراء، جـ١، القاهرة ١٩٦٣، فرانز ١٨٦٦.

٢ ــ ابن أبي زرع: روض القرطاس، الرباط ١٩٧٢.

٣ ــ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٥، القاهرة ١٩٥٧.

٤ ــ ابن حيان: المقتبس من أخبار أهل الأندلس، تحقيق الحجي، بيروت ١٩٦٥.

٥ ــ ابن حيان: المقتبس من أخبار أهل الأندلس، تحقيق محمود مكي، بيروت ١٩٧٣.

٦ ــ ابن حيان: المقتبس من أخبار أهل الأندلس، تحقيق شالميتا، مدريد ١٩٧٩.

٧ ــ ابن حوقل: صورة الأرض، ليدن ١٩٣٨.

٨ ــ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، جـ٣، الدار البيضاء ١٩٧٤.

٩ ــ ابن خلدون: المقدمة، القاهرة؟.

١٠ ــ ابن خلدون: العبر، جـ٤، ٦، بيروت ١٩٧٩.

١١ ــ ابن سعيد: المغرب في حلي المغرب، بيروت ١٩٤٨.

١٢ ــ ابن عبدالحكم: فتوح مصر والمغرب، ليدن ١٩٢٠.

١٣ ــ ابن عبدربه: العقد الفريد، جـ٣، القاهرة ١٩٤٠.

١٤ ــ ابن عذارى: البيان المغرب، جـ١، باريس ١٩٤٨.

١٥ ــ ابن عذارى: البيان المغرب، جـ٢، بيروت ١٩٥٠.

١٦ ـ ابن عرفه الورغمي: باب الإمامة، حوليات الجامعة التونسية، عدد ٩، تونس؟.

١٧ ـ ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، بريل ١٩٨٥.

١٨ ـ ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، جـ١، القاهرة؟.

١٩ ـ إبراهيم العبيدي: البورغواطيون في المغرب، مراكش ١٩٨٣.

٢٠ ـ أبو زكريا: السيرة وأخبار الأئمة، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٩٠٣٠ح.

٢١ ـ أحمد بدر: تاريخ الأندلس في القرن الرابع الهجري، دمشق ١٩٧٤.

٢٢ ـ أرشيبالدلويس: القوى البحرية والتجارية في البحر المتوسط، القاهرة؟.

٢٣ ـ إسعادة الشيخ: المجتمع المغربي في عصر الولاة، رسالة ماجستير، مخطوطة.

٢٤ ـ الإدريسي: نزهة المشتاق، الجزائر ١٩٥٧.

٢٥ ـ الأصفهاني: مقاتل الطالبيين، النجف ١٣٥٣هـ.

٢٦ ـ الحبيب الجنحاني: القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية، تونس ١٩٦٨.

٢٧ ـ الحبيب الجنحاني: المغرب الإسلامي، تونس ١٩٧٨.

٢٨ ـ السيد عبدالعزيز سالم: المغرب الكبير، جـ٢، الإسكندرية ١٩٦٦.

٢٩ ـ Al-Laroui: L'histoire du Maghreb, Paris, 1970.

٣٠ ـ ايف لاكوست: العلامة ابن خلدون، بيروت ١٩٧٤.

٣١ ـ Eustache: Compus de dirhams Idrisites et contemporains, Rabat, 1970.

٣٢ ـ Provencal; L: Histoire de l'Espagne Musulmane, Vol.1, Alger, 1944, Vol.3, Paris, 1950.

٣٣ ـ البغدادي: الفرق بين الفرق، القاهرة؟.

٣٤ ــ البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، باريس ١٩١١.

٣٥ ــ البلاذري: أنساب الإشراف، جـ٣، القاهرة ١٩٥٩.

٣٦ ــ البلخي: مقالات إسلامية، تونس ١٩٧٤.

٣٧ ــ Terrasse, H: Histoine du Maroc, Casablanca, 1949.

٣٨ ــ الجاحظ: البيان والتبيين، جـ١، القاهرة ١٩٤٨.

٣٩ ــ Gautier: Les siecles obscurs du Maghreb, Paris, 1927.

٤٠ ــ جولدتسيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام، القاهرة ١٩٥٩.

٤١ ــ جوليان: تاريخ إفريقية الشمالية، تونس ١٩٨٥.

٤٢ ــ حسن أحمد محمود: العالم الإسلامي في العصر العباسي، القاهرة ١٩٦٩.

٤٣ ــ حسن علي حسن عبدالعواد: دولة الأدارسة، رسالة ماجستير ـ مخطوطة.

٤٤ ــ الدمشقي: تاريخ الجهمية والمعتزلة، ؟

٤٥ ــ الرقيق القيروني: تاريخ إفريقية والمغرب، تونس ١٩٦٩.

٤٦ ــ سامية توفيق: انتشار الإسلام والثقافة العربية في بلاد المغرب، القاهرة ١٩٨٦.

٤٧ ــ سعد زغلول عبدالحميد: تاريخ المغرب العربي، جـ١، الاسكندرية ١٩٦٤.

٤٨ ــ Scott: History of the Moorish empire in Europe, Vol.1, London, 1904.

٤٩ ــ السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدار البيضاء ١٩٥٤.

٥٠ ــ السنوسي: الدرر السنية في أخبار الدولة الإدريسية، القاهرة ١٩٥٤.

٥١ ــ سنوسي يوسف: دور زناتة في المغرب الإسلامي من خروج الفاطميين حتى قيام المرابطين، رسالة دكتوراه ـ مخطوطة.

٥٢ ــ الشماخي: السير، القاهرة؟.

٥٣ ــ الشهرستاني: الملل والنحل، جـ١، القاهرة ١٩٤٥.

٥٤ ــ الصاحب إسماعيل بن عباد: نصرة مذاهب الزيدية، بغداد ١٩٧٧.
٥٥ ــ عبدالكريم بيصعين: الصراع الفاطمي الأندلسي في المغرب الأقصى ـ رسالة ماجستير ـ مخطوطة.
٥٦ ــ عبداللطيف السعداني: إدريس الأول: منشيء دولة وباعث دعوة، مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية، فاس عدد ٤، ٥، سنة ١٩٨٠، ١٩٨١.
٥٧ ــ عبدالمنعم ماجد: العصر العباسي الأول، القاهرة ١٩٧٣.
٥٨ ــ فلهوزن: الخوارج والشيعة، القاهرة ١٩٦٨.
٥٩ ــ Vonderheyden: La berberie Musulmane sous la dynastie des Benou' L-Arlab, Paris, 1927.
٦٠ ــ Fournel: Les Berbers, Vol.1, Paris, 1875.
٦١ ــ Marcais, G: L'Afrique du Nord Francais dans l'histoire, Paris, 1937.
٦٢ ــ Marcais, G: la Benberie Musulmane et L'Orient aumoyen ages, Paris, 1964.
٦٣ ــ الماوردي: الأحكام السلطانية، القاهرة ١٩٦٠.
٦٤ ــ مجلة الوثائق، جـ١، الرباط ١٩٧٦.
٦٥ ــ مجهول: نبذة عن كتاب التاريخ؟.
٦٦ ــ مجهول: الاستبصار، الاسكندرية ١٩٥٨.
٦٧ ــ مجهول: تاريخ مدينة فاس، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٤٤١٩ ح.
٦٨ ــ مجهول: نبذ تاريخية من أخبار البربر في القرون الوسطى، الرباط ١٩٢٩.
٦٩ ــ مجهول: مفاخر البربر، الرباط ١٩٣٤.
٧٠ ــ محمد أركون: تاريخية الفكر العربي الإسلامي، بيروت ١٩٨٦.
٧١ ــ محمد الطالبي: الدولة الأغلبية، بيروت ١٩٨٥.
٧٢ ــ محمد حباني: خصائص المدن المغربية في عصر الدول المستقلة، رسالة

ماجستير - مخطوطة.

٧٣ ـ محمد حسن الزين: الشيعة في التاريخ، بيروت ١٩٧٩.

٧٤ ـ محمد عابد الجابري: العصبية والدولة، الدار البيضاء ١٩٨١.

٧٥ ـ محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، القاهرة ١٩٦٩.

٧٦ ـ محمود إسماعيل: الأغالبة ، فاس ١٩٦٨.

٧٧ ـ محمود إسماعيل: الحركات السرية في الإسلام، فاس ١٩٧٧.

٧٨ ـ محمود إسماعيل: مغربيات، فاس ١٩٧٧.

٧٩ ـ محمود إسماعيل: سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، جـ١، ٢، الدار البيضاء ١٩٨٠.

٨٠ ـ محمود إسماعيل: مقالات في الفكر والتاريخ، الدار البيضاء ١٩٧٩.

٨١ ـ محمود إسماعيل: الخوارج في بلاد المغرب، القاهرة ١٩٨٤.

٨٢ ـ محمود إسماعيل: فكرة التاريخ بين الإسلام والماركسية، بيروت ١٩٨٨.

٨٣ ـ المرتضى: المنية والأمل، حيد آباد ١٣١٦هـ.

٨٤ ـ Mercier: Histoire del'Afrique Septentrionale, Vol.1, Paris, 1988.

٨٥ ـ المسعودي: مروج الذهب، جـ٣، القاهرة ١٩٦٤.

٨٦ ـ المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن ١٩٠٦.

٨٧ ـ الملطي: التنبيه والرد علي أهل الأهواء والبدع، القاهرة ١٩٤٩.

٨٨ ـ موريس لومبار: الذهب الإسلامي من القرن الثامن حتى القرن الحادي عشر الميلادي، فصل في كتاب «بحوث في التاريخ الاقتصادي»، القاهرة ١٩٦١.

٨٩ ـ Motylinski: Chronique d'Ibn Saghir Sur Les Imams Rostimides de Tehart. Ates du 14 Congrés internationale des Orientalistes, Alger, 1905, Vol.3, Part 2.

٩٠ ـ النونجتي: فرق الشيعة، بيروت ١٩٨٤.

٩١ ــ النويري: نهاية الأرب، جـ٢٢، ٢٦ مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٥٤٩ معارف عامة.

٩٢ ــ هوبكنز: النظم الإسلامية في المغرب، تونس ١٩٨٠.

٩٣ ــ ياقوت: معجم البلدان، جـ١، بيروت ١٩٥٦.

٩٤ ــ اليعقوبي: تاريخه، جـ٢، النجف ١٣٥٨هـ.

٩٥ ــ اليعقوبي: البلدان، ليدن، ١٨٩٤.